

BOBST LIBRARY



3 1142 01676 3891



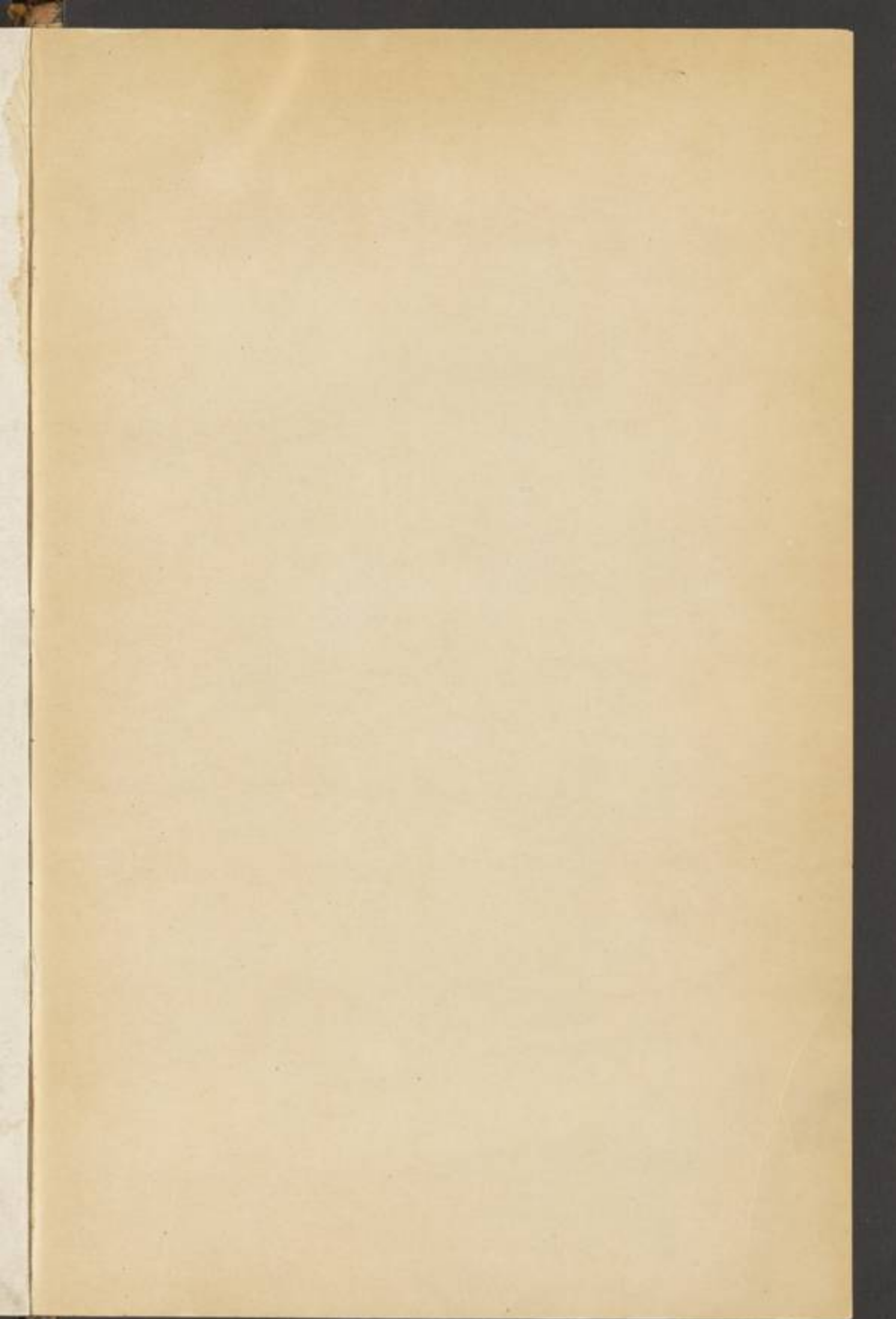
NEW YORK
UNIVERSITY
LIBRARIES

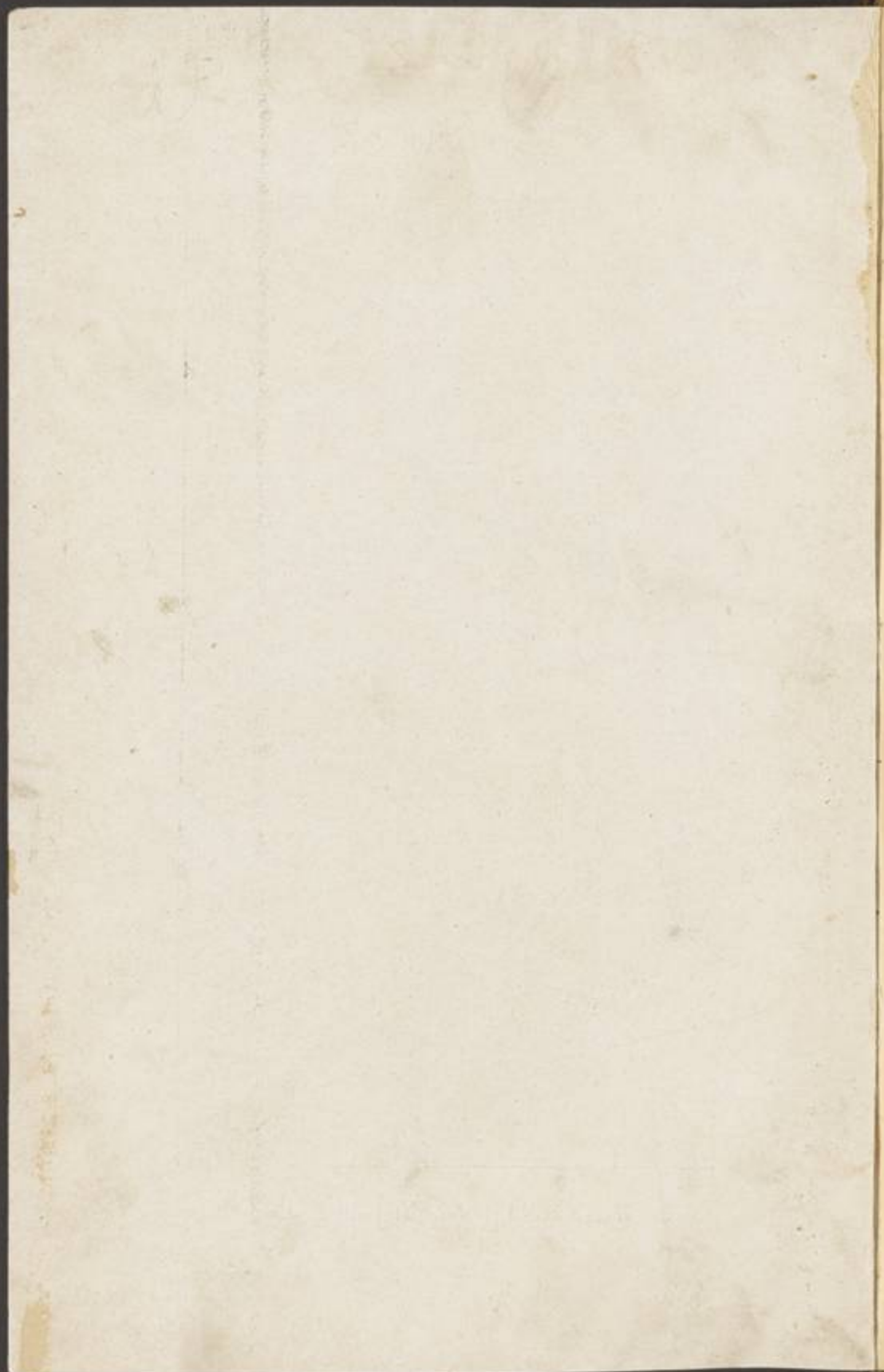
GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

DATE DUE

DATE DUE



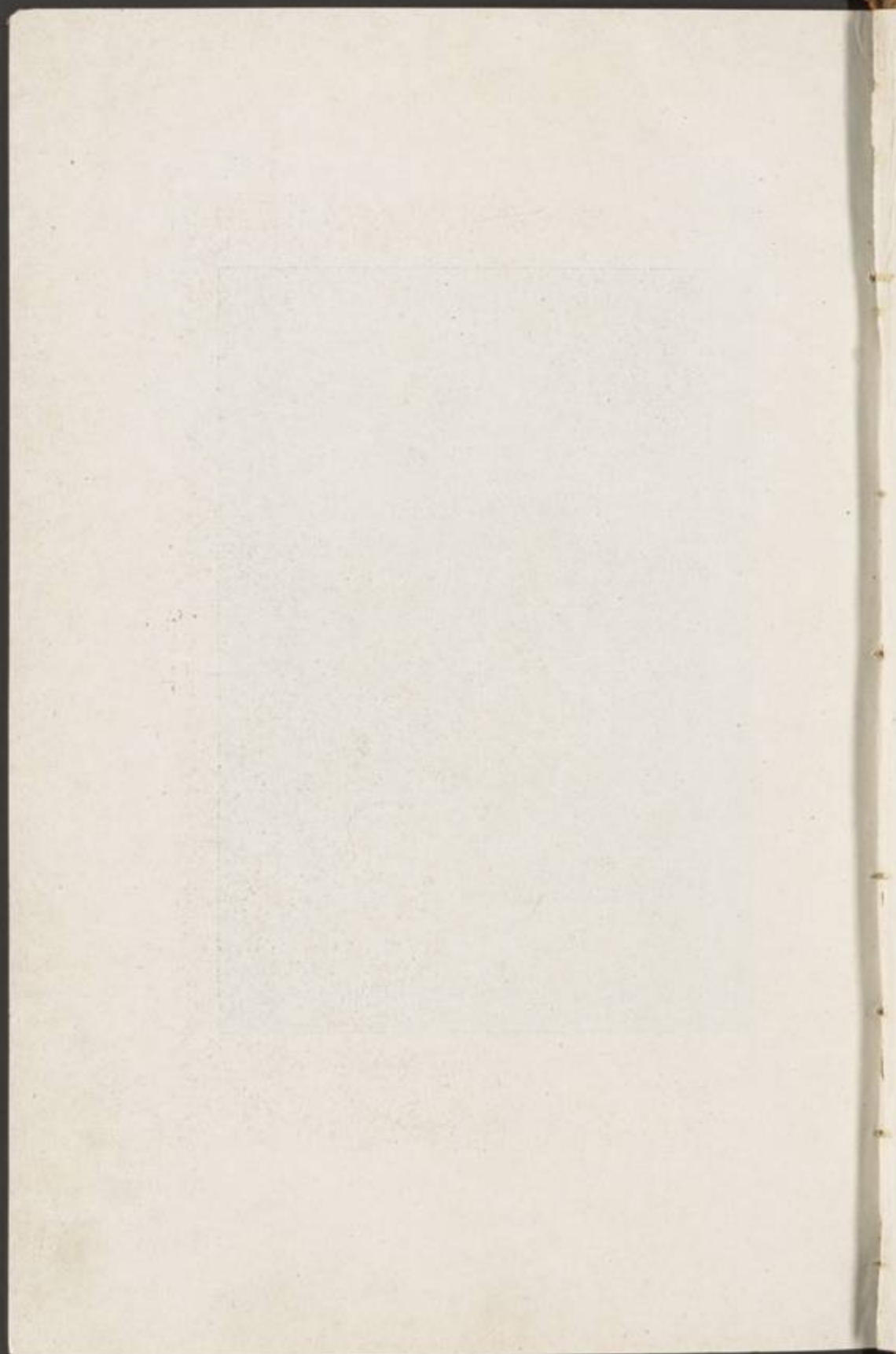


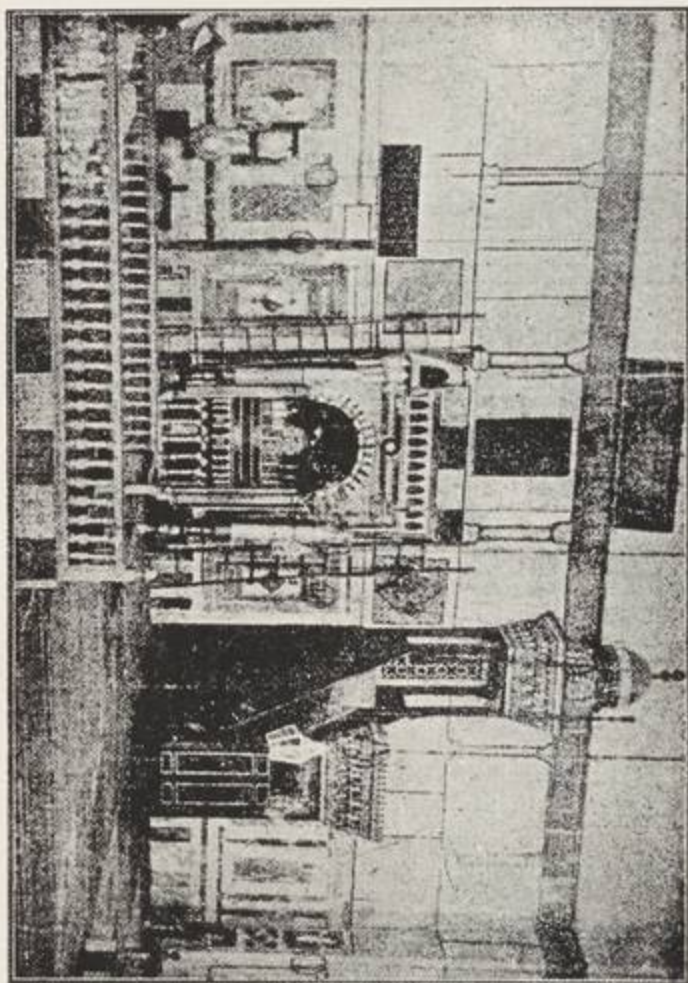


مهدية الملك فؤاد الاول

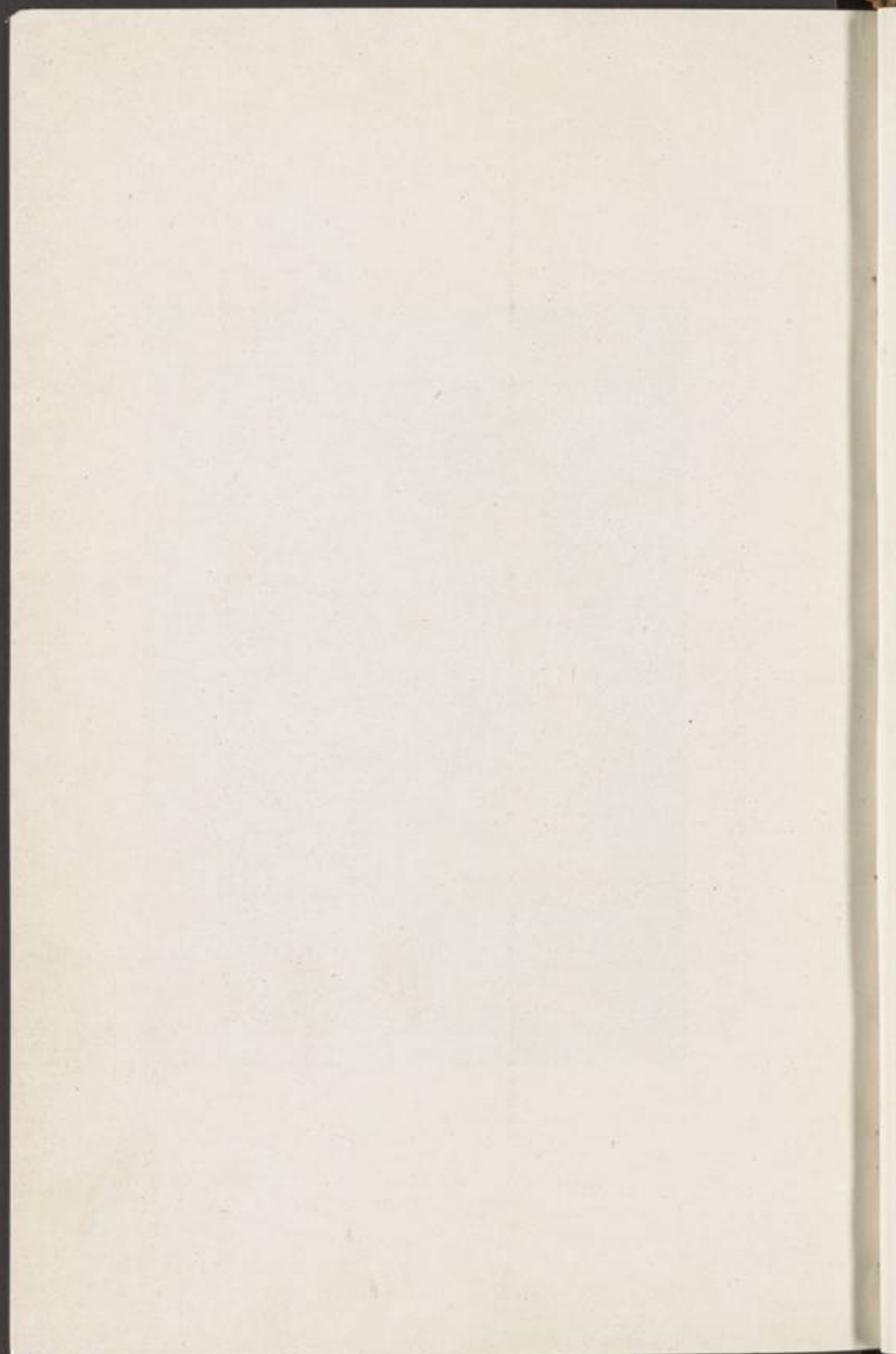


صاحب الفضل الأكبر على الجامعة المصرية

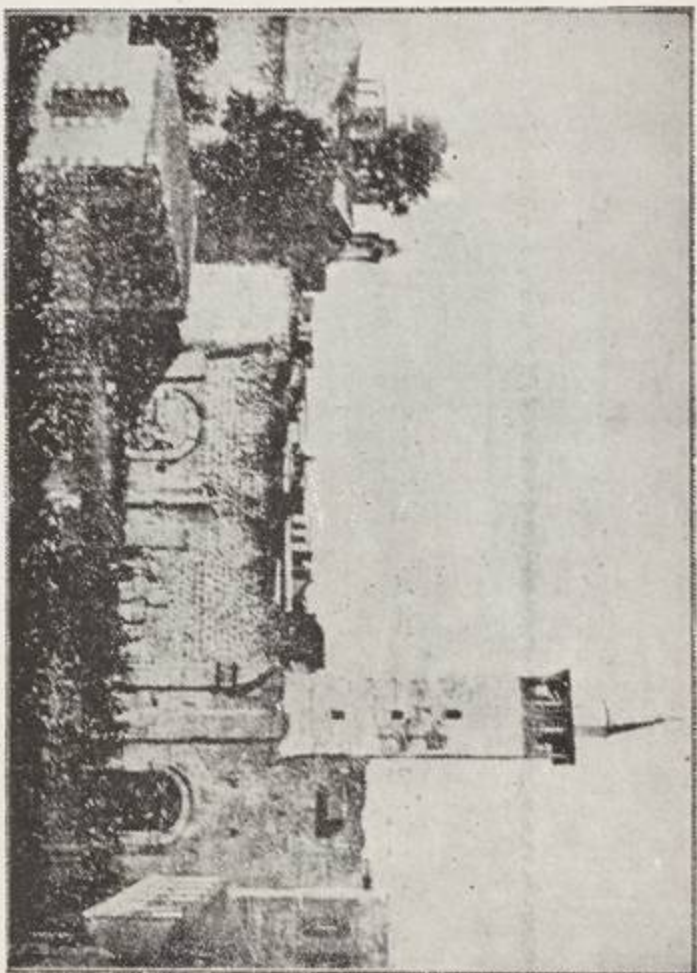




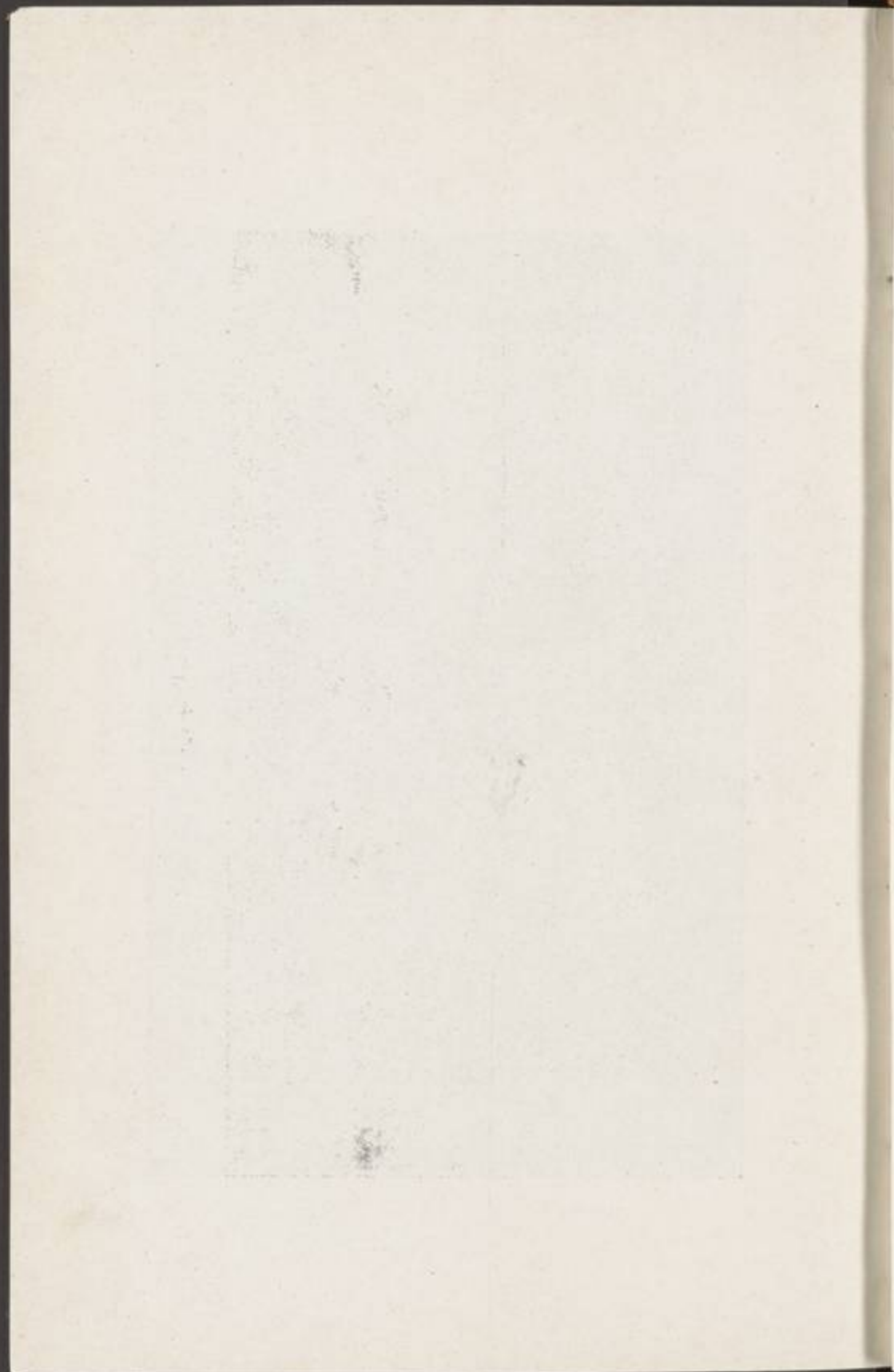
St. Peter's



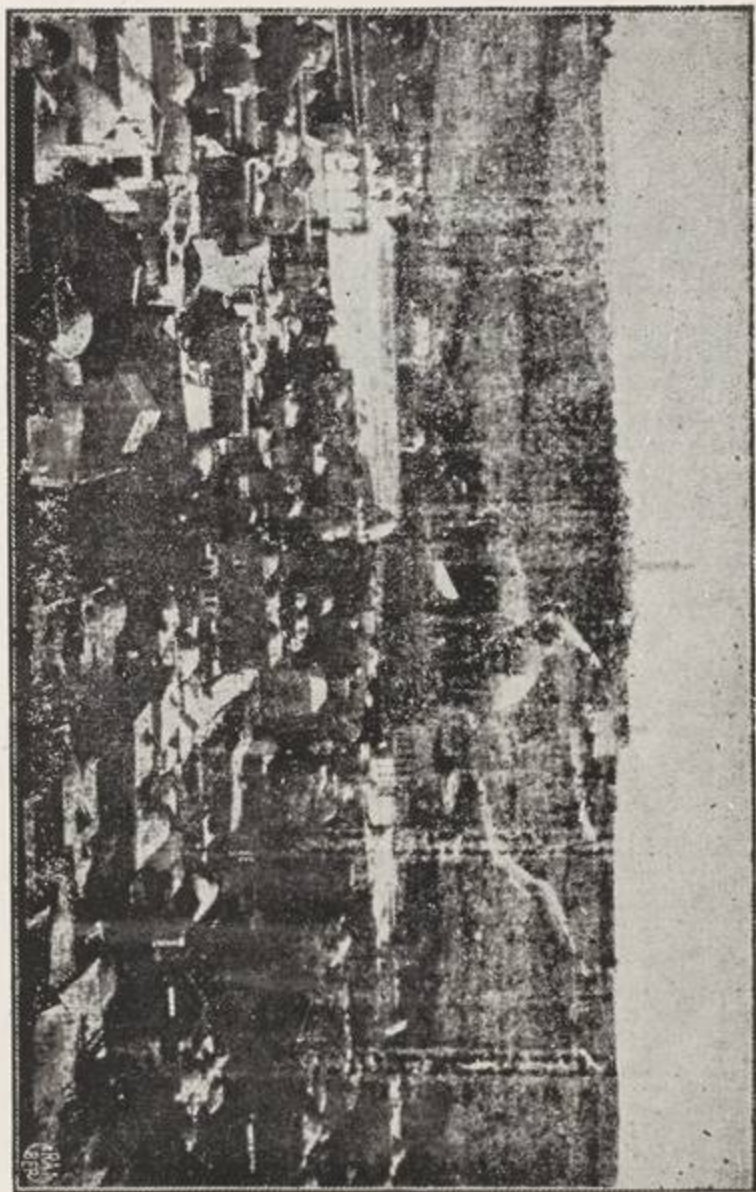
باب توما في دمشق

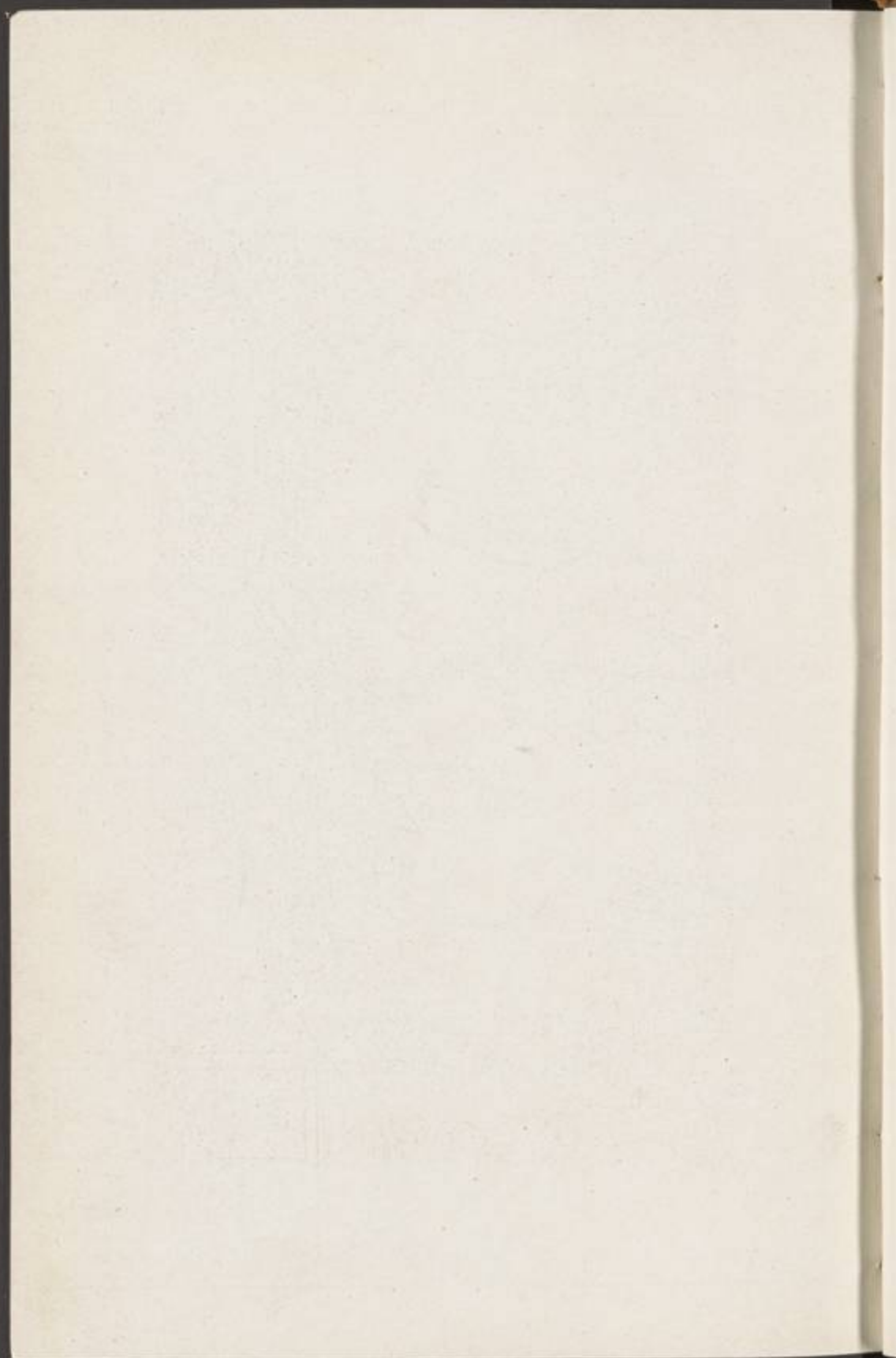


نزل به يزيد بن ابي سفيان لما حاصر المسلمون دمشق في أيام ابي بكر
ونزل به حميد بن قحطبة لما حوصرت دمشق في ابتداء الدولة العباسية



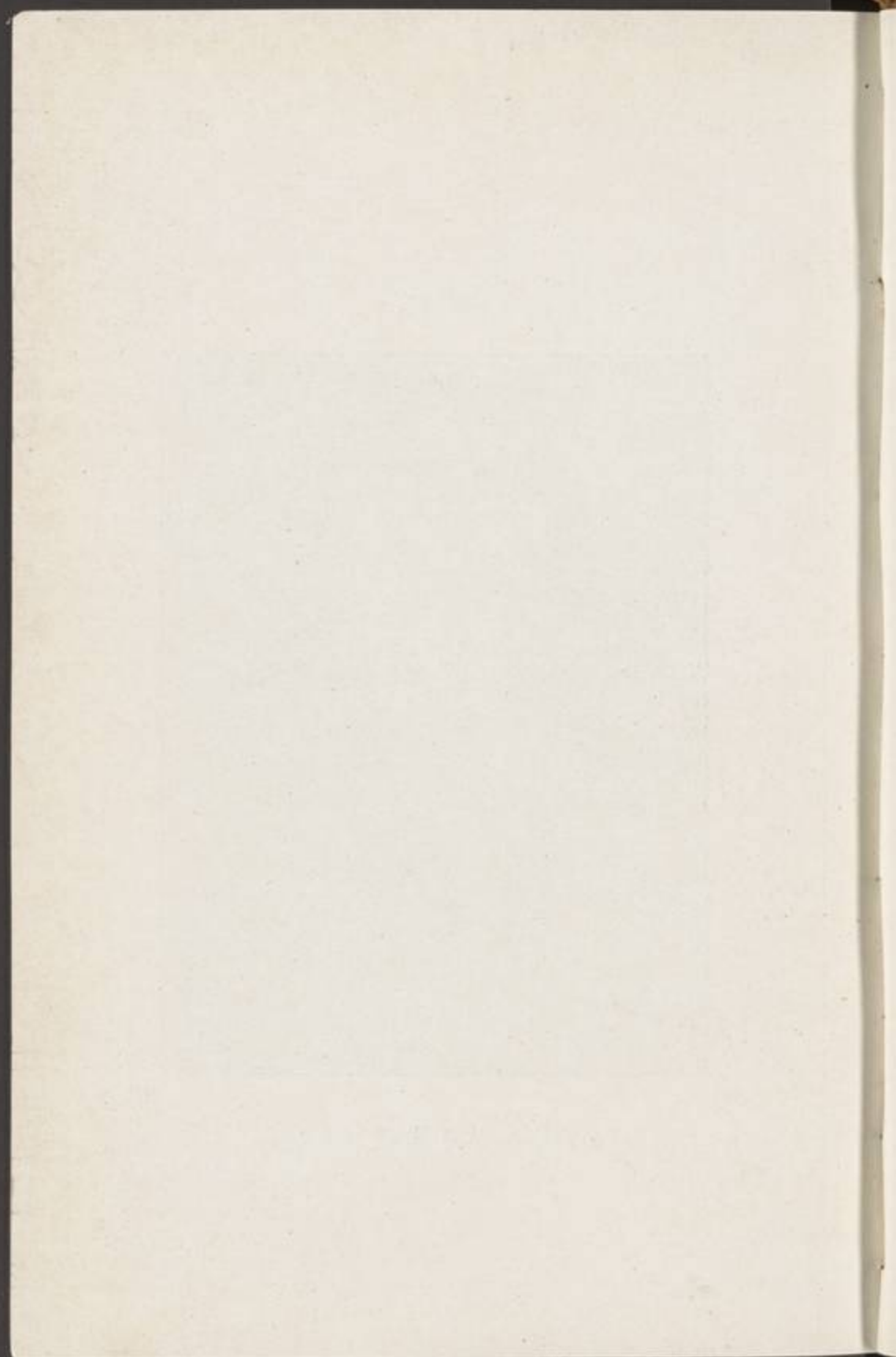
صحرة بيت المقدس



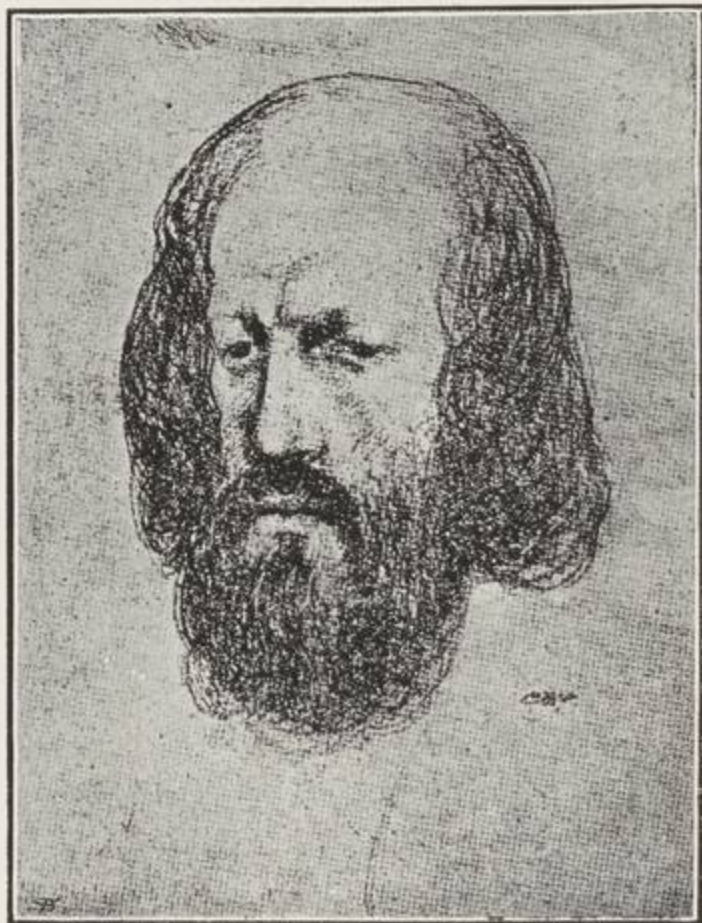




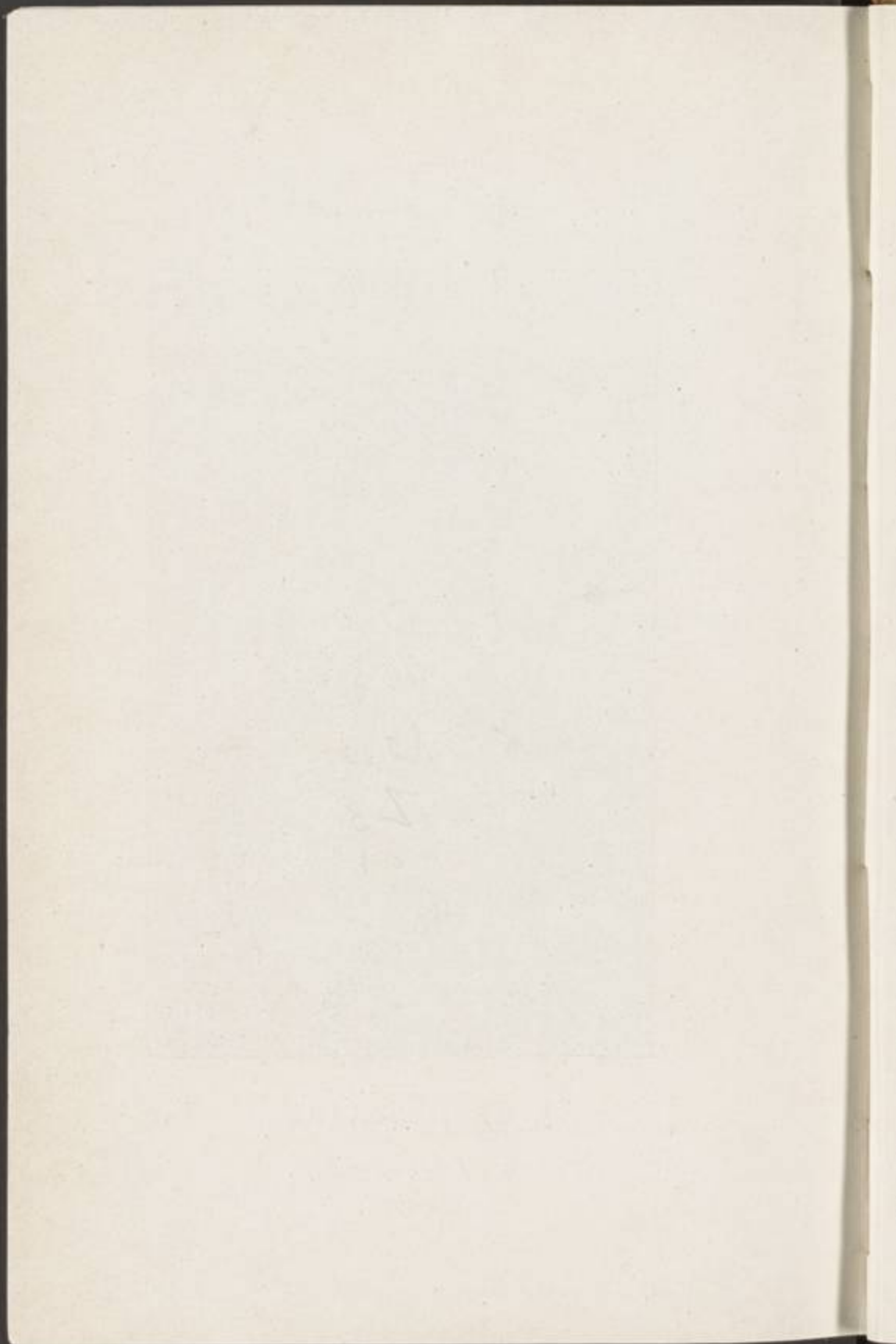
الامارات اللاتينية في سورية
(بعد)
الحروب الصليبية الاولى
تم الشرح بمخارم الشرق للامارات اللاتينية في سورية



الفزالي



صورة تخيلها الاستاذ جبران خليل جبران



الدكتور منصور فرهمي



أستاذ الفلسفة بالجامعة المصرية

1903

صورة المؤلف



لم يَغْدُ رَسْمِي ضَيْلَا كَالْبَدْرِ عِنْدَ الْحِقَاقِ
إِلَّا لِأَنَّ اللَّيَالِي وَمَا لَهَا مِنْ خَلَاقِ
صَيَّرْتَنِي فِي بِلَادِي غَضَنْفَرًا فِي وَتَاقِ

زكي مبارك

Zakī Mubārak
/al-'Akhlaq 'inda al-Ghazzālī/

الْأَخْلَاقُ عِنْدَ الْغَزَالِيِّ

تَأليف

الدكتور زكي مبارك

قدّم هذا الكتاب إلى الجامعة المصرية ، وتوقّش أمام الجمهور
في ١٥ مايو سنة ١٩٢٤ ، وتال به المؤلف شهادة العالمية
بدرجة « جيد جداً » ولقب دكتور في الآداب

« وكلام عظيم المطلوب وشرف ، صعب
مسلكه ، وطال طريقه ، وكثرت عقباته »
الغزالي

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

يطلب من المكتبة التجارئة الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية بمصر
لصاحبها عبد الرحمن موسى شريف

الاهداء

الى ماضرة صامب الجهرنة الملك فؤاد الاول

مولاي

بفضلك نهضت الجامعة المصرية ، وبعنايتك تؤدى
ما أعدت له : من تهذيب النفوس ، وثقيف
العقول

وهذا يا مولاي كتاب نلت به الشهادة العليا
من الجامعة ، فكان من الحق أن أتشرف بإهدائه
إلى مقامك الجليل ، اعترافاً بما جلالتك من الفضل
على ذلك المعهد ، وأملاً في أن تغمره بفضلك
من جديد ، والسلام

عبركم

زكى مبارك

دكتور فى الآداب

مقدمة

لم يكدمؤلف هذا الكتاب يجتاز امتحان الدكتوراه مصحوباً بالتوفيق ، حتى قام نفر من أصحاب الأغراض : يذيعون عنسه المفريات ، ويتقولون عليه الأقاويل . وقد بدا للمؤلف أن يدفع الشر بالشر ، ولكن أستاذه الفيلسوف الدكتور منصور فهمي كتب إليه خطاباً بوصيه فيه بالرفق ، وينصح له بالثبوت ، ويدعوه الى مقابلة الشر بالصفح الجميل والمؤلف ثبت هنا هذا الأثر الخالد ، ويشكر أستاذه على نصيحته القيمة ، ويماهد ربه وقومه على أن لا يعمل غير ما يعتقد أنه حق وصواب

أخي العزيز

طلما وجدنا في تاريخ الأفكار عامة حملات للنقد شديدة . وطلما رأينا علماء المسلمين وفلاسفتهم ينال بعضهم بعضاً بالنقد والتجريح . وطلما غلّوا في النقد حتى انقلب إيذاء وإبلاماً ولكن هل أخفت شدة النقد يوماً فضل المنتقد عليه ؟ وهل ضنّ الزمان على المنتقد بن بما هم أهل له : من الحرمه والمكانة ؟ وكيف ذلك ، والنقد ليس إلا أداة لإظهار الحقائق واضحة جلية ؟ واثن كان للناقد فضل في إظهار خطأ المنتقد عليه ، فلقد كان لهذا أعظم الفضل بسبقه الى موارد العلم ، وخوضه في مسائل كانت سبباً في يقظة هذا الباحث الأخير

إلا أنه يجمل بنا حين ننظر في كتب المتقدمين ، الذين يخالفوننا في أساليب البحث ، ومناهج التفكير ، أن نتمثل أنفسنا في أزمنتهم ، وأمكنتهم ، وأن نتمثل ما استخدموه للحصول على الحقائق من مختلف

الأدوات ، لكي نلتمس لهم العذر ، إذا رأيناهم لم يصلوا الى الأغوار البعيدة ، التي ينبع منها الماء صافياً تقيّاً

وما أبعد الفرق بين من يدخل الهيحاء بما سلّحته به العصور الخوالي من سهام ونبال ، وبين من يدخلها مدرّعاً بما ابتدعته العصور الحديثة من معدات النزال ؛ وما أكبر الفرق بين الضوء ينبعث من زيت المصباح ، وبين النور يتفجّر من تربيّات الكهرباء ؛ ولكننا مع ذلك أيها الأخ العزيز نعجب بأصحاب القسيّ والنبال ، إذا لم تنقصهم الشجاعة ، ولم يفترسهم الثبات ، ونحمد الأضواء الضئيلة التي تنبث من زيوت المصابيح ، لأنّها على ضآلتها تصدع جوانب الظلام

فإذا رأينا الغزالي غفل عن حقيقة تذبّتنا نحن إليها ، أو أغلق عليه موضوعُ فُتِحَتْ لنا أبوابه ، أو أدركه وهن في الرأي ، أو تناقض في فهم فكرة ، نجدد بنا أن تقدّر ظروف زمانه ومكانه ، وأن نذكر كيف كانت وسائله الى الفهم والإدراك ، قبل أن نصبّ عليه جام اللوم والتّريب

إن أهل تلك الأعصر الخالية ، كانوا يعتمدون كثيراً على ذاكرتهم ، وكانوا في الوقت نفسه يتناولون كثيراً من الموضوعات ، لأن فكرة الإخضاء وتوزيع الأعمال ، لم تكن مألوفاً لديهم على نحو ما هي اليوم ، وكانوا يرون الجهد في طلب العلم طاعةً لله . فمن ثمّ حفظوا كثيراً ، وكتبوا كثيراً ، ولكن ضاق وقهم ، ووهنت قوتهم ، فلم يستطيعوا ترتيب ما كنزوا من العلوم الكثيرة ، فخلطوا الغث بالثمين ، وعرض لهم الضعف ، والتناقض ، والاضطراب

وكذلك كان من أكبر الخدمات أن يتناول الشباب المثقف كتب المتقدمين ، فيدرسها ، ويفهمها ، ويحللها ، ثم يبيّن ما فيها من الخطأ والصواب . ومن أولى بذلك من طلبة الجامعة المصرية ، التي أنشئت لوصل القديم

بالجديد ، وحث الخلف ، على الانتفاع بمراث السلف ، وإتقاز الجيل
الحاضر ، من غلطات الجيل الغابر ؟

لا يخطئ من يتناول كتب المتقدمين بالدرس ، والتمحيص ،
والتهذيب ، بل ذلك حق وواجب ، لأن فيه حياة لما يجب أن يحيا من
الأفكار ، وموتاً لما يجب أن يموت من الأوهام ، ولأن في النقد الصحيح
تهذيباً للمشاعر ، وتنويراً للعقول

وإنما يخطئ من يبالغ في حب المتقدمين ، فينسى سيئاتهم ، مع أن
لهم سيئات ؛ أو يبالغ في بفضهم ، فينسى حسناتهم ، مع أن لهم كثيراً من
الحسنات . والنقد الحق يرتكز على سرد المحاسن والعيوب ، بلا جورٍ ولا
محاباة ، وقد يذهب بصاحبه الى التوفيق بين الآراء المختلفة ، فيجعل من
الزوايا المتعددة التي ننظر منها الى الحقائق شكلاً واحداً منسجماً الترتيب
ننظر من نواحيه الى تلك الحقائق . فأعداء النقد ليسوا فقط أعداء الحرية
الآراء ، ولكنهم أعداء لمنازع التوفيق

وأنت يا أخي درست مؤلفات الغزالي ، وفهمتها ، وحلتها ، وبنيت
ما فيها من الخطأ والصواب ، فإذا ينقم الناس منك ، وقد ذكرته بالخير ،
حين رأيت أن يذكر بالخير ، وذكرته باللام ، حين رأيت أن يذكر باللام ،
وما كان الغزالي بأكبر من أن يخطئ ، ولا كنت أنت بأصغر من أن تصيب
لقد راعهم أن يقسو قلبك على مؤلف له عندهم حرمة وقداسة ، وكان
عليهم أن يذكروا أنك شاب ، وأن قلم الشباب قاسٍ شديد . بل ليتهم عملوا
بما طالبوك به من الرفق والهدوء ، فلم يوجهوا اليك قارص اللوم ، ومر التائب
كانت رسالتك مثاراً للجدل والمناقشة ، ويعلم الله أننا لم نفضب لذلك .
لأننا نريد أن نخدم الحقيقة ، والحقيقة بنت البحث . وهل علمناك إلا أن

تكون خادماً للحقيقة ولو شقَّ اليها الطريق؟ فما دمت ترى أنك على حق ، وما دمت تعتقد أنك سائر على الصراط السوى ، فإك أن تتمسك برأيك ، وتدافع عن حقاك ، ولكن في رفق ونزاهة ، فإن الحق لا يخدم بمثل الرفق والنزاهة . وكما يجب عليك أن تدافع عما تعتقد أنه حق ، فإن عليك أن تنفض يدك بسرعة البرق مما تعتقد أنه باطل ، فإن الرجوع الى الحق فضيلة ، والتماذي على الباطل نقيصة ، وليس بعد الحق إلا الضلال

لقد علمتنا رسالتك ، بجانب ما تناولته من الأبحاث العديدة ، أننا قطعنا شوطاً بعيداً في سبيل الآراء الحرة ، المدعمة بالقوة والنهوض . وإن كنا نأسف على أنه لا تزال هناك صدور ضيقة ، يؤذيها الهواء الطليق ، وكان الخير في أن تستروح به ، وتسكن اليه . ونأسف كذلك على أن عدد هؤلاء كثير . وعدد المفكرين قليل

لقد زاد اغتباطي برسالتك أنها أول رسالة قيمة تناولت تاريخ الأفكار الاسلامية بالتقد والتحليل ، وأرجو أن تكون خطوة تتبعها في هذا المدى خطوات . وإن كان يحزنني أن يتألب عليك رجال المعهد الذي أعدك لدخول الجامعة المصرية . ولكن الانصاف يقضي علينا بأن نعترف بأن هذه سيئة لم ينفرد بها الأزهريون . فإنا نرى بكل أسف أن الأزهريين يرمون أصحاب الأفكار الحرة بالكفر والمروق ، وأنصار الآراء الجديدة يرمون الأزهريين بالجهل والجمود . وهم جميعاً من المسرفين

وإذا كان لي أن أنصحك - ومن الواجب أن أنصحك - فإني أدعوك الى حرب هذه الضلالة . وحنذر أن تقاطع أحداً من أساتذتك وزملائك في الأزهر الشريف ، فإنكم جميعاً طلاب علم ، وأنصار حق ، والتوفيق بينكم ليس بالأمر المحال

لقد فات كثيراً من عشاق الجديد أن يضموا اليهم أنصار القديم
بالرفق والجمالة ، وأنت بحمد الله ربيب الأزهر والمعاهد الدينية ، فإذا
يضرك لو وصلت أساتذتك وزملاءك ، وجادلهم بالتي هي أحسن ، لتسيروا
أصفياء في التوفيق بين القديم والجديد

انني أخشى عليك كثيراً أيها الأخ ، فقد رأيت كيف قامت القيامة
حين اطلع الجمهور على جانب واحد من رسالتك ، فإذا عسى أن يصنع هذا
الجمهور حين يطلع على ما فيها من شتى الجوانب ، ومختلف الأرجاء ؟
ولكن اياك أن نجزع ، وقد بدئت حياتك العلمية ، بصدمة من تلك
الصددمات الاجتماعية ، فذلك دليل على أنك خادم من خدام الإصلاح ،
وهو خير لقب تلقى به الله

ولك خالص الدعوات ، والعطف ، والسلام

منصور فرامى

المؤلف — أكرر الشكر لسيدى الأستاذ الدكتور منصور ، وأؤكد
له أن بيني وبين علماء الأزهر الشريف عُرى لا تقدر على فصمها الليالى .
وان أنسى ما حيت أنى مدين على الأقل لحضرات أساتذتى الأماجد
الشيخ الدجوى والشيخ اللبان والشيخ الطواهرى والشيخ الزنكلونى والشيخ
حسين والى والشيخ سيد المرصفي . فاذا قضت الظروف بأن تنقطع بيني
وبين الأزهر جميع الصلات — لا قدر الله ولا سمح — فاني لن أنسى
ولن ينسى أحد أنى مدين لاساتذتى فى الأزهر ، وأن خروجى عليهم ضرب
من العقوق ، ونسكران الجليل

اللهم ان كنت تعلم أنى صادق فيما أقول ، فاجزنى بخير ما يجزى به
المؤمن الصادق ، وان كنت تعلم أنى أظهر غير ما أضمر ، فاغفر لى وتب على
فانك وحدك التواب الغفور

فاتحة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء
 والمرسلين

وبعد فهذا هو الكتاب الذي نلت به اجازة الدكتوراه
 من الجامعة المصرية ، والذي سلقني العلماء من أجله بالسنة حداد
 هذا هو كتاب (الأخلاق عند الغزالي) أقدمه للجمهور :
 ليكون المرجع لمن يريد أن يتبين مبلغ المفرضين من الصدق ،
 وحظ المرجفين من الصواب

هذا هو الكتاب الذي رميت من أجله بالكفر والزندقة ،
 والذي سَجَرَ لحسادى ينبوعاً من اللغو والثرثرة لا ينضب ولا
 يفيض . وما أنا والله بنادم على رأى رأيته ، أو قول جهرت به ،
 فلست ممن يخافون فى الحق لومة لائم ، أو يقيمون وزناً لكيد
 الحاسدين ، ولغو اللاعنين ، من مرضى القلوب ، وضعاف العقول ،

وصغار النفوس ؛ وإنما يحزنني ما يلاقى أصدقائي من العنت في دفع ما يفترى الكاذبون ، ويختلق المفسدون

على أن الغزالي رحمه الله عانى من حاسديه مثل ما عانيت ، ولاقى ضعف مالاقيت ، حتى لنجده يُطمئن أحد إخوانه بقوله « رأيتك أيها الأخ المشفق موغر الصدر ، مقسم الفكر ، لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة في أسرار معاملات الدين ، وزعمهم أن فيها ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين ، والمشايخ المتكلمين ، وأن العدول عن مذهب الأشعري ولو في قيد شبر كفر ، ومباينته ولو في شيء نزر ضلال وخسر ، فهوّن أيها الأخ المشفق على نفسك ، لاتضيّق به صدرك وفلّ من غربك قليلا ، واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلا ، واستحقر من لا يحسد ولا يقذف ، واستصغر من بالكفر والضلال لا يعرف ، فأى داع أكمل وأعقل من سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وقد قالوا انه مجنون من المجانين ، وأى كلام أجل وأصدق من كلام رب العالمين ، وقد قالوا انه أساطير الأولين ، وإياك أن تشتغل بخصامهم ، وتطمع في إفحامهم ، فتطمع في غير مطعم ، وتصوّت في غير مسمع ، أما سمعت ما قيل : كل العداوة قد ترجى إزالتها * إلا عداوة من عاداك عن حسد

ولو كان فيه مطمع لأحد من الناس ، لما تلى على أجلهم رتبة
آيات الياس . أو ما سمعت قوله تعالى (وان كان كبر عليك اعراضهم
فان استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سما في السماء فتأتهم
بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين)^(١)
وقوله تعالى (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ،
لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون)^(٢) وقوله
تعالى (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فامسحوه بأيديهم لقال
الذين كفروا ان هذا إلا سحر مبين) وقوله تعالى (ولو أننا نزلنا
اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا
ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون)^(٣)
وقد صار الغزالي بعد ذلك حجة الاسلام . ونحن لا نريد
أن يفتن الناس بنا كما فتنوا به ، فهل نرجو أن نظفر فقط بالسلامة
من تقوّل المفترين ، وتزيد المعتدين ؟
« على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت
خير الفاتحين » م

محمد زكي عبد السلام مبارك

(١) كبر : شق — النفق : سرب في الأرض (٢) يعرجون : يصعدون .
سكرت : حبست عن النظر (٣) قبلا : عياناً ومقابلة ، وأخطأ النسق حين ظنها
جمع قبيل بمعنى كفيل

الباب الأول

في

العصر الذي عاش فيه الغزالي

تمهيد

أريد أن أذكر شيئاً عن العصر الذي عاش فيه الغزالي ؛
وليس ذلك لأن الغزالي صورة لعصره . بل ليعرف القارئ إلى
أى حد تأثر الغزالي بعصره وأثر فيه . فمن المجازفة أن ندرس
عصراً من العصور ، لنعرف من نبغ فيه من الفلاسفة ، والكتاب ،
والشعراء ؛ وإنما ندرس شخصية الكاتب ، أو الشاعر ، أو
الفيلسوف . ثم يبحث عن المؤثرات التي كوَّنت تلك الشخصية ،
فقد تكون هذه المؤثرات قريبة ، وقد تكون بعيدة . وفقاً لما
أحاط بالشخص من الظروف

ولتوضيح هذا أذكر أن الاستاذ الكبير الدكتور طه حسين
درس العصر الذي عاش فيه أبو العلاء ، ليعرف الأصول التي كوَّنت
وجهة نظره في الحياة ، ثم فعل مثل هذا حين شرع في درس

أبي نواس ؛ ولكن الدكتور طه لا ينكر أن عصر أبي العلاء أنتج رجالاً يسيرون غير سيرته ، ويرون ما لا يراه ؛ وان عصر أبي نواس أخرج رجالاً لا يسيغون العبث ، ولا يجيزون المجون ؛ فن الواجب أن ندرس أولاً ما بين أيدينا من آثار الفلاسفة ، والكتاب ، والشعراء ، ثم نتبين بعد ذلك ما تألفت منه هذه الآثار ، فقد تكون نتيجة لمطالعات لاصلة بينها وبين العصر الذي ظهرت فيه . كما يمكن أن تكون نتيجة له بالذات

وإلا فخذني كيف يكون الشيخ محمود خطاب السبكي صورة لهذا العصر ، وهو يكوّن من تلامذته جبهة لا يشعر بها الناس ؛ وأمثال الشيخ السبكي عديدون ، ولكنني خصصته لكثرة مؤلفاته ، وقد يعثر عليه باحث يوماً في زوايا التاريخ ، أقرأه يدرس يومئذ هذا العصر ، ليعرف المؤثرات التي كوّنت عقلية هذا الرجل الذي يدّش حين تحدّثه عن أهل هذا الجيل ؛ !

انه لا شك في تأثير البيئة والعصر ؛ ولكن ينبغي أن نعرف أن من الناس من يعيش في قومه وعصره ، بجسمه لا بروحه ، فلا يحس بما يحس به معاصروه ، وإنما يشعر بما كان يشعر به من سبقوه بأجيال ؛ ففي مصر اليوم ، ناس من القرن الثالث ، وآخرون من القرن السابع ؛ كما في مصر اليوم من يمكن أن تكون آراؤه

وأفكاره صورة صادقة لمكانه وزمانه ، وأحب أن يعفني القارىء
من ضرب الأمثال

من أجل هذا أجمل القول عن العصر الذى عاش فيه الغزالي
وأكتفى بوضع صورة قريبة من الواقع للحالة العامة فى عصره ،
ليتمثل القارىء زمان الغزالي ومكانه ، وليعرف ما تمس الحاجة اليه
مما أثر بالفعل فى حياته العقلية : فان الغرض من هذا الكتاب انما
هو أن ندرس بالتفصيل آراء الغزالي فى الأخلاق

إفصل الأول

الدولة السلجوقية

لا نريد أن نفصل وصول تلك العشيرة التركية الى الغلبة
والاستيلاء على أكثر الأقطار الاسلامية ، فانه لا حاجة الى
ذلك الآن ، وانما نذكر فقط صورة مجملة لتلك المملكة الضخمة ،
التي تفيأ الغزالي ظلها الظليل

ذكر الأستاذ محمد الخضرى بك فى محاضراته فى الجامعة
المصرية أن عشيرة السلاجقة انقسمت الى خمس بيوت : الأول

السلاجقة العظمى ، وهي التي كانت تملك خراسان ، والرى ،
والجبال ، والعراق ، والجزيرة ، وفارس ، والأهواز . والثاني
سلاجقة كرمان . والثالث سلاجقة العراق . والرابع سلاجقة
سورية ، والخامس سلاجقة الروم

أما السلاجقة الكبرى فهي الدولة التي أسسها ركن الدين
أبو طالب طغرل بك ، وحياتها ٩٣ سنة : من ٤٢٩ هـ ١٠٣٩ م الى
سنة ٥٢٢ هـ ١١٢٧ م وقد انقضت دولتهم على أيدي شاهات خوارزم
وأما سلاجقة كرمان فكانوا من عشيرة قاروت بك بن
داود بن ميكائيل بن سلجوق ، وهو أخو ألب ارسلان ، ومدة
ملكهم ١٥٠ سنة . من ٤٣٢ هـ ١٠٤١ م الى ٥٨٣ هـ ١١٨٨ م . وقد
انقضت دولتهم على أيدي الغز التركمان

وأما سلاجقة العراق وكرديستان فقد ابتدأت دولتهم سنة
٥١١ هـ ١١١٧ م . وانتهت سنة ٥٩٠ هـ ١١٩٤ م على أيدي شاهات
خوارزم بعد أن مكثت ٧٩ سنة

وأما سلاجقة سورية فكانوا من بيت تنش بن ألب ارسلان
ابن داود بن ميكائيل بن سلجوق . وقد ابتدأت دولتهم سنة
٤٨٧ هـ ١٠٩٤ م وانتهت سنة ٥١١ هـ ١١١٧ م على أيدي الدولتين :
النورية والأرتقية . فكانت حياتها ٢٤ سنة

وأما سلاجقة الروم : ملوك قونية وأقصر ، فكانوا من بيت قطامش بن اسرائيل بن سلجوق ، وقد ابتدأت دولتهم سنة ٤٧٠ هـ ١٠٧٧ م وانتهت سنة ٧٠٠ هـ ١٣٠٠ م . فهي أطول دول السلاجقة حياة ، إذ مكثت ٢٣٠ سنة ، وقد انقضت على أيدي الأتراك العثمانيين والمغول

والذي كان يرتبط تاريخه من هذه البيوتات بتاريخ الدولة العباسية لدخول بغداد في حوزتهم السلاجقة العظمى وسلاجقة العراق الذين كان لهم السلطان على العباسيين من سنة ٤٤٧ الى سنة ٥٩٠ أي ١٤٣ سنة

واستخلف من آل العباس في عهد الدولة السلجوقية تسعة خلفاء ، أولهم القائم بأمر الله الذي انتهى في عهده العصر البويهي وآخرهم الناصر لدين الله الذي انتهى في عصره ملك السلاجقة

٢

عاصر الغزالي أكثر ملوك الدولة السلجوقية الكبرى ، فقد شهد عهد عضد الدين أبي شجاع ألب ارسلان ، وجلال الدين أبي الفتح ملكشاه ، وناصر الدين محمود ، وركن الدين أبي المظفر بركياروق ، وركن الدين ملكشاه الثاني ، ومحمد بن ملكشاه وقد ولد الغزالي في آخر عهد طغرل بك ، الذي ملك بغداد ،

وتقرب من الخليفة ، حتى تزوج الخليفة بنت أخيه . والذي
تطلع الى أن يتزوج من البيت العباسي . وهو أمر لم تجر به
العادة . فأرسل سنة ٥٤٣هـ يخطب بنت الخليفة ، ثم ظفر بزواجها
في حديث طويل

أما ألب ارسلان فكان واسطة عقد الدولة السلجوقية ،
وفي عهده أسست المدارس النظامية ، صاحبة الفضل على الغزالي ،
وسنعود إليها بعد قليل . وأما محمد بن ملكشاه فهو الذي وضع له
الغزالي كتاب التبر المسبوك في نصيحة الملوک

هذا ما يهمننا من دولة آل سلجوق ، وما نريد أن نزيد

الفصل الثالث

الباطنية

في الوقت الذي كان فيه السلاجقة يبسطون سلطانهم على
فارس والعراق والجزيرة إلى آخر ما استولت عليه تلك البيوتات
التي أجمعنا حالها في الفصل الماضي ، كان الفاطميون يسيطرون
على المغرب ، وعلى مصر ، ويهيمون ببسط سلطانهم على أقطار
المشرق ، بعناية الدعاة

والذى يعينى الآن هو إجمال دعوة الباطنية ، لأن الغزالي شغل بهم ، وكتب فى الرد عليهم ، وان لم تصلنا كتبه فى هذا الباب ، وسترى حين تتكلم عن خطته فى التأليف كيف آتهم بليل إليهم . إذ شرح آراءهم عند نقدها بطريقة تقر بها من متناول العقول

وأحب أن يعرف القارئ أن أكثر ما يحتل رءوس المسلمين من الأفكار والعقائد ، ليس إلا أثراً للدعوات المتعددة التى قام بها العباسيون فى الشرق ، والفاطميون فى الغرب ، وكل حزب بما لديهم فرحون

والواقع أن الدعاة كانوا غاية فى المكر والدهاء ، فقد عرفوا كيف يملئون تلك الرءوس الجوفاء بالخرافات ، والوساوس ، والأضاليل ؛ وهذه القاهرة لا تزال سماء مسكونة بالمعبودات الصغيرة ؛ كسيدنا الحسين ، والسيدة زينب ، والسيدة فاطمة النبوية ، ومن اليهم من الأولياء ، فيما زعم الفاطميون ومن لف لفهم من علماء الاسلام !!

ولولا خوف الأطلالة لشرحت للقارئ طرائق الباطنية فى نشر الدعوة Propagande فقد كانوا أمهر من الانجليز ، والفرنسيين ، والاميركان فى العصر الحديث ، وكانت جنائتهم

شديدة الخطر في مسخ عقول الأمم الاسلامية المسكينة ، التي قيدها الجهل ، ثم رماها بين أيدي طلاب الملك من العباسيين والفاطميين . فلم يرحمها أولئك ولا هؤلاء .

كان دعاة الباطنية لمكرم ينتقلون بالطالب من حال إلى حال ، فيفهمونه أولاً أن الآفة التي نزلت بالأمم فشتت شملها ، وفرقت جمعها ، ليس لها من سبب إلا ذهاب الناس عن أممهم الذين يعرفون بواطن الشريعة ، لأن دين محمد — فيما يزعمون — ليس هو ما تعرفه العامة ، بل هو علم خفي غامض ، ستره الله في حجبه ، وعظمه عن ابتذال أسرارهِ ، فلا يطيق جملة ، ولا يقوم بأعبائه ، إلا ملك مقرب . أو نبي مرسل . أو عبد مؤمن امتحن قلبه بالتقوى ؛ ثم يتوغلون مع الطالب في مجاهل من ظلمات الآراء ، والأهواء ، بعضها خاص بتقديس أممهم ، ورفعهم إلى الاختصاص بفهم أسرار التشريع ، وبعضها خاص بتنظيم الدعوة ونشرها بين الناس

وأشهر دعاة الباطنية في الشرق هو الحسن بن الصباح . الذي رحل إلى مصر ، فلقى فيها الخليفة المستنصر ، وتلقى بها الدعوة الباطنية ، ثم عاد إلى مرو لنصرة هذا المذهب بقلمه وسيفه ، فكان أول ما فعله أن استولى على قلعة (الموت) وتحصن بها ،

ثم ثبت قدمه في الاقطار الفارسية ، بحيث كان يحسب له ولا يتبعه ألف حساب ، ونسبت بينه وبين السلاجقة عدة حروب ومن شاء الزيادة على هذا القدر من أمر الباطنية فليرجع إلى كتب التاريخ ، ثم يرجع إلى تفصيل آرائهم ان شاء في كتاب الملل والنحل للشهرستاني ، فان في آرائهم غرائب وأعاجيب ، وقد ورد ذكرهم في عدة مواطن من كتب الغزالي ، وعلى الأخص كتابه « فيصل التفرقة » بين الاسلام والزندقة « فليعد إليه من أراد أن يرى مناقشته لبعض ما يقولون

الفصل الثاني

الحروب الصليبية

قد عرفت أن سلطان السلاجقة امتد على بلاد الروم ، في قونية واقصرا ، وما اليهما من البلاد ، وعرفت كيف كان التنافس بين السلجوقيين والفاطميين ، فليس من الصعب أن تعرف كيف دعا ملك الروم حملة الصليب من الافرنج إلى قتال المسلمين ، فقد أمن جانب الفواطم لعداوتهم للسلاجقة ، وانها لفرصة سانحة ، لا يصح أن يضيعها طلاب الملك ، وعشاق الحياة ؛

لجأ قيصر الروم الى البابا رئيس النصرانية ، يستصرخه لصد
أعدائه السلاجقة ، فرآها البابا فرصة لبسط نفوذه على ملوك أوروبا
وأمرائها ، فدعاهم الى الدفاع عن النصرانية ، واخراج بيت المقدس
من أيدي المسلمين

وأود أن يعرف القارئ أن الساسة يعتمدون دائماً على
استغلال العواطف ، وإخماد عقول الجماهير ، ومن هنا لم يجد دعاة
الحروب الصليبية بدءاً من الكذب على الحقيقة والتاريخ ، فزعموا
أن المسلمين يضطهدون نصارى الشرق ، ويسومونهم سوء
العذاب ، وقد نجحوا في استنفار أوروبا ، عامتها وخاصتها ، وساقوهم
باسم الدين الى ميدان القتال

والدين أداة من أدوات الفتح ، والأستيلاء ، في أيدي
الشعوب القوية ، وغل في أعناق الأمم الضعيفة ، والويل كل الويل
للمغلوب ! فقد ملك المسلمون الأرض باسم الدين ، كما ذلوا بعد
ذلك باسم الدين ، لأن القوى الرشيد يملك بدينه آخرته وديناه ،
أما الضعيف المأفون فلا يزال يرتطم في ضعفه الذي يسميه ديناً
حتى يحيق به الهلاك !

وكذلك زحف شياطين الغرب على الشرق باسم الدين ففعلوا
به الأفاعيل ، في حين أن المسلمين كانوا يبكون في مساجدهم يوم

الجمعة ليوقظوا الهمم الخوامد ، والنفوس الرواكذ ، فاستمع لهم
أحد ، ولا استجاب لهم مجيب ! ولم ذلك ؟ ذلك بأن الدين لا يقوم
بنفسه ، وإنما يقوم به كما قلت : طلاب الملك ، وعشاق الحياة ؛
وإلا فحدثني لماذا تغاضى الفاطميون أبناء الرسول ، ولم يغضبوا
لزحف النصارى على أملاك المسلمين ؟

الملك . العظمة . الحياة . تلك آمال الأمم ، وأمانى الشعوب .
فإن أدى الدين الى الملك والعظمة والحياة ، فهو نعمة من الله ، لأن
الله بالمومنين رءوف رحيم ، أما ان نزل بهم الى الخضيض فهو بدعة
ابتدعها الأخبار والرهبان ، وأمثال الأخبار والرهبان . ومن كان
في ريب مما تقول فليسأل التاريخ

ثم أخذ الصليبيون في فتح بلدان المسلمين ، فاستولوا على
كثير من مدن آسيا الصغرى والشام ، وكونوا لهم فيها إمارات
سميت بالأمارات اللاتينية ، نسبة الى الأجناس التي كان يتألف
منها حملة الصليب

وأول ما أسس من هذه الإمارات أمانة الرها بوادي
الفرات سنة ٤٩٠ هـ ١٠٩٧ م . ثم انطاكية سنة ٤٩١ هـ ١٠٩٨ م ،
ثم فتحوا بيت المقدس . وقتلوا من أهله نحو ٧٠٠٠٠ مسلم ، بعد
أن سجل التاريخ من سوء رأى الفواطم ما يمنعنا من ذكره الحياء

٢

أتدرى لماذا ذكرت لك هذه الكلمة عن الحروب الصليبية؟
لتعرف انه بينما كان بطرس الناسك يقضى ليله ونهاره ، في إعداد
الخطب وتحبير الرسائل ، لحث أهل أوروبا على امتلاك أقطار
المسلمين ، كان الغزالي (حجة الاسلام) غارقاً في خلوته ، منكبا
على أوراده . لا يعرف ما يجب عليه من الدعوة الى الجهاد ؛
ويكفي أن نذكر أن الأفرنج قبضوا على أبي القاسم الرملي الحافظ
يوم فتح بيت المقدس ، ونادوا عليه ليفتدى ، فلم يفتده أحد . ثم
قتلوه ، وقتلوا معه من العلماء عدداً لا يحصيه الا الله ، كما ذكر
السبكي في طبقاته

وما ذكرنا هذه المأساة إلا لنعد القارئ لفهم حياة الغزالي ،
ولنقنعه بأنه ليس من الحتم أن يكون الرجل الممتاز بعلمه صورة
لعصره ، فان كتب الغزالي لا تنبئنا بشيء عن تلك الأزمة التي
عاناها المسلمون حين ابتدأت الحروب الصليبية
ومن الخطأ أن تقصر الأخلاق على سلوك المرء كفرد مستقل
عن الحياة الاجتماعية ، فلكل ظرف واجباته ، ويتعسر وجود
حالة لا تقضى فيها الأخلاق

الفصل الرابع

المدارس النظامية

نسبة إلى نظام الملك : وزير السلطان ألب أرسلان ، وابنه ملكشاه . مكث في الوزارة ثلاثين سنة : عشر منها في سلطنة ألب أرسلان . وعشرون في سلطنة ملكشاه . وقد مات نظام الملك قتيلاً ، ولكن اختلف المؤرخون في سبب قتله : فمنهم من يروى انه لما أسرف في النفقة على المدارس النظامية ، حتى بلغ ما ينفقه على طلبة العلم ٦٠٠٠٠٠٠ دينار في السنة ، وثى به بعضهم إلى السلطان ملكشاه ، وقالوا (ان الأموال التي ينفقها نظام الملك في ذلك تقيم جيشاً يركز رايته في سور القسطنطينية) فعاتبه ملك شاه في ذلك فأجابه « يا بني ! أنا شيخ أعجمي ، لو نودي عليّ في من يزيد لم أحفظ خمسة دنانير ، وأنت غلام تركي ، لو نودي عليك عساك تحفظ ثلاثين ديناراً ! وأنت مشغول بلداتك ، منهمك في شهواتك ، وأكثر ما يصعد الى الله تعالى معاصيك دون طاعاتك ، وجيوشك الذين تعدم للنوائب ، اذا احتشدوا كاخوا عنك بسيف طوله ذراعان ، وقوس لا ينتهي مدى مرماها الى ثلثمائة ذراع ، وهم مع ذلك مستغرقون في المعاصي ، والخمر ، والملاهي ، والمزمار ، والطنبور ، وأنا أقت لك جيشاً يسمى جيش الليل ، إذا نامت جيوشك ليلاً

قامت جيوش الليل على أقدامهم ، صفوفاً بين يدي ربهم ، فأرسلوا
دموعهم ، وأطلقوا أسننتهم ، ومدوا الى الله أ كفهم بالدعاء لك
ولجيوشك ، فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون ، وبدعاتهم تبيتون ،
ووبركاتهم تمطرون وترزقون « فقبل ملكشاه وسكت !

نقل هذا جورجى زيدان في كتاب التمدن الاسلامى عن
كتاب سراج الملوك ، ولم يعقب عليه ، بل اكتفى بأن ذكر أن
نظام الملك توفى مقتولاً سنة ٤٨٥ هـ

ويذكر غير واحد من المؤرخين أن نظام الملك ولّى حفيده
عثمان بن جمال الملك أعمال مرو ، وأرسل السلطان اليها شحنة^(١)
اسمه قودن ، وهو من خواصه ، فنازع عثمان في شىء . شملت
عثمان حداثة سنه ، واعتزازه بجده ، على أن قبض على قودن
وسجنه ، ثم أطلقه ، فقصده السلطان ملكشاه مستغيثاً شاكياً
فاغتاز السلطان ملكشاه لاستبدال نظام الملك وبنيه ، وخروجهم
على حدود سلطتهم . وأرسل إلى نظام الملك رسالة يقول فيها
(ان كنت شريكى فى الملك ، فلذلك حكم ، وان كنت نائبي ،
فيجب أن تلزم حد التبعية والنيابة ، فهو لاء أولادك قد جازوا
أمر السياسة وطمعوا ، حتى فعلوا . . . الخ

(١) الشحنة فى التعابير القديمة يساوى ناظر المالية فى التعابير الحديثة

فقال نظام الملك لحاملي تلك الرسالة :

« قولوا للسلطان : إذا كنت لم تعلم بعد أنى شريكك في الملك ، فاعلم ! فأنتك مانلت هذا الأمر إلا بتدييري ورأى ، أما تذكر حين قتل أبوك ، فقامت بتديير أمرك ، وقامت الخوارج عليك : من أهلك وغير أهلك ، وأنت في ذلك الوقت تتمسك بي ؟ فلما قادت الأمور اليك ، وأطاعك القاصي والداني ، أقبلت تنتحل لي الذنوب ، وتسمع في الوشايات . قولوا للسلطان : إن دواتي مقترنة بتاجك ، فمتى رفعتمها رفع ، ومتى سلبتها سلب ! »

ويذكرون أن الرسل اتفقوا على كتمان هذه الرسالة ، ولكن كان للسلطان عين من بين أولئك ، بلغه ما قال نظام الملك بالحرف الواحد ، فغضب السلطان ودس لنظام الملك من قتله بعد ذلك

والأقرب إلى الصواب ما ذكره الأستاذ محمد بك الخضري في محاضراته بالجامعة المصرية من أن نظام الملك قتل بيد أحد الباطنية حين بعث عسكره إلى قلعة ألموت ، وحصر فيها الحسن ابن الصباح ، وأخذ عليه الطريق

وهذا لا ينافي ما نقل من النفرة التي وقعت بين نظام الملك وبين ملكشاه ، فان حسد الخلفاء والسلاطين لوزرائهم معروف ، وعلى الأخص في تلك الأيام المظلمة ، التي طبعت بطابع الاستبداد وكان الأمر فيها للهوى ، والحكم للجبروت !!

وقد أكثر الشعراء من رثاء نظام الملك ، فمن ذلك قول
مقاتل بن عطية البكري :

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة * يتيمّة صاغها الرحمن من شرف
بدت فلم تعرف الأيام قيمتها * فردّها غيرةً منه إلى الصدفِ

وكما بنى الفاطميون الجامع الأزهر في أواسط القرن الرابع
لتأييد مذهب الشيعة ، بنى نظام الملك مدارس في أواسط القرن
الخامس لتأييد مذهب أهل السنة . وهكذا كان المسلمون
ينشئون المدارس لتثبيت الملك ، كما يفعل الاوريون والامريكيون
في هذا الجليل ، ولا عيب في ذلك : فالعلم من أمضى الاسلحة
في استلال السخّام من الصدور ، والسياسة أدهى وأمكر من
أن تُغفل مثل هذا السلاح !!

وكذلك عنى نظام الملك بإنشاء المدارس والرباطات ، ليغمر
العلماء والزهاد بفضله ، فيكون له منهم جرائد شفوية تنشر
دعوته في الشام ، والعراق ، وخراسان ، وهكذا فهم روح العصر
فاستغل أهله ، حتى ليذكرون أنه كان إذا دخل عليه الأئمة
الأكابر لا يقوم لهم ، ويجلس في مسنده ، وكان له شيخ فقير ،
إذا دخل إليه يقوم له ، ويجلسه في مكانه ويجلس بين يديه ، وأنه

سئل عن ذلك فقال : إن أولئك إذا دخلوا يثنون على بما ليس
فيّ ، فيزيدني كلامهم عجباً وتبهاً ، وهذا يذكّرني بعيوب نفسي
فأرجع عن كثير مما أنا فيه !!

وإذا صحت هذه الرواية ، فإنها تدل على أن علماء ذلك العصر
كانوا أضعف من أن يجهروا بالنهي عن المنكر ، وأن الخاصة
كانوا لا يأبون سماع النصيح من الفقراء والمجاذيب ، لأن السياسة
كانت تقضى اذ ذلك بمعاملة هذا الصنف من الناس

ومهما تكن نيات نظام الملك — والله عليم بذات الصدور —
فانه مشكور الصنيع ، فقد أكثر من المدارس ، ووقف عليها
الأوقاف ، ورتب للطلبة الجرايات ، وبنى لهم الأسواق ،
والمساكن ، والحمامات ، وظلت مدارسه بأوقفها زمناً ليس
بالقليل ، وتخرج منها كثير من العلماء والأدباء

ولهذه المدارس النظامية فضل على الغزالي ، فقد تلقى العلم
في مدرسة نيسابور . وتولى التدريس في مدرسة بغداد ، وسنعود
إلى تفصيل ذلك في غير هذا الباب

الفصل الخامس

روح ذلك العصر

١

من الصعب تحديد الروح السائد في عصر من العصور ،
وانما غاية المؤرخ أن يذكر الشواهد والامثال ، ويستخلص منها
ما يرجح أن تكون عليه صورة العصر الذي يدرسه
وأنا أرجح أن تكون السذاجة هي الصفة الغالبة في ذلك
العصر ، مع شيء من المسكر في الامراء والعلماء . ومن الشواهد
الدالة على هذه السذاجة ما ذكره الغزالي في كتابه « المنقذ من
الضلال » من أن الناس كانوا يقولون حين ترك المدرسة النظامية
بيغداد : انها عين أصابت الاسلام ! وما نقل السبكي من أن أحد
معاصريه سمعه يقول « قطعت علينا الطريق وأخذ العيارون جميع
مامي ومضوا ، فتبعتهم ، فالتفت الى مقدمهم وقال : ارجع ويحك
والا هلكت ! فقلت له أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن ترد علي
تعليقتي فقط ، فما هي بشي تنفعون به ، فقال لي : وما هي تعليقتك ؟
فقلت كتب في تلك المخلاة ، هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها ،
فضحك وقال : كيف تدعي أنك عرفت علمها ، وقد أخذناها منك ،

فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ؟ ثم أمر بعض أصحابه فسلم الى المخلاة .
قال الغزالي : هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني به في أمري ، فلما وافيت
طوس أقيمت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته ،
وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم أنجرد من علمي »

والسذاجة ظاهرة في هذا الحديث ، فمن الواضح أن حفظ
الكتب عن ظهر قلب حتى لا تبقى إلى حفظها حاجة ، آفة عظيمة
في تكوين العقول ، فليست قيمة العالم فيما يحفظ ، ولكن قيمته
في حسن الفهم ، وأصالة الرأي ، و صواب الحكم

ومن شواهد السذاجة ما أورده نظام الملك في وصيته^(١)
التي تركها خلفه من الساسة حيث يقول :

« كان الامام الموفق النيسابوري من جلة علماء خراسان ، مبجلا
مهيباً ، وقد نيسف على الخمس والثمانين . وكان السائد في عقيدة أهل
زمانه أن كل من قرأ عليه العلوم العربية ، نبغ فيها ، وبلغ الغاية ،
وانساق اليه العز والجاه ، والنعمة والثراء ، ولذلك وجهني أبي من بلدة
طوس الى نيسابور مع عبد الصمد الفقيه ، لأقرأ على ذلك الأستاذ
النايعة الجليل . وهناك حظيت به ، فوشجت بيننا أو اصر المودة ،
وتأكدت عرى الصداقة ، ولحظني بعين عنايته ، وأزلته من نفسي
أخص منزلة ، وألطفها ، ولبثنا على ذلك سنين عدة . وكنت أول ما نزلت
به ، وجلست في حلقة ، لقيت تلميذين في مثل سني ، حديثي عهد مثلي
بالقراءة على الامام الموفق ، وهما عمر الخيام والحسن بن الصباح ، وكانا

(١) مقدمة السباعي لرباعيات عمر الخيام

آيتين في الفطنة والذكاء ، فأنس كل منا بصاحبيه ، ونمت بيننا نحن الثلاثة أحسن صحبة وأمتنها . فكان اذا قام الامام عن الدرس ، وانقضت الحلقة اجتمعنا فتذاكرنا ما تلقيناه عليه من المعارف . وكان الخيام من أهالي نيسابور ، أما الحسن بن الصباح فكان أبوه ناسكاورعا متقشفاً ، ولكنه كان زنديقاً ، فأقبل الحسن يوماً على عمر الخيام فقال له : لقد صح في أذهان الناس قاطبة أنه ليس من تلميذ يتخرج على الامام الموفق الا مصيباً عزاً واقبالاً وثروة وجاهاً ، فهب ان ذلك لم يتفق لنا نحن الثلاثة جميعاً ، فانه لا بد أن يقع لواحد منا ، فاذا يكون حق الاثنين الخائبين على ذلك الفائز الظافر ؟ قلنا له : اقترح ما تشاء فقال : فلنتعاهد الآن على انه من أصاب منا الثراء فعليه أن يقسمه فيما بيننا نحن الثلاثة على السواء ، لا يؤثر نفسه بشئ دون أخويه . فأجبنا : ليكن ذلك كما قلت . ثم تحالفنا على ذلك وتعاهدنا ، ومرت الأعوام على ذلك ، وغادرت خراسان متجولاً في فضاء الله ، الى غزته ، ثم الى كابل ، ولما عدت تقلدت منصب الوزارة في سلطنة السلطان ألب ارسلان ، وبعد مدة من الزمن عرف ذلك صاحبى . فأتيتني يطلبان انجاز وعدى التقديم ، وإشرا كهما فيما انحاز لى من النعمة والثراء »

والذي يعنينى من هذه الحكاية هو أن يكون « السائد في عقيدة أهل ذلك الزمان أن من قرأ العلوم العربية على الامام الموفق نبغ فيها وبلغ الغاية وانساق إليه العز والجاه » وتلك خرافة لا يسيغها غير ضعاف العقول ، وصغار الأحلام ، وقد رأيت كيف كان الناس يتداولون « هذه العقيدة » وكيف كان

الطلبة يتغنون بها في حلقات الدروس
وقد رأينا في الفصل السالف كيف منّ نظام الملك علي
ملكشاه بأن أقام له جيش الليل من العلماء والفقراء ، مع أنه
لا يصح الدفاع عن العلم باظهار الحاجة إلى دعوات أهله ودموعهم ،
فبئس السلاح سلاح الدمع والدعاء ، وانما تحرس الأمم بالعلم
في إقامة ما اعوجج من الأخلاق ، وإيقاظ ما نهد من النفوس ،
وإحياء ما اندرس من آثار العقول

ومن الشواهد على سذاجة ذلك العصر التحدث بالمنامات
والأحلام ، وهي شارة الارتياب في الواقع ، والأيمان بالخيال

٢

أما ما كان في ذلك العصر من مكر الأمراء والعلماء ،
فدلائله كثيرةٌ مبصرةٌ في الكتب هنا وهناك ، ومؤلفات
الغزالي شهيدة على ذلك ، فكثيراً ما نراه يشن الغارة على العلماء
الذين يكثرون الجدل ، يتظاهرون بالغيرة على العلم والدين ، وهم
في الواقع طلاب جاه ، وطلاب مال !!

ويمكن الجزم بأن الغزالي يمثل عصره أصدق تمثيل وهو
يتحدث عن الأتقياء المزيفين من المتصوفة الذين يخدعون الناس

باسم التقي ، وهم في أنفسهم أنصار غيِّ وضلال . وإنما قلنا إنه
يمثل عصره ، لأنه يتكلم في هذه الشؤون بحماسة عظيمة ، ليست
صدي لمطالعائه في المؤلفات القديمة ، وإنما هي أثر لغضبته من
قوم عاش بينهم ، ولقي من مكرهم وريائهم أنواع الشقاء . وقد
سبقه المعري بنقد المتصوفة ، ولكن المعري كان غير مسموع
الكلمة في تقديم ، أما الغزالي فكانت كلمته في ذمهم شديدة
الأثر ، لأنه صوفي ، ولأن تلامذته كانوا عوناً له في نشر ما يريد
وإليك أنموذجاً من كلامه عن أصناف المغرورين :

« وفرقة منهم عدلوا عن المنهاج الواجب في الوعظ ، وهم وعاظ
الزمان كافة ، الامن عصمه الله على الندور في بعض أطراف البلاد ان
كان ولسنا نعرفه ، فاشتغلوا بالطايات والشطخ وتلفيق كلمات خارجة
عن قانون الشرع والعقل طلباً للاغراب ، وطائفة شغلوا بعبارات
النكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها ، فأكثرهمهم الاسجاع والاستشهاد
بأشعار الوصال والقراق ، وغرضهم ان تكثر في مجالسهم الرعقات ،
والتواجد ، ولو على أغراض فاسدة ، فهؤلاء شياطين الانس ضلوا
وأضلوا عن سواء السبيل » ص ٤٠٥ ج ٣ احياء
على أن الغزالي كان بنفسه أداة من أدوات الصوفية ،

وسترى كيف كان ذلك في غير هذا الباب

أما مكر الامراء والملوك فقد كاد ينحصر في ختل العامة

وجرهم إلى الحروب باسم الدين ، فمن المتعسر أن تجد أمة إسلامية حاربت أختها باسم الملك ، في دعوة صريحة ، بل كانت كل أمة تختص نفسها بالهداية ، وترى غيرها بالمروق ، وكانت الجماهير وقوداً لنار تلك الفتن في مصر ، والشام ، والعراق ، وخراسان ، وغيرها من ممالك المساميين ، ولعن الله الساسة أصحاب الأغراض !

الفصل السادس

البلدان التي عرفها الغزالي

نريد أن نذكر في هذا الفصل بعض البلدان التي عرفها الغزالي ، لصلة ذلك بحياته ، ونستثنى بغداد ، لأنها أشهر من أن تحتاج إلى تعريف ، وقد خصها الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين بكلمة ممتعة في كتابه ذكرى أبي العلاء ، فليرجع إليه من أراد

ونعتمد في وصف تلك البلدان على معجم ياقوت^(١) لقرب مؤلفه من ذلك العصر ، ولأنه يتصور تلك المواطن على نحو ما كان يعرفها الناس إذ ذاك

(١) نوى ياقوت الحموي صاحب معجم البلدان في سنة ٦٢٦ هـ وكتابه من أجود ما عرف العرب في القواميس الجغرافية

طوس

مدينة بخراسان ، تشتمل على بلدين يقال لاحدهما الطابران (وهي التي دفن بها الغزالي) وللأخرى نوقان ، ولهما أكثر من ألف قرية ، فتحت في أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وبها قبر علي بن موسى الرضا وبها أيضاً قبر هرون الرشيد ، وقال مسعر ابن المهمل : وطوس أربع مدن ، منها اثنتان كبيرتان واثنتان صغيرتان ، وبها آثار أبنية إسلامية جليلة ، وبها دار حميد بن قحطبة ، ومساحتها ميل في مثله ، وفي بعض بساينها قبر علي بن موسى الرضا وقبر الرشيد ، وبينها وبين نيسابور قصر هائل محكم البنيان ، لم أر مثله علو جدران ، وإحكام بنيان ، وفي داخله مقاصير تحارفي حسناتها الأوهام ، وآزاج^(١) ، وأروقة ، وخزائن وحجر للخلوة ، وسألت عن أمره فوجدت أهل البلد مجتمعين على أنه من بناء بعض التباغة ، وأنه كان قصد بلاد الصين من اليمن ، فلما صار إلى هذا المكان رأى أن يخلف حُرْمه وكنوزه وذخائره في مكان يسكن إليه ، ويسير متخففاً ، فبنى هذا القصر وأجرى له نهراً عظيماً آثاره بينة ، وأودعه كنوزه ، وذخائره ، وحرمة ، ومضى إلى الصين فبلغ ما أراد ، وانصرف فحمل بعض

(١) مفردتها أزج بفتحين ضرب من الابنية

ما كان جعله في القصر ، وبقيت له فيه بعدُ أموال وذخائر
تخفي أمكنتها . وصفات مواضعها مكتوبة معه . فلم يزل على
هذه الحال تجتاز به القوافل ، وتنزله السابلة ، ولا يعلمون منه
شيئا ، حتى استبان ذلك واستخرجه أسعد بن أبي يعفر صاحب
كحلان^(١) لأن الصفة وقعت له

وقد خرج من طوس عدد كبير من أئمة العلم أشهرهم أبو حامد
الغزالي ، وخرج منها الوزير نظام الملك . قال ياقوت : وأهل
خراسان يسمون أهل طوس البقر ، ولا أدري لم ذلك ؟

وقال رجل يهجو نظام الملك

لقد خرب الطوسي بلدة غزنة * فصب عليه الله مقلوب بلدته
هو الثور قرن الثور في حبر أمه

ومقلوب إسم الثور في جوف لحيته^(٢)

وقال دعبل الخزاعي من قصيدة يمدح بها آل علي بن أبي طالب
رضي الله عنه ويذكر قبري علي بن موسى والرشيد بطوس :

إربع بطوس على قبر الزكي به * ان كنت أربع من دين علي وطبر

قبران في طوس : خير الناس كلهم

وقبر شرهم : هذا من العبر

(١) من مخاليف البين (٢) مقلوب طوس . سوط ، ومقلوب نور . روث !

ما ينفع الرجس من قرب الزكى ولا
على الزكى بقرب الرجس من ضررٍ
هيئات كل امرئ رهن بما كسبت
يداه حقاً . نخذ ماشئت أو فذر

وطوس هذه هي موطن الغزالي . ومولده ، وبها قبره ،
إلا إن صح ما رواه بعضهم من أنه ولد بقرية تسمى غزالة بالقرب
من طوس . وأنا لا أستبعد ذلك ، مادام ياقوت يحدثنا انه كان
لطوس أكثر من ألف قرية ، وإذاً يكون الغزالي بفتح الزاي
لا بتشديدها ، على أن في طبقات السبكي ص ٩٤ ج ٤ رجلا آخر يلقب
بالغزالي ، ولا ضرورة لأن يكون هذا إسماً لعائلة قديمة كما ظن
الدكتور زويمر ، بل يمكن أن يكون كلاهما نسب لتلك القرية
الصغيرة : غزالة

نيسابور

قال ياقوت : هي مدينة عظيمة . ذات فضائل جسيمة . معدن
الفضلاء ومنبع العلماء . لم أر فيما طوّفت من البلاد مدينة كانت
مثلها . ثم قال : ومن الرى الى نيسابور مائة وستون فرسخاً ، ومنها
الى سرخس أربعون فرسخاً ، ومن سرخس الى مرو والشاهجان^(١)

(١) مرو الشامجان ، هي قسبة خراسان وكان بها العهد ياقوت عشرة خزائن موقوفة

ثلاثون فرسخا . ثم قال : وأكثر شرب أهل نيسابور من قنبي
تجرى تحت الأرض ينزل إليها في سراديب مهيأة لذلك ، فيوجد
الماء تحت الأرض ، وليس بصادق الحلاوة . ثم قال : وعهدى بها
كثيرة الفواكه والخيرات وبها ريباس ليس في الدنيا مثله ، تكون
الواحدة منه منّا وأكثر ، وقد وزنوا واحدة فكانت خمسة أرطال
بالعراق . وهى بيضاء صادقة البياض كأنها الطلع . ثم قال : وكان
المسلمون فتحوها في أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه والأمير
عبد الله بن كرز في سنة ٣١ صلحا . وبنى بها جامعاً ، وقيل إنها
فتحت في أيام عمر رضى الله عنه على يد الأحنف بن قيس ، وإنما

نحوى نفائس الكتب . منها خزانتان في الجامع أحدهما يقال لها العريزية ، وقفا رجل
يقال له عزيز الدين أبو بكر عتيق الزنجاني ، وكان فيها ١٢٠٠٠ مجلد ، وأخرى يقال
لها الكمالية ، لا أدري الى من تنسب ، وبها خزانة شرف الملك المستوفى أبى محمد بن
منصور في مدرسته ومات المستوفى هذا في سنة ٤٩٤ هـ وكان حنفي المذهب ، وخزانة
نظام الملك في مدرسته ، وخزانتان للسمعانيين ، وخزانة أخرى في المدرسة العميدية ،
وخزانة لجد الملك أحد الوزراء المتأخرين بها والخزائن الخاتونية في مدرستها ، والضميرية
في خانقاه هناك يقول ياقوت (وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلى منها مائتا مجلد ،
أكثرها بغير رهن) ويذكر أن أكثر فوائد معجمه من تلك الخزائن . وفي مرو
الشاهجان يقول بعض الاعراب .

أقرية الوادى التى خان الفها من الدهر أحداث أنت وخطوب
تمالى أطارحك البكاء قاننا كلانا بمر والشاهجان غريب
ويقول ابو الحسين مسعود ابن الحسن الدمشقي .
اخلاى ان أصبحتم في دياركم فاني بمر والشاهجان غريب
أموت اشتياقا تم أحيا تذكرنا وبين التراق والضلوع لهيب
فأعجب موت الغريب صبابة ولكن بقاء في الحياة عجيب

انتقضت في أيام عثمان فارسل إليها عبد الله بن عامر ففتحها ثانية
وقد خرج من نيسابور عدد كبير من أئمة العلم ، أشهرهم
الحافظ الأمام أبو علي الحسين بن علي النيسابوري ، الذي رحل
في طلب العلم والحديث ، وعقد له مجلس الاملاء بنيسابور سنة
٣٣٧ وهو ابن ستين سنة وقد توفي سنة ٣٤٩

وقد أكثر الشعراء من ذم نيسابور . فمن ذلك قول أبي الحسن
الاسترابادي :

لا قدس الله نيسابور من بلد * سوق النفاق بمغناها على ساق
يموت فيها الفتى جوعاً و برئهم * والفضل ماشئت من خير وأرزاق
والخير في معدن الغرثي وان برقت * أنواره في المعاني غير براق
وقال المرادي يذم أهلها :

لا تنزلن بنيسابور مغترباً * إلا وحبك موصول بسطان
أولاً فلا أدب يجدي ، ولا حسب

يعني ، ولا حرمة ترعى للإنسان

وقال معن بن زائدة الشيباني : يشكو ليله بنيسابور

تمطى بنيسابور ليلى وربما * يرى بجنوب الري وهو قصير
ليالى إذ كل الأحبة حاضر * وما كحضور من تحب سرور
فأصبحت أمّا من أحب فنازح * وأما الألى أقلبهم فحضور

أراعى نجوم الليل حتى كأننى * بأيدى عداةٍ سائرٍ أسير
لعلّ الذى لا يجمع الشمّل غيره * يدير رحي جمع الهوى فتدور
فتسكن أشجان ونلقى أحبة * ويورق غصن للشباب نضير
وفى نيسابور تلقى الغزالي عن امام الحرمين الفقه والمنطق
والأصول ، حتى برع أنداده ، وزملاءه . وتولى فى أخريات أيامه
التدريس بالمدرسة النظامية فى نيسابور مدة يسيرة ، رجع بعدها
الى طوس ، حيث اتخذ الى جانب داره مدرسة للفقهاء ، وخانقاه
للسوفية

مهرجانه

مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان ، فبعض يعدها من
هذه وبعض يعدها من تلك ، قيل إن أول من أحدث بناءها
يزيد بن المهلب ابن أبي صفرة . وقد خرج منها عدد من الأدباء
والعلماء والمحدثين . ولها تاريخ ألفه حمزة بن يزيد السهمي . قال
الاصطخري : أما جرجان فإنها أكبر مدينة بنواحيها ، وهي
أقل ندى ومطراً من طبرستان ، وأهلها أحسن وقاراً وأكثر
مروءةً ويساراً من كبرائهم ، وهي قطعتان احدهما المدينة والأخرى
بكراباذ . وبينهما نهر كبير . ولجرجان مياه كثيرة ، وضياع عريضة ،
وليس بالمشرق بعد أن تجاوز العراق مدينة أجمع ولا أظهر حسناً

من جرجان . قال ياقوت : وبها الزيتون والنخل والجوز والرمان
وقصب السكر والأترج ، وبها إبريسم جيد لا يستحيل صبغه ،
وبها أحجار كبيرة لها خواص عجيبة ، وبها ثعابين تهول الناظر ،
ولكن لا ضرر لها

وقد فتحت في سنة ١٨ هـ على يد سُويد بن مقرن ، وخرج
منها عدد عظيم من العلماء ، كانت تشدّ إليهم الرِّحال
وكان بها صنف جيد من الخمر ، وفيها يقول بن خزيمة
وصبياء جرجانية لم يُطف بها

حنيفٌ ولم يُأمِمَ بها ساعةً غرُّ
ولم يشهد القسّ المهيمن نارها
طروقا ولم يحضر على طبخها جبرُّ
أنا في بها يحيى وقد نمت نومةً

وقد لاحت الشعري وقد طلع النسرُ
فقلت اصطبحها أولغيري فاهدها
فأنا بعد الشيب ويحك والخمر
تعففت عنها في العصور التي مضت

فكيف التصابي بعد ما كمل العمرُ

إذا المرء وفي الأربعين ولم يكن
له دون ما يأتي حياء ولا سترُ
فدعه ولا تنفس عليه الذي أتى
وإن جر أسباب الحياة له الدهرُ
ويذكر ياقوت أن أهل الكوفة كانوا يقولون : من لم يرو
هذه الأبيات فهو ناقص المروءة ... وذكر أن مسلم بن الوليد
صريع الغواني مرض مرض الموت بجرجان ، وانه رأى نخلة لم يكن
في جرجان غيرها ، فقال :

ألا يانخلةً بالسفح من أكناف جرجانِ

ألا إني وإياك * بجرجان غريبان

وإلى جرجان رحل الغزالي ليتلقى العلم عن أبي نصر الاسماعيلي ،
وعلق عنه التعليقة التي حدثتكم عما فعل بها العيارون وهو راجع
إلى طوس .

دمشق

لو أنك رجعت إلى ياقوت ، وقرأت في معجمه أخبار هذه
المدينة ، لرأيت كيف يضل العرب في بيداء الخيال ، ولعرفت أن
لهم حظاً من أساطير الأولين . وهذا الضلال في ذكر من بنى مدينة
دمشق يصور لنا منزلها المقدسة ، التي احتلت قبلا رءوس

المسلمين : فهم تارة يذكرون أن بانيها هو دماشق بن قاني بن مالك
ابن أرنخشد بن سام بن نوح عليه السلام ، وتارة أخرى يقولون
أنها بنيت على رأس ثلاثة آلاف ومائة وخمس وأربعين سنة من
جملة الدهر الذي يقولون إنه سبعة آلاف سنة ، وحينما يزعمون
أن ابراهيم عليه السلام ولد بعد بنائها بخمس سنين ، وحينما آخر
يتوهمون أن العازر غلام ابراهيم عليه السلام هو الذي بنى دمشق
وأغرب من ذلك كله قول ياقوت : وقال أهل الثقة من أهل
السير إن آدم عليه السلام كان ينزل في موضع يعرف الآن ببيت
أنات ، وحواء في بيت لهيا ، وهايل في مقرى وكان صاحب غنم ،
وقايل في قنينة وكان صاحب زرع ، وهذه المواضع حول دمشق
ووجه الغرابة هو في إخلاده إلى من يسميهم « أهل الثقة »
وأين وصل أهل الثقة إلى أخبار آدم ونوح ، يأبها المؤرخ الخطير؟
وأحب أن أنبه القارئ إلى قيمة الأغرار والغلو في وصف
البلاد ، فانه نعم الباعث على الرحلة والسياسة ، وان دل على سذاجة
الواصفين ، وأربعة أخماس الناس يشتاقون إلى رؤية دمشق
حين يقرءون أنها كانت مأوى الانبياء ومصلاهم ، وانه كان بها
مسجد ابراهيم وقبر موسى عليهما السلام ، وانه لم توصف الجنة
بشيء إلا وفيها مثله ! !

وكانوا يقولون (عجائب الدنيا أربع : قنطرة سنجة ، ومنارة
الأسكندرية ، وكنيسة الرها ، ومسجد دمشق) ولهذا المسجد
حديث عجيب ، فقد ذكروا أن الوليد بن عبد الملك بن مروان
لما أراد بناءه جمع نصارى دمشق وقال لهم : إننا نريد أن نزيد
في مسجدنا كنيستكم ، يعنى كنيسة يوحنا ، ونعطيكم كنيسة
حيث شئتم ، وإن شئتم ضاعفنا لكم الثمن ، فأبوا ، وجاءوا بكتاب
خالد بن الوليد والعهد ، وقالوا إننا نجد في كتبنا أنه لا يهدمها أحد
إلا خنق ، فقال لهم الوليد : فأنا أول من يهدمها ، فقام وعليه قباء
أصفر ، فهدم وهدم الناس ثم زاد في المسجد ما أراد . قالوا ومكث
في بنائه تسع سنين يعمل فيها عشرة آلاف رجل ! : وقال موسى
ابن حماد البربرى : رأيت في مسجد دمشق كتابة بالذهب في الزجاج
محفوراً فيها سورة (ألهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر) الى آخرها ،
ورأيت جوهرة حمراء ملصقة في القاف ، التى فى قوله تعالى :
حتى زرتم المقابر . فسألت عن ذلك فقيل لى : إنه كانت للوليد
بنت . وكانت هذه الجوهرة لها ، فماتت ، فأمرت أمها أن تدفن
هذه الجوهرة معها فى قبرها ، فأمر الوليد بها فصيرت فى قاف
المقابر من ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر . ثم حلف لأمها أنه
قد أودعها المقابر فسكتت . ونقل الجاحظ فى كتاب البلدان عن

بعض السلف أنه قال : ما يجوز أن يكون أحد أشد شوقاً إلى
الجنة من أهل دمشق لما يرونه من حسن مسجدهم . ويقول
ياقوت : ومن عجائبه أنه لو عاش الانسان مائة سنة وكان يتأمله
كل يوم لرأى فيه كل يوم ما لم يره في سائر الأيام من حسن
صناعاته واختلافها . ثم قال بعد كلام طويل : ولم يزل جامع دمشق
على تلك الصورة يبههر بالحسن والتنميق الى أن وقع فيه حريق
في سنة ١٦١ فأذهب بعض حسنه

وقد أكثر الشعراء من وصف دمشق ، فمن ذلك قول
أبي المطامع بن حمدان :

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها * فلي يجنوب الغوطتين شجونُ
وما ذقت طعم الماء إلا استخفني * الى برَدَى والنيرين حنين
وقد كان شكى في الفراق يرو عنى * فكيف أكون اليوم وهويقين
فوالله ما فارقتم قالياً لكم * ولكن ما يقضى فسوف يكون
وقال الصنوبرى :

صفت دنيا دمشق لقاطنيها * فلست ترى بغير دمشق دنياً
تفيض جداول البلور فيها * خلالَ حدائق يُنبتن وشياً
مكالة فواكهين أبهى المنـاظـر في مناظرنا وأهيا
فن تفاعحة لم تعد خدأ * ومن أترجةٍ لم تعد ثدياً

وقال البحترى :

أما دمشق فقد أبدت محاسنها * وقد وفي لك مطربها بما وعدا
إذا أردت ملأت العين من بلد * مُستحسنَ وزمان يشبه البلدا
يمسى السحاب على أجبالها فرقا * ويصبح النبت في صحرائها بددا
فلست تبصر إلا واكفا خضيلًا * أو يانعا خصرًا أو طائرًا غردا
كأنما القيظ ولي بعد جيئته * أو الربيع دنا من بعد ما بعدا
وقد أغرب الأقدمون في وصف دمشق ، ومسجد دمشق
والذى ذكرته من ذلك كافٍ لما أنا بصدده من صلة الغزالي بهذه
المدينة ، فقد دخلها في سنة ٤٨٩ ، وأقام بها أياماً قليلة ، ثم عاد إليها
بعد ذلك ، واعتكف بالمنارة الغربية من الجامع ، قال السبكي :
واتفق أن جالس يوماً في صحن الجامع الأموى ، وجماعة من
المفتين يتمشون في الصحن ، وإذا بقروى أتاهم مستفتياً ، ولم
يردوا عليه جواباً ، والغزالي يتأمل ، فلما رأى الغزالي انه ليس
عند أحد جوابه ، ويعز عليه عدم إرشاده ، دعاه وأجابه ، فأخذ
القروى يهزأ به ويقول : المفتون ما أجابوني ، وهذا فقير عامي
كيف يجيبنى ؟ والمفتون ينظرونه ، فلما فرغ من كلامه معه ،
دعوا القروى وسألوه : ما الذى حدثك به هذا العامي ؟ — وكان

الغزالي إذ ذاك في زىّ فقير مجهول — فشرح لهم الحال فجاءوا إليه وتعرفوا به ، وسألوه أن يعقد لهم مجلساً ، فوعدهم ، ثم سافر من ليلته

وهناك أحاديث كثيرة عن صلته بدمشق يضيق عن ذكرها المقام ، وحسب القارئ هذا المقدار

بيت المقدس

من المواطن التي قدسها العرب والمسلمون ، وتركوا أمرها للخيال يصورها كيف شاء ، فهم يزعمون أن الله تعالى قال لسليمان ابن داود عليهما السلام حين فرغ من بناء البيت المقدس : سئني أعطك ؛ قال يارب ، أسألك أن تغفر لي ذنبي . قال لك ذلك . قال يارب ، وأسألك أن تغفر لمن جاء هذا البيت يريد الصلاة فيه ، وأن تخرجه من ذنوبه كيوم وُلد . قال لك ذلك . قال وأسألك من جاء فقيراً أن تغنيه . قال لك ذلك . قال وأسألك من جاء سقيماً أن تشفيه . قال ولك ذلك ؛ ويروون عن أبي ذر أنه قال : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أى مسجد وضع على وجه الأرض أولاً ؟ قال المسجد الحرام ، قلت ثم أى ؟ قال البيت المقدس ، وبينهما أربعون سنة ، وينقلون عن كعب أنه قال : معقل المؤمنين

أيام الدجال البيت المقدس يحاصره فيه حتى يأكلوا أوتار قسيهم
من الجوع ، فينماهم كذلك إذ يسمعون صوتاً من الصخرة ،
فيقولون هذا صوت رجل شبعان ، فينظرون ، فإذا عيسى بن مريم
عليه السلام . فإذا رآه الدجال هرب منه ، فيتلقاه بباب لدّ فيقتله .
ويكاد الرواة يتفقون على أنها « عرصة القيامة ، ومنها النشر ،
وإليها الحشر » يزعمون أن سليمان كان اتخذ في بيت المقدس
أشياء عجيبة : منها القبة التي فيها السلسلة المعلقة ينالها صاحب
الحق ، ولا ينالها المبطل ، حتى اضمحلت بحيلة غير معروفة !!
وكان من عجائب بنائه أنه بنى بيتاً وأحكمه وصقله ، فإذا دخله
الفاجر والورع ، تبين الفاجر من الورع ، لأن الورع كان يظهر
خياله في الحائط أبيض ، والفاجر يظهر خياله أسود !! وكان أيضاً
مما اتخذ من الأعاجيب أن ينصب في زاوية من زواياه عصاً بنوس
فكان من مسها من أولاد الأنبياء لم تضره ، ومن مسها من
غيرهم أحرقت يده !! قال ياقوت (وقد وصفها القدماء بصفات
أن استقصيتها أمملت القارئ) فياليت شعري ماذا عسى أن تكون
تلك الصفات ؟

إنه لاشك في أن كل ما وصف به بيت المقدس ليس إلا
صورة لمبلغ المتقدمين من فهم حقائق الأشياء ، فليست زيارته

بمخرجةٍ أحداً من ذنوبه ، ولا براحةٍ فقيراً من فقره ، ولا بمنقذةٍ
سقيماً من سقمه ، كما يزعمون أن الله قال ذلك ؛ وليس هناك سند
يثق به التاريخ عن بناء المسجد الحرام وبناء بيت المقدس بعده بأربعين
سنة ، كما يتوهمون أن النبي قال ذلك ؛ ولن يأكل المؤمنون أو تار
قسيهم من الجوع ، حين يحاصرهم الدجال في بيت المقدس ،
ولن يعود عيسى إلى هذا العالم كما يتوهم كثير من الناس ، وهب
ذلك يكون ، فن يدرينا أن المؤمنين لن يملسوا يوماً غير القسي
والنبال ؛ ولا تنس السلسلة التي علقها في القبة سيدنا سليمان ، والتي
كان ينالها صاحب الحق ، ولا ينالها المبطل ، فتلك بلا ريب
وليدة الخيال !! وما عسى أن يكون ذلك البيت الذي كان إذا دخله
الفاجر ظهر خياله أسود ، وإذا دخله الورع ظهر خياله أبيض ؟
اذكر هذه الصورة العجيبة لبيت المقدس ، ثم اذكر قول
ابن عباس : البيت المقدس بنته الأنبياء ، وسكنته الأنبياء ، ما فيه
موضع شبر إلا وقد صلى فيه نبي ، أو قام فيه ملك ، ثم اذكر
ما يزعمون من أن أول شيء حسر عنه الطوفان بيت المقدس
وأن فيه ينفخ في الصور يوم القيامة ، وعلى صخرته ينادى المنادى
يوم القيامة !!

اذكر هذا كله ، ثم دعنا نخبرك بأن الغزالي يتمدح

في كتابه « المنقذ من الضلال » بأنه كان يرحل الى بيت المقدس
فيدخل الصخرة كل يوم ويغلق بابها على نفسه ، ويتعبد فيها طول
النهار !! وأنه انكشفت له في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن
إحصاؤها واستقصاؤها كما قال

هذه المواطن التي قدسها الخيال ، ووضعت في فضلها
الاحاديث ، أثرت تأثيراً بيننا في حياة الغزالي العقلية ، وطبعت
نظره الى العالم بطابع خاص . ولولا خوف الاطالة لوصفنا مآرآه
في سياحاته من المشاهد والبقاع ، ولكن الرغبة في الايجاز أرصتنا
عن الاكتفاء بأشهر ما عرف من البلاد

الفصل السابع

أعيان ذلك العصر

الذي يهمننا من أعيان العصر الذي عاش فيه الغزالي إنما هو
ذكر أسانذته . لتأثيرهم في تكوين عقله ، غير أنه من الحسن أن
نذكر طائفة من علماء ذلك العصر ، لأن في ذلك تصويراً لحركة
العقول اذ ذلك . ونكرر ماقلناه من أن الغرض إنما هو أن نقرب
للقارئ زمان الغزالي ومكانه ، نوعاً من التقريب . فأما تحديد

ابجاءات الفكر في تلك الآونة ، فلا يسهه هذا المؤلف ، الذي يراد به درس آراء الغزالي في الأخلاق

الشهرستاني

هو أبو الفتح محمد بن عبد الكريم المولود سنة ٤٧٩ ، والمتوفى سنة ٥٤٨ . تلقى العلم في نيسابور على أبي الحسن علي بن احمد المدني ، وقد ذكر السبكي بقية اسانذته في ص ٧٨ ج ٤ من طبقاته . ومن أشهر تأليفه كتاب (الملل والنحل) وهو كتاب جيد . قال في مقدمته « وبعد فلما وفقني الله تعالى لمطالعة مقالات أهل العلم من أرباب الديانات والملل ، وأهل الأهواء والنحل ، والوقوف على مصادرها ومواردها ، واقتناص أوانسها وشواردها ، أردت أن أجمع ذلك في مختصر يحوى جميع ماندين به المتدينون ، وانتحله المنتحلون ، عبرة لمن استبصر ، واستبصارا لمن اعتبر » وقيمة هذا الكتاب ترجع الى جمعه أكثر الآراء التي عرفها المسلمون لذلك العهد ، ومن عيوبه الأيجاز والغموض في أكثر المواطن التي تحتاج الى البسط والبيان : وقد رماه معاصره وهزيع العقيدة « لمبالغته في نصره مذاهب الفلاسفة » وسترى فيما بعد أن الشك في عقائد أنصار الفلاسفة كان من علامات ذلك الجيل

الأبيوردي

هو أبو المظفر محمد بن أحمد الأبيوردي ، تفقه على إمام
الحرمين ، وشهد له أهل زمانه بحسن العقيدة — وكذلك كان
العلماء دائماً في حاجة الى شهادة العامة لهم بحسن العقيدة ، كأنما
الدين خرافة ليس فيها العوام وينكرها الخواص — وكان الأبيوردي
يرى نفسه أولى بالخلافة وأحق بها من سواه ، وقد جرت له
هذه النزعة بلايا كثيرة ، اضطر بسببها الى مفارقة بغداد ، فرجع
الى همدان واشتغل مدة بالتدريس والتأليف ، ثم توفي مسموماً
بأصبهان في ربيع الاول سنة ٥٠٧

وكان الأبيوردي بارع الشعر ، وله في الصبر على أحداث
الدهر آيات بينات ، ويندر أن تجد أديبا لا يحفظ قوله :
تنكر لي دهري ولم يدر أنني * أعزّ وأحداث الزمان تهونُ
فبات يريني الخطب كيف اعتداؤه * وبت أريه الصبر كيف يكون
ومن بديع الشعر أبياته التي يتشوق فيها الى أحبابه ، وقد
خلاههم ببغداد

ألا ليت شعري هل أداني بغيضة * أبيت على أرجائها وأقيل
هواء كأيام الهوى لا يغبه * نسيم كالحظ الغانيات عليل
وعصر رقيق الطرتين تدرجت * على صفحتيه نضرة وقبول

وأرض حصاصها لؤلؤ وترابها * تَضَوِّع مسكا والمياه شمول
بها العيش غض والحياة شهية * وليلى قصير والهجير أصيل
فقل لأخلائى ببغداد هل بكم * سلو فعدى رنة وعويل
ترنحنى ذكراكم فكأنما * تميل بى الصهباء حيث أميل
لئن قصرت أيام أنسى بقر بكم * فليلى على نأى المزار طويل
الأرجماني

هو أبو بكر أحمد بن الحسين الأرجاني ، ولد حوالي سنة
٤٦٠ وتوفي سنة ٥٤٤ أصله من شيراز وتولى القضاء بمدينة تمشر .
وهو من فحول الشعراء ، وله هذه الأبيات :

سَفَرَت كى تَرَوِّد الحِبِّ منها * نظرة حين آذنت بالتناي
وأرت أنها من الوجد مثلى * ولها للفراق مثل بكائي
فتباكت ودمعها كسقيط الطلّ في الجلنارة الحمراء
فقرى الدمعتين في حمرة اللو * ف سِوَاء وما هما بسواء
خدها يصبغ الدموع ودمعى * يصبغ الخد قانيا بالدماء
خضّب الدمع خدها باحمرار * كاختضاب الزجاج بالصهباء
وفي مقدور القارئ أن يرجع الى كتب الأدب والتاريخ
ليعرف من نبغوا في القرن الخامس ، فإن الوقوف على آراء
أولئك النوابغ من أقرب السبل الى فهم روح ذلك العصر ، أما
نحن فلا نريد أن نطيل

الباب الثاني

في

حياة الغزالي

تمهيد

زيد أن نتكلم بإيجاز عن حياة الغزالي ، لأنه لا يعيننا منها غير جانب واحد: وهو حاله حين وضع مؤلفاته في الأخلاق ونحب أن ننبه القارئ إلى أن المصدر الموثوق به إنما هو كتابه «المنقذ من الضلال» فأما الكتب التي ترجمته فهي في أكثرها موصومة بالمغالاة ، لأن الغزالي كما ستري نزل من أهل عصره ومن بعدهم منزلة حملت أكثر مترجميه على تصوّره كرجل لا ينبغي لأحد أن يناله بنقد أو تجريح ، وانهم لواهمون : ولم نستشير التراجم ، والمترجم نفسه يتكلم بسذاجة وإخلاص عن تطوّر حالته العقلية ، وهي التي تهمننا في هذا الباب

الفصل الأول

أسرته

ولد الغزالي من أسرة فارسية ، لم يهتم بها التاريخ . وانه ليكفي أن نعرف شيئاً عن أبيه وأخيه ، لنعرف الروح السائد في أسرته .

أمّا أبوه فقد نقل السبكي في طبقات الشافعية « انه كان فقيراً صالحاً لا يأكل إلا من كسب يده في عمل غزل الصوف ويطوف على المتفهمة ويحالسهم ، ويتوفر على خدمتهم ، ويجد في الأحسان إليهم ، والنفقة بما يمكنه عليهم ، وأنه كان إذا سمع كلامهم بكى وتضرع ، وسأل الله أن يرزقه ابناً ويجعله فقيهاً ، وانه كان يحضر مجالس الوعظ ، فاذا طاب وقته بكى . وسأل الله أن يرزقه ابناً واعظاً » ص ١٠٢ ج ٤

وقد صار ابنا هذا الفقير فقيهاً ، واعظاً ، فان شئت قلت إنها دعوة أجيب ، وإن شئت قلت إن حب هذا الرجل للفقه والوعظ نقل إلى ولديه بطريق الوراثة وأما أخوه فقد ذكر غير واحد انه طاف البلاد وخدم

الصوفية في عنفوان شبابه ، وصحب المشايخ ، واختار الخلوة والعزلة ، حتى انفتح له الكلام على طريقة القوم ، وأنه خرج الى العراق ، ومالت اليه القلوب ، ودخل بغداد وعقد مجلس الوعظ ، فظهر له القبول ، وازدحم الناس على حضور مجلسه ، وأن صاعد بن فارس دون مجالسه ببغداد فبلغت ثلاثاً وثمانين . وذكر ابن خلكان أنه كان صاحب كرامات وإشارات ، وأنه كان من الفقهاء غير أنه مال الى الوعظ فغلب عليه . وينقلون أن قارئاً قرأ يوماً بين يديه (ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) فقال شرفهم بياء الأضافة إلى نفسه بقوله ياعبادي ثم أنشد وهان على اللوم في جنب جها * وقول الأعدى إنه خليعُ أصمّ اذا نوديت باسمي وإني * اذا قيل لي ياعبدها لسميع ويروون أنه حكى يوماً في مجلس وعظه أن بعض العشاق كان مشغولاً بحسن صورة معشوقه ، وكان هذا موافقاً له ، فجاءه يوماً بكراً وقال له : انظر الى وجهي فأنا اليوم أحسن من كل يوم . فقال وكيف ذلك ؟ قال نظرت في المرأة فاستحسننت وجهي ، فأردت أن تنظر اليّ ، فقال : بعد أن نظرت الى وجهك قبلي لاتصلح لي . وهذه الحكاية تمثل اتجاه خاطره نحو الفناء ومن كلامه « من كان في الله تلفه ، كان على الله خلفه » وكان

ينصح أخاه أبا حامد الغزالي بقوله :

إذا صحبت الملوک فالبس * من التوقی أعزّ ملبس
وادخل إذا مادخلت أعمی * واخرج إذا ماخرجت أخرس
وكان أساتذتنا في الأزهر يقصون علينا أحسن القصص
في تأثير هذا الرجل على أخيه ، ويضربون لنا بورعه الأمثال ،
وقد حاولت أن أجد سنداً لما يتحدثون به فلم أجد ، فعرفت أن
أكثر ما عرف عنه إنما هو من صنع الخيال .

ولو أننا أضفنا إلى ما سلف أن الغزالي كان صغيراً حين مات
أبوه ، وأن الذي كفله مع أخيه هو رجل متصوف من أهل الخير
بوصية والده ، لعرفنا كيف تعاونت الظروف على أن تصبغ روحه
بصبغة صوفية ، وكيف أثرت هذه الصبغة على آرائه في الأخلاق

الفصل الثاني

مولده ونشأته

ولد الغزالي في طوس سنة ٤٥٠ هـ وفيها تلقى ما تفقه به
في صباه على أحمد بن محمد الراذكاني ؛ ثم سافر إلى جرجان حيث
تلقى طرفاً من العلم عن الامام أبي نصر الاسماعيلي وعاق عنه

التعليقة - كما كانوا يقولون - ثم رجع إلى طوس وأقام بها ثلاث سنين يراجع ما تلقاه في جرجان ، ثم قدم نيسابور حيث يدرس إمام الحرمين في المدرسة النظامية علوم الفقه والمنطق والأصول فلازمه إلى أن توفي في سنة ٤٧٨ . ثم خرج إلى العسكر وهي محلة بالقرب من نيسابور يقيم فيها نظام الملك - وكان إذ ذاك في الثامنة والعشرين من عمره - وكان نظام الملك قد سمع الثناء على عقله وعلمه وأدبه . فأحضره مجلسه ، وكان منتدى العلماء ، فوجدت الفرصة لينشر الغزالي أئمن مافي خزائنه من نفائس العلم وكان من نتيجة ذلك أن برع من كانوا يغشون مجلس نظام الملك وظهر عليهم ، فولاه ذلك الوزير رتبة التدريس في مدرسة بغداد

سنة ٤٨٤

ولننظر ماذا يقول عن طلبه للعلم من أوائل حياته العلمية إلى أن نيّف على الخمسين « ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين الى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين . أقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمراته خوض الجسور ، لاخوض الجبان الحذور ، وأتوغل في كل مظامة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأقتحم كل ورطة ، وأتفحص عقيدة كل فرقة ، واستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأنميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لاأغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على بطائنه ، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل

ظهارته ، ولا فلسفياً إلا وأقصده الوقوف على كنهه فلسفته ، ولا متمكلاً
إلا وأجهد في الاطلاع على غاية كلامه ، ومجادلته ، ولا صوفياً إلا وأحرص
على العثور على سر صوفيته ، ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه
حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطلاً إلا وأنجس وراءه للتنبه لأسباب
جرأته في تعطيله وزندقته وقد كان التعطش إلى إدراك حقائق الأمور
دأبى ودينى ، من أول أمرى ، وريمان عمرى ، غريزة وفطرة من
الله تعالى وضعها فى جبلتى ، لا باختيارى وحيلتى ، حتى انحلت عنى
رابطة التقليد ، وانحسرت عنى العقائد الموروثة على قرب عهد
بسن الصبا »

وهذه الفقرة تدلنا على أمرين : الأول أن المذاهب الفلسفية
كانت كثيرة الانتشار لذلك العهد ، وأن أصحابها كانوا يجتهدون
فى الدفاع عنها ، ويجدون فى إذاعتها بين الناس . والثانى أن الغزالى
لم يكن من أولئك الطلبة الأغبياء الذين لا يعرفون غير رأى
واحد : يعيشون عليه ، ويموتون عليه ! بل كان طالب علم بمعنى
الكلمة ، يعرف أن واجبه يقضى عليه بأن يعلم حقيقة كل شئ ،
وكنه كل مذهب ، ومقصد كل فرقة ، ومرمى كل عقيدة

وكان أول ما أثار فيه هذه الرغبة ما رآه من أن صبيان
النصارى ينشأون على التنصّر ، وصبيان اليهود على التهود ،
وأطفال المسلمين على الاسلام . وكانت هذه الملاحظة الوجهة
باعثاً له على أن يشك فى دينه حتى يتبين حقيقته - وإن لم يحدثنا

عن ذلك — لأنه ما الدليل على أن النصرانية خير من اليهودية ،
أو أن الاسلام خير من النصرانية ، أو أن اليهودية خير من
الاسلام ، كما يتحدث النصارى والمسلمون واليهود : كلُّ على ما هو
بسبيله من تفضيل دينه على غيره من الديانات ؟

وهنا يصرح الغزالي بأنه انتهى إلى أنه لا قيمة للتقليد ،
لأنه موجود في كل أمة وفي كل ملة ، وإنما القيمة كلها لليقين
الذي لو تحدى لأظهار بطالانه من يقبل الحجر ذهباً والعصا ثعباناً
لم يورث ذلك فيه شكاً ، كما أنك لو علمت أن العشرة أكثر من
الثلاثة ، وقال قائل لا ، بل الثلاثة أكبر ، بدليل أني أقبل هذه العصا
ثعباناً ، ثم قلبها وشاهدت ذلك منه ، لم تشك بسببه في معرفة
أن العشرة أكثر من الثلاثة

الفصل الثالث

في الرد الروماني

ولكن الغزالي لم يستمر على تلك النزعة الجريئة التي أقنعتته
بأن لا قيمة لغير اليقين ، بل اندفع يحدثنا عن شكوك نرجح
أنه لم يكن فيها غير صادق ، وأخذ يبين أنه اقتنع أولاً بأن

اليقين ينحصر في الحسيات والضروريات ، ثم رأى أن الحس ليس أهلاً للثقة به ، لأنك تنظر إلى الظل فتراه واقعاً غير متحرك وتحكم بنفي الحركة ، ثم تعرف بعد ساعة بالتجربة والمشاهدة أنه متحرك ، وأنه لم يتحرك دفعة واحدة ، بل على التدريج ذرة ذرة حتى لم تكن حالة وقوف ، ثم يذكر الغزالي أنه بعد أن بطلت ثقته بالمحسوسات ولَّى وجهه شطر العقليات التي هي من جنس الأوليات كقولنا العشرة أكثر من الثلاثة ، والنفي والاثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد ، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً ، واجباً محالاً . ثم يزعم أن المحسوسات قالت له : بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقلية كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقاً بئجاء حاكم العقل فكذبني ، ولولا أن جاء حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي ، فلعل وراء إدراك حاكم العقل حاكماً آخر إذا تجلَّى كذب العقل في حكمه ، كما تجلَّى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه ، وعدم تجلَّى ذلك الإدراك لا يدل على استحالته ؟

وهنا يدخل الغزالي في مضايق من شعاب الحدس والتخمين فيتوهم أنه لا يبعد أن تكون هناك حالة فوق اليقظة التي هي بلا شك أثبت من حالة النوم ، وتكون نسبة اليقظة إليها كنسبة

النوم إلى اليقظة ، ثم يتردد في تمييز هذه الحالة فلا يدري أهي الموت الذي تنكشف به حقائق الأشياء لقوله تعالى (لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) أم هي حالة الصوفية : إذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم التي هي لهم أنهم إذا غاصوا في أنفسهم ، وغابوا عن أحوالهم وحواسهم ، رأوا أحوالاً لاتوافق المعقولات ؟؟
ثم يذكر الغزالي أنه عاد إلى قبول الضروريات العقلية ، ولكن عودته لم تكن بنظم دليل وترتيب كلام ، بل كانت بنور قذفه الله في صدره كما قال

ونحن لاننازع الغزالي في أن لله نوراً يقذفه في صدور عباده
ولكن نسأله : لم لاتكون الأحكام العقلية قبساً من ذلك النور ؟
ونسأله كذلك : ماهي حالة المرء الذي ينتظر هذا النور الذي تراه فوق البرهان والدليل ؟

على أن الذي يعيننا قبل كل شيء : هو أن نسجل أن الغزالي وضع مؤلفاته في الأخلاق وهو على هذه الحال . ونرجح أن حياته الروحية ابتدأت بعد توليه التدريس في مدرسة بغداد ، ثم لازمته إلى النهاية ، كما استراه

الفصل الرابع

فهرمه للحياة

ولأجل أن نتبين وجهة نظره في أحكامه الأخلاقية ،
ينبغي أن نعرف كيف كانت صحته ، وكيف كان مزاجه ، وكيف
كان فهمه للحياة ، حين عني بالتأليف في الأخلاق . فان معرفة
مزاج المؤلف ، وصحته ، وفهمه للحياة الاجتماعية ، من أهم
ما ينبغي تقديمه قبل الشروع في درس مارك المؤلفون
والسند الصحيح لحياة الغزالي هو كتابه (المنقذ من
الضلال) فلندعه يصف لنا حياته في عزلته التي دامت نحو عشر
سنين ، والتي وضع في أثناءها كتاب الاحياء وهو أهم ما كتب
في الأخلاق

قال بعد كلام طويل : « ثم اني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت
بهمتي على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقهم انما تم بعلم وعمل ،
وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتزهر عن أخلاقها المذمومة
وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى
وتخليته بذكر الله ، وكان العلم أيسر على من العمل ، فابتدأت بتحصيل
علمهم ، من مطالعة كتبهم ، مثل قوت القلوب لأبي طالب المكي ،

وكتب الحارث المحاسبي والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، وظهر لي أن أخص خواصهم لا يمكن الوصول اليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال ، وتبدل الصفات . فكم من الفرق بين أن يعلم المرء حد الصحة ، وحد الشبع ، وأسبابهما ، وشروطهما ، وبين أن يكون صحيحاً وشبعان . وبين أن يعرف حد السكر ، وأنه عبارة عن حال تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين أن يكون سكران ، بل السكران لا يعرف حد السكر وهو سكران ما معه من علمه شيء ، والصاحي يعرف حد السكر وأركانه وما معه شيء من السكر ، والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد للصحة ، فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا

« فعلمت يقيناً أنهم أرباب أحوال ، لا أصحاب أقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبق الا مالا سبيل اليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك ، وكان قد حصل معي من العلوم التي مارستها ، والمسالك التي سلكتها ، في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية إيمان يقيني بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر : فهذه الأصول الثلاث من الايمان كانت قد رسخت في نفسي ، لا بدليل معين محدد ، بل بأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها . وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع في سعادة الآخرة الا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا

بالتجافي عن دار الغرور ، والاناة الى دار الخلود ، والاقبال بكنه
الهمة على الله تعالى ، وأن ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاه والمال
والهرب من الشواغل والعوائق ، ثم لاحظت أحوالى فاذا أنا منغمس
فى العلائق وقد أهدقت بى من جميع الجوانب ، ولاحظت أعمالى ،
وأحسنها التدريس والتعليم : فاذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا
نافعة فى طريق الآخرة ، ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس فاذا هى غير
خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت ،
فتيقنت أنى على شفاجر ف هار ، وأنى قد أشرفت على النار ، ان لم
أشتغل بتلافى الاحوال ، فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام
الاختيار : أصم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الاحوال يوماً
وأحل العزم يوماً ، وأقدم فيه رجلاً وأؤخر عنه أخرى ، لاتصدقلى
رغبة فى طلب الآخرة بكرة الا ويحمل عليها جند الشهوة حملة فيفتريها
عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها الى المقام ، ومنادى
الايان ينادى : الرحيل ! الرحيل ! فلم يبق من العمر الا القليل . وبين
يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل ،
فان لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ، وان لم تقطع الآن هذى
العلائق فمتى تقطع ؟؟؟ !!

« فبعد ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار ،
ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة ، وياك أن تطاوعها فانها
سريعة الزوال ، فان أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن
المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص ، والأمر المسلم الصافى عن منازعة
الخصوم ، ربما لاتتيسر لك المعاودة . فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات

الدنيا ودواعي الاخرة قريباً من ستة أشهر . أولها رجب سنة ثمان
وثمانين وأربعمائة ، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار الى
الاضطرار ، اذ قفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت
أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطيبياً لقلوب المختلفين اليّ ، فكان
لا ينطلق لساني بكلمة ولا أستطيعها ألبتة ، ثم أوردت هذه العقلة
في اللسان حزناً في القلب بطلت معه قوة الهضم وقرم الطعام والشراب ،
فكان لا ينسأغ لي شربة ، ولا تنهضم لي لقمة ، وتعدى ذلك الى ضعف
القوى ، حتى قطع الأطباء طمهم من العلاج ، وقالوا هذا أمر نزل
بالقلب ، ومنه سرى الى المزاج ، فلا سبيل الى العلاج »

وانما نقلت هذه القطعة الطويلة من كتابه المتقدم من الضلال
لأن الغزالي عندي صادق فيما يحدث عن نفسه ، وكلامه خير
للباحث من استشارة التراجم المختلفة ، ولم نستشير التراجم ،
والمترجم نفسه يحدثنا عن تطور حالته العقلية ؟

وهل أدل على لون نفسه في ذلك الحين من قوله بعدما سلف
(ثم لما أحسست بعجزى ، وسقط بالكلية اختياري ، التجأت إلى
الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له ، فأجاني الذي يجيب
المضطر إذا دعاه ، وسهل على قلبي الاعراض عن الجاه ، والمال ،
والأهل والولد والأصحاب) (:؟)

ويجب أن نتنبه لهذه الكلمة ، فهي كافية في تصوير نفسه ،
وينبغي أن نعرف أنه نص فيما بعد على أنه دام على هذه الحال

عشر سنين ، وقد كتب كتبه الأخلاقية وهو في هذه الحال ،
ولا تسأل كيف ترك بغداد ، ولا كيف عاد إلى أهله ، فقد رأيت
كيف اعتلت صحته ، وتغير مزاجه ، وكيف سهل على قلبه ترك
أولاده ، وهو الذي تمدح بأنه كان يصعد منارة مسجد دمشق
طول النهار ويفلق بابها على نفسه ، وكان يرحل إلى بيت المقدس
فيدخل الصخرة كل يوم ويفلق بابها على نفسه !!

على أنه بعد أن عاد إلى أهله (آثر العزلة أيضاً حرصاً على

الخلوة ، وتصفية القلب للذكر) كما قال

وأنا لا أهتم بما ذكر من أنه انكشفت له (في أثناء هذه
الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها ، واستقصاؤها) وإنما يهمني
أن أثبت أنه كتب ما كتب في الأخلاق وهو على هذه الحال
ويتلخص ماسلف في ثلاثة أمور

الأول - ماورثه عن أبيه من نزعة الصوفية

الثاني - ما استفاده من وصية تأييداً لتلك النزعة

الثالث - عشر سنين قضاها في العزلة ، لها ماله من الأثر

في تكوين نفسه ، وتكييف مزاجه ، والتأثير في كتبه

اذن ليعلم القارئ منذ الآن أن النزعة الغالبة على فهمه

للأخلاق إنما هي نزعة الصوفية ، وسيرى ذلك مفصلاً في عدة

مواطن من هذا الكتاب

الفصل الخامس

وفاته ورتاؤه

ترك الغزالي بغداد ، وقصد البيت الحرام ، وأدى فريضة الحج في سنة ٤٨٨ بعد أن أناب أخاه عنه في المدرسة النظامية ، ثم دخل دمشق في سنة ٨٩ ومكث فيها أياماً ، ثم توجه إلى بيت المقدس فجاور به مدة ، ثم عاد إلى دمشق واعتكف في المنارة الغربية من الجامع ؛ ثم ذهب إلى الاسكندرية وأقام بها مدة ، ويقال انه كان ينوي الرحلة إلى السلطان يوسف بن تاشفين ، لما بلغه من عدله ، ولكنه لما سمع بموته عاد إلى التجول في الآفاق لزيارة المشاهد والترب والمساجد ، كما يقول مترجموه ، ثم رجع إلى بغداد وعقد بها مجلس الوعظ ، وتكلم بلسان أهل الحقيقة ؛ وحدث بكتاب الأحياء . ثم عاد إلى خراسان ودرس بالمدرسة النظامية في نيسابور ، ثم رجع إلى طوس واتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء وخانقاه للصوفية ، ووزع أوقاته على وظائف من ختم القرآن ومجالسة أرباب القلوب ، والتدريس لطلبة العلم ، وإدامة الصلاة والصيام ، إلى أن توفي رحمه الله بطوس يوم الاثنين

رابع عشر جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ . قال السبكي : ومشهده يزار
بمقبرة الطابران

قال الزبيدي « ووجدت في كتاب بهجة الناظرين وأنس العارفين
للعارف بالله محمد بن عبد العظيم الزموري ما نصه : ومما حدثنا به من
أدركنا من المشيخة أن الامام أبا حامد الغزالي لما حضرته الوفاة أوصى
رجلا من أهل الفضل والدين كان يخدمه أن يحفر قبره في موضع بيته ،
ويستوصي أهل القرى التي كانت قريبة الى موضعه ذلك بحضور جنازته
وأن لا يباشره أحد حتى يصلى ثلاثة نفر من القلاة لا يعرفون ببلاد
العراق : يغسله اثنان منهما ويتقدم الثالث للصلاة عليه بغير أمر ولا
مشورة . فلما توفي فعل الخادم كل ما أمره به ، وحضر الناس ، فلما
اجتمعوا لحضور جنازته رأوا ثلاثة رجال خرجوا من القلاة ، فعمد
اثنان منهم الى غسله ، واختفى الثالث ولم يظهر ، فلما غسل وأدرج
في أكفانه ، وحملت جنازته ، ووضعت على شفير قبره ، ظهر الثالث
ملتفأ في كسائه ، وفي جانبه علم أسود ، معهما بعمامة صوف ، وصلى
عليه وصلى الناس بصلاته ، ثم سلم وانصرف ، وتوارى عن الناس ،
وكان بعض الفضلاء من أهل العراق ممن حضر الجنازة ميزه بصفاته ولم
يعرفه ، الى أن سمع بعضهم بالليل هاتفاً يقول لهم : ان ذلك الرجل الذي
صلى بالناس هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن اسحق الشريف ، جاء من
المغرب الاقصى من عين القطر ، وأن المدين غسلاه ها صاحباها الخ »
وهذه بالطبع خرافة لفقها المتصوفة بعد موت الغزالي ،
وهي في ذاتها تدل على أن الغزالي لم يميت إلا بعد أن اتفق العامة

على صلاحه ، فقد رمى بالزندقة في جزء من حياته ، ثم عاد في نظر
العامة من المكاشفين ، حتى ليذكرون أنه أنشأ عند موته
هذه القصيدة

قل لاخوان رأوني ميتا * فبكوني ورثوني حزننا
أعلى الغائب منا حزنكم * أم على الحاضر معكم ههنا
أتخالوني بأني ميتكم * ليس ذلك الميت والله أنا
أنا في الصدر وهذا بدني * كان جسمي وقيصى زمنا

وهي طويلة تجدها ضمن مجموعة مخطوطة نمره ١٢١ تصوف
بدار الكتب المصرية . وهي كذلك مما لفقّه أصحابه بعد موته ،
وما أكثر ما زور باسمه من الآثار !!

ونقل ابن الجوزي في كتاب الثبات عند الممات عن أحمد
أخي الغزالي أنه قال : لما كان يوم الاثنين وقت الصبح توضع على
أبوحامد وصلى ، وقال علي بالكفن ، فأخذه وقبّله ووضعته على
عينيه ، وقال : سمعاً وطاعة للدخول على الملك ، ثم مدّ رجله
واستقبل القبلة ، ومات قبل الإسفار
وسبحان من تفرّد بالبقاء
وقد رثاه الأبيوردى بقوله :

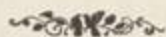
بكي على حجة الاسلام حيز ثوى * من كل حيّ عظيم القدر أشرفه

فألمن يمتري في الله عبرته * على أبي حامد لاح يعنفه
تلك الرزية تستوهي قوى جلدي * فالطرف تسهره والدمع تنزفه
فأله خلة في الزهد منكرة * وما له شبهة في العلم تعرفه
مضى ، وأعظم مفقود دجعت به * من لانظيره في الناس يخلفه
وقال في رثائه القاضي عبد الملك المعافى

بكيت بعيني ثأكل القلب واله * فتى لم يوال الحق من لم يواله
وسيبت دمعاً طالما قد حبسته * وقات لجفني واله ثم واله

* * *

ونحن — في جملة من انتفع بمؤلفات الغزالي — نسأل الله
أن يرحمه رحمة واسعة ، وأن يجزيه أحسن الجزاء على ما قدم في سبيل
العلم والدين من صادق الجهود ، وأن يتجاوز عن سيئاته بمنه وكرمه
انه نعم المولى ونعم النصير ، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم



البَابُ الثَّالِثُ

فِي

المنابع التي استقى منها الغزالي

تهذيب

يذكر مؤرخو الفلسفة أن سقراط هو أول من بدأ بالتفكير في الانسان وما يتعلق به، وأنه أول من قال: إعرف نفسك بنفسك. ولعلمهم يريدون أنه أول من بحث في الانسان بحثاً منظماً من حيث واجبه نحو نفسه، ونحو شركائه في الاجتماع، على أن يكون ذلك علماً ذا قواعد وأصول

أما البحث في أن بعض الأعمال شر، وبعضها خير، وثى

منها نافع، وثى منها ضار، فهو قديم سبق سقراط بأجيال

فالأمة العربية التي ورث الغزالي وورث أسانذته آدابها القديمة، كانت تقول الشعر والنثر في تهذيب الأخلاق، فن الواضح أن قول بعض الاعراب في وصية ابنه «المنية والالذنية» فيه ضرب من التهذيب الفردي، وقول أحدهم في حض الجيش

على صدق اللقاء « الطعن في النحور أكرم من الطعن
في الظهر » فيه نوع من تقويم المحاربين ، لأن الأخلاق
لا تعرف موطناً بعينه ، وإنما تتبع الرجل في كل حال

وكذلك قول أكرم بن صيفي « العقل راقد ، والهوى
يقظان . والشهوات مطلقة ، والحزم معقول . والمستبد برأيه
موقوف على مداحض الزلل . أصبح عند رأس الأمر أحب إليّ
من أن أصبح عند ذنبه . لم يهلك من مالك ما وعظك ، نفاذ
الرأى في الحرب ، أجدى من الطعن والضرب ، التقدم قبل
التنديم . ويل لعالم أمر من جاهله ، يتشابه الأمر إذا أقبل ، فإذا
أدبر عرفه الكيس والأحمق » في هذه الكلمات كثير من الآداب
الاجتماعية ، وهي جزء من علم الأخلاق

ونجد شعراء الجاهلية والاسلام ضربوا بسهم في معرفة
الطبائع البشرية ، فرى في شعرهم شيئاً عن أثر الوراثة ، وأثر
الرفقة ، وأثر الجوار ، الى غير ذلك من المعاني التي بسطها الفلاسفة
حين تكلموا في الأخلاق . فقول ذي الأصبغ العدواني :

كل امرئ صائر يوم ما شيمته وأن تخلق أخلاقاً الى حين
يمائل بعض المذاهب الأخلاقية
وقول مسكين الدارمي :

وفتيان صدق است مطالع بعضهم * على سر بعض غير أنى جماعها
لكل امرئ شِعْب من القلب فارغ * وموضع نجوى لا يرام اطلاعها
يظنون شتى فى البلاد وسرهم * الى صخرة أعياء الرجال انصداعها
يمائل ما يضعه الفلاسفة فى الآداب الفردية

ويمكننا أن نعد المدح والهجاء من علم الأخلاق ، لأن
المدح فى الغالب تصوير للفضائل ، والذم تمثيل للردائل ، ووصف
الفضائل والردائل مما يُعنى به علم الأخلاق
فقول قنبر بن ضمرة :

إن يسمعوا ريبةً طاروا بها فرحاً * عنى وما سمعوا من صالح دفنوا
صُمُّ إذا سمعوا خيراً ذكرت به * وان ذكرت بشر عندهم أذنوا
جهلاً علينا وجبناً عن عدوهم * لبئست الخلتان الجهل والجبن
هذا هجاء ، ولكن فيه تصوير لبعض الصفات الذميمة التى
يُعنى بحربها علم الأخلاق

وقول حسان بن ثابت :

أصون عرضى بمالى لا أدنسه * لا بارك الله بعد العرض فى المال
أحتال للمال إن أودى فأجمعه * ولست للعرض ان أودى بهحتال
هذا نخر ، ولكن فيه تصوير لفضيلة من كرائم الفضائل
الانسانية

ولا تنس الحكيم التي فاضت بها النفوس العريية ، فأى
كلام أكرم وأمتع من قول وإبصة الأسدى :
أحب الفتى ينفى الفواحش سمعه * كأن به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعى الصدر لا باسطاً أذى * ولا مانعاً خيراً ولا قاتلاً هُجراً
إذا شئت أن تدعى كريماً مكرماً * أديباً ظريفاً عاقلاً ماجدا حراً
إذا ما أتت من صاحب لك زلة * فكن أنت محتالاً لزنته عذراً
غنى النفس ما يكفيك من سدخلة * فإن زاد شيئاً عاد ذلك الغنى فقرا
والقرآن ؟

فى القرآن تحليل دقيق لنزعات النفوس ، وخالجات القلوب ،
وفيه حل لأكثر المشاكل الأخلاقية التي شق فى حلها
الحكماء ، ففيه أدب الرجل مع ربه ، ومع نفسه ، ومع زوجه ،
ومع أبائه ، ومع أبنائه ، ومع اخوانه ، ومع أصدقائه ، ومع أعدائه ،
ويندر أن نجد مشكلة خلقية لم يعن بحلها القرآن . وفى الحديث
توضيح وتتميم لما فى الكتاب العزيز ، ويكفى أن ننظر فيما يخص
الأدب من كتب السنة لتعرف صدق ما نقول

وبعد ما جاء فى خطب العرب وشعرها ، وما جاء فى القرآن
والحديث ، وضعت كتب خاصة لاسير والسلوك ، من أقدمها
كليبلة ودمنة ، الذى ترجمه ابن المقفع عن الفارسية ، وقفاه بكتايبه

الادب الكبير والادب الصغير ، ووضعت أبواب مطولة
في كتب الفقه عن آداب الزواج ، ومعاملة الرقيق ، ومعاملة
المحاربين ، وما الى ذلك مما يهتم به الناس في الحرب والسلم ، ويبنى
عليه الاجتماع

ثم كانت المقامات والخطب المنبرية ، التي أودعها الأدباء
والمصاحون آراءهم في تهذيب النفوس ، وتلطيف الطباع

كل ما قدمته كان ينبوعاً صافياً ينهل منه الغزالي ويعمل وهو
يضع مؤلفاته في الأخلاق ، وقد تبينت أحكامه ، فرأيته لا يضع
حكماً إلا وقد اقتبسه من حكمة ، أو مثل ، أو بيت من الشعر ،
أو آية ، أو حديث ، أو أثر ، الى غير ذلك مما قرأه بنفسه أو سمعه
من أساتذته ، ولقد حاولت أن أرجع كل حكم لأصله ، ولكنني
رأيت في ذلك منافاة للايجاز ، وهو شرط هذا الكتاب

على أن الغزالي مع ترسمه لما سبقه من الآثار الادبية لم يخل
من حرية الفكر ، والميل الى التجديد ، فقد خرج على الاشعري
في بعض آرائه ، وخالف الشافعية في بعض ما يقولون به ، ولكنه
على كل حال يسائر المتقدمين ، ولا يخالفهم — حين يخالفهم — الا
برفق واحتياط ، كما يفعل الخذر الهيب

إفصل الأول

المصادر الفلسفية

درس الغزالي الفلاسفة ، ولكنه درسها بنية سيئة ، درسها ليسبر غورها ، ثم ينشر مساويها في العالمين !

وقد درسها بنفسه ، ولم يتتلمذ لأستاذ ، فكان ذلك داعية لهذا البغض العميق ، الذي جعله ينسى الفلاسفة ، ولم يذكركم إلا بسوء في كتبه الاخلاقية ، ولو أنه تلقاها على أستاذ كما تلقى الفقه ، والتصوف ، والتوحيد ، لرجونا أن تخف حدة كلامه وجد الفرصة سانحة ليلسق الفلاسفة بلسان حديد^(١)

ذلك بأن الأساتذة ينتصرون لعومهم ، ويؤثرون في تلامذتهم أثراً غير قليل ، وأثر المتصوفة من أساتذة الغزالي واضح كل الوضوح فيما صيغت به آراؤه الدينية والأخلاقية

ولكن هل نجا الغزالي من محاكاة الفلاسفة حين كتب في الأخلاق ؟ كلا ؛ وإن نظرة في تقسيم الفضائل ، وطرائق كسبها ، وتنويع الرذائل ، ووسائل الخلاص منها ، لترينا مبلغ محاكاته للفلاسفة الذين كتبوا في الأخلاق ، والآداب الاجتماعية

(١) انظر ص ١٠٩ من المنقذ

وإنك لتضحك بملء فمك حين تراه يقول في كتابه المنتقذ من الضلال
« وأما السياسات فجميع كلامهم فيها يرجع الى الحكم المصلحية
المتعلقة بالأمر الديوية السلطانية ، وإنما أخذوها من كتب الله
المنزلة على الأنبياء ، ومن الحكم الماثورة عن سلف الأولياء . وأما
الخلقية فجميع كلامهم فيها يرجع الى حصر صفات النفس وأخلاقها ،
وذكر أجناسها وأنواعها ، وكيفية معالجتها ومجاهدتها ، وإنما أخذوها
من كلام الصوفية ، وهم المتألهون المناهرون على ذكر الله ، وعلى مخالفة
الأهواء ، وسلوك الطريق الى الله بالإعراض عن ملاذ الدنيا ، وقد
انكشف لهم في مجاهدتهم من أخلاق النفس وعبوبها وآفات أعمالها
ما صرحوا به ، فأخذة الفلاسفة ومزجوه بكلامهم ، توسلا بالتجمل
به الى ترويح باطلهم » ص ١٦

وقد لحظ الغزالي أن هذه الدعوى العريضة قد تقبل إذا
وجهت إلى فلاسفة الاسلام ، فقد قرءوا القرآن ، وعرفوا منه
أشياء من حكم الأنبياء والمرسلين ، وقرءوا للصوفية كثيراً من
الحكم والأمثال ، ولكن هذه الدعوى قد تظهر باطلة إذا وجهت
إلى فلاسفة اليونان ، فانظر ماذا يقول في ذلك :

« ولقد كان في عصرهم ، بل في كل عصر ، جماعة من المتألهين ،
لا يخلى الله تعالى العالم منهم ، فانهم أوتاد الأرض ، ببركاتهم تنزل الرحمة
الى أهل الأرض » ص ١٧

فعلى هذا لا فضل لسقراط ، ولا لأفلاطون ، ولا ارسططاليس
فيما وقفوا إليه ، حين كتبوا في الاخلاق ، وإنما الفضل لأولئك

« الأوتاد » الذين شرفت بهم بلاد اليونان منذ آلاف السنين ،
ولا أدري ماذا يفعل الغزالي إذا أقسم الأغارقة بالله جهد أيمانهم
إنه لم يكن لهم إله واحد ، وإنما كان لهم ألف إله وإله ، بل كان
من آلهتهم من يحض على اللذة ، ويمهد للفسق السبيل !!

إنه لاشك في أن الغزالي استقى من المنابع الفلسفية ، في كل
ما كتب عن الأخلاق ، وغاية الأمران وجهة الدين ، ووجهة
التصوف ، غلبتا عليه ، وصورتا آراءه بصورة دينية ، روحية ،
تبدو للنظرة الأولى وكأنها لا تمت للفلسفة بسبب ، ولاتأخذ منها
بنصيب ، وهي في الواقع متأثرة بما للفلسفة من أصول

وانه لا حرج علينا في أن نقرر أن الغزالي أصلي الفلسفة نار العقوق
فقد كانت سبب حصافته ، وذيوع صيته ، ثم أطمع فيها العامة ،
ومكن الجهال من تصغير الحكماء ، وليس تكفيره لابن سينا
والفارابي بالأمر الهين ، وإن فعلته تلك لتحسب بذرة هذه
التقاليد الممقوتة التي يعانها المفكرون الاحرار ، في جميع الاقطار
الاسلامية ، منذ حين !

انمواله الصفا

جمعية شبه سرية . اجتمعت في البصرة في منتصف القرن
الرابع . وإنما كانت سرية لكره عامة الناس للفلسفة إذ ذاك .

وكان غرض هذه الجمعية نشر المعارف التي يرونها صحيحة في جميع الأقطار الاسلامية ، فقد كانوا يرون « ان الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولاسييل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية ، والمصلحة الاجتهادية » وقد ألفوا إحدى وخمسين رسالة ضمنوها خلاصة العلوم المعروفة لعهدهم — وقالوا في أول هذه الرسائل « ان الحكماء والفلاسفة الذين كانوا قبل الاسلام تكلموا في علم النفس ، ولكنهم لما طولوا الخطب فيها ، ونقلها من لغة الى لغة من لم يكن قد فهم معانيها ، حرفها وغيرها ، حتى انغلق على الناظر فيها ، فهم معانيها . ونحن قد أخذنا لب معانيها ، وأقصى أغراضهم فيها ، وأوردناها بأوجز ما يمكن من الألفاظ في إحدى وخمسين رسالة »

وقد نقل الأستاذ أحمد أمين عن مكدونالد أن بعض الباحثين ظن أن هذه الجمعية جمعية باطنية ، لما بين مايجيء فيها أحياناً وبين تعاليم الباطنية من التطابق ، وقد عثر المغول عند فتحهم قلعة الموت على كثير من نسخ رسائل إخوان الصفا^(١) وذكر الاستاذ الكونت دي جلاززا في محاضراته بالجامعة المصرية ان أحد اخوان الصفا وهو أبو حيان التوحيدى المتوفى نحو سنة ٣٨٩ هـ كان يقول « إن الشريعة لم تكن كاملة ، بل فيها

(١) مبادئ الفلاسفة ص ١٢٥

غلطات وجب اصلاحها بواسطة الفلسفة »

ورسائل إخوان الصفا تحتاج إلى درس طويل لمعرفة ما فيها من الأغراض الفلسفية ، والدينية ، والسياسية . ويكفي أن يعرف القارئ أن الغزالي اطلع على هذه الرسائل ، واستفاد منها ، وان صب على أصحابها جام سخظه وغضبه ، لان استفادة المرء من كتاب لا تتوقف على حبه لصاحبه ، بل صرح الغزالي بأنه أقبل في أول حياته العلمية على درس ما عرف لهده من المذاهب والآراء

الفارابي

هو أبو نصر محمد بن طرخان . وهو فارسي من بلدة تسمى فاراب من بلاد خراسان — جاء إلى بغداد . وأخذ علم المنطق عن أبي بشر متى بن يونس النصراني الذي توفي سنة ٣٢٨ ثم انتقل إلى مدينة حرّان وتعلم بها الفلسفة ، وعاد بعد ذلك إلى بغداد ، ثم رحل إلى دمشق وأقام بها أيام سيف الدولة بن حمدان قال سلطان بك محمد في محاضراته بالجامعة المصرية « وهو

في مقدمة الفلاسفة الاسلاميين الذين طالعوا كتب افلاطون وارسطو ووقفوا على أغراضها . وأحسنوا فهمها . يدل لذلك ما حكاه الشيخ الرئيس من أنه عرف غوامض الفلسفة ، ووقف على مقاصدها ، واستظهر القسم الالهي منها ولم يقف على حقيقة أغراضه ومباحثه ،

فسمّته نفسه . وكان ذات يوم لدى الوراقين ومر عليه دلال كتب ،
وبيده مجلد ، وقال له : اشتر هذا . فلما علم أنه في الفلسفة الالهية ،
قال لاحاجة لي به . فقال له الدلال : ان صاحبه محتاج الى بيعه ، ويطلب
به ثمنًا قليلا . وأبيعه بثلاثة دراهم . قال فأخذته ووجدته تأليف
أبي نصر الفارابي ، فلما قرأته وقفت منه على أغراض ذلك العلم وفهمته
بعد أن مللت الاشتغال به ويئست من فهم أغراضه »

وكان معشوق الفارابي من فلاسفة اليونان أرسطو ، حتى
قيل انه وجد كتاب النفس لأرسطو وعليه بخط الفارابي « إني
قرأت هذا الكتاب مائة مرة » ولكثرة شرحه لآراء الفلاسفة
لقب بالمعلم الثاني كما لقب أرسطو بالمعلم الاول . وسئل : أنت أعلم
أم أرسطو ؟ فقال : لو أدركته لكنت أكبر تلاميذه . وتوفي
الفارابي رحمه الله سنة ٣٣٩ هـ وهو يناهز الثمانين

وللفارابي آثار كثيرة عدا عليها الفناء ؛ ومن مؤلفاته الباقية
« آراء أهل المدينة الفاضلة » وهو يحاكي فيه جمهورية أفلاطون
وقد انتفع الغزالي بمؤلفاته ، وان حكم بكفره مجازفة
وبلا دليل

ابن سينا

هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا أشهر
فلاسفة المسلمين ، توفي سنة ٤٢٨ هـ وسنه ٥٨ سنة . وكان من أمهر

الأطباء، وكتابه « القانون » كان العمدة في الطب في القرون
الوسطى عند الشرقيين والغربيين . وقد عني العرب ببسط آرائه
الفلسفية ، وبشرح مادون في الاخلاق ، وطبائع النفوس
ولا ريب في أن الغزالي انتفع بمصنفاته ، وأن جازاه جزاء
سماّر ، حيث حكم بكفره ، مجازاةً للعامّة ، وطاعةً للهوى . وسيعلم
الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون

ابن مسكويه

ومن الفلاسفة الذين انتفع الغزالي بأرائهم في الأخلاق
ابن مسكويه : أبو علي احمد بن محمد المتوفى سنة ٤٢١ هـ .
وهو من فلاسفة المسلمين ، وله عدة كتب في الأخلاق ،
أشهرها كتابه المسمى : تهذيب الأخلاق ، وتطهير الاعراق ،
وهو يقع في ١٨٥ صفحة ، ويقول في مقدمته (غرضنا في هذا
الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقاً تصدر به عنا الأفعال كلها
جميلة ، وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقة ،
ويكون ذلك بصناعة وترتيب تعليمي ، والطريق في ذلك أن
نعرف أولاً نفوسنا ما هي ، وأى شئ هي ، ولأى شئ أوجدت
فيها ، وما قواها وملكتها التي اذا استعملناها على ما ينبغي بلغنا
بها هذه الرتبة العلية الخ)

وابن مسكويه هذا ينقل عن الفلاسفة اليونانية بطريقة صريحة ، لآلف فيها ولا مداورة ، فهو من مجددى فلسفة اليونان مع الحرص بقدر ما يمكن على موافقة الشريعة الاسلامية . وكتابه الذى نوهنا عنه ذو أثر كبير فى تكوين الغزالى من الوجهة العقلية ، وقد هممت بوضع مقارنة بين كتابه ذلك ، وبين كتاب الاحياء ، ثم رأيت ان هذا باب اذا أطلته طال ، واستنفدت وقتنا أنا محتاج اليه فى غيره من الابواب ، فالأكتف ببعض فقرات نقلها الغزالى عن ابن مسكويه نقلاً يشبه أن يكون حرفياً ، من غير أن ينوه بالكتاب الذى نقل عنه ، وما أدري أكان ذلك مقصوداً أو غير مقصود ، ولكنه على كل حال دليل على تأثر الغزالى بمؤلفات ابن مسكويه ، والى القارىء البيان :

(١) يقول ابن مسكويه (ومن أخذ عن هذه الموهبة السمرمدية الشريفة بتلك الخساعات التى لا ثبات لها فهو حقيق بالملت من خالقه عز وجل ، خليق بتعجيل العقوبة ، وراحة العباد والبلاد منه) ويقول الغزالى : (ومن انفق عن هذه الجملة كلها ، وانصف بأضدادها ، استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد)

(٢) يقول ابن مسكويه (إن أول ما ينبغى أن يتفرد فى الطفل ويستدل به على عقله : الحياء ، فانه يدل على أنه قد أحس بالقبيح ، ومع احساسه به يحذره ويتجنبه ، فاذا نظرت الى الصبي فوجدته مستحيباً

مطرقا بطرفه الى الارض ، غير وقاح الوجه ، ولا محدد اليك ، فهو أول دليل نجابته ، والشاهد لك على أن نفسه قد أحست بالجليل والقبيح ، وهذه النفس مستعدة للتأديب ، صالحة للعناية ، لا يجب أن تهمل ولا تترك)

ويقول الغزالي : (ومهما رأى فيه مخايل التمييز . فينبغي أن يحسن مراقبته ، وأول ذلك ظهوراً أوائل الحياء ، فإنه اذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال ، فليس ذلك الا لأشراق نور العقل عليه ، حتى يرى بعض الأشياء قبيحاً ومخالفاً للبعض ، فصار يستحي من شيء دون شيء ، والصبى المستحي لا ينبغي أن يهمل ، بل يستعان على تأديبه بحياؤه وتمييزه)

(٣) يقول ابن مسكويه (إن نفس الصبي ساذجة ، لم تنتقش بعد بصورة ، وليس لها رأى ولا عزيمة تميلها من شيء الى شيء)

ويقول الغزالي (والطفل أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهره نقيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة)

(٤) يقول ابن مسكويه (ويؤلم ان أولى الناس بالملابس الملونة والمنقوشة النساء اللواتي يزينن الرجال . ثم العبيد والخول . وأن الاحسن بأهل النبل والشرف من اللباس البياض وما أشبهه حتى يتربى على ذلك . ويسمعه من كل من يقرب منه ، ويكرر ذلك عليه)

ويقول الغزالي (ويحبب اليه من الثياب البيض دون الملون ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين ، وأن الرجال يستسكفون منه ، ويكرر ذلك عليه)

(٥) يقول ابن مسكويه (ولا يترك لمخالطة من يسمع منه ضد ما ذكرته ، لا سيما من أترابه . ومن كان في مثل سنه ممن يعاشره

أويلاعبه . وذلك أن الصبي في ابتداء نشوئه يكون على الأكثر قبيح
الافعال . إما كلها وإما أكثرها . فانه يكون كذوباً . ويخبر ويحكي
مالم يسمعه ولم يره . ويكون حسوداً سروراً تماماً لجوجاً ذا فضول)
ويقول الغزالي : (ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عودوا الرفاهية
فان الصبي مهما أهمل خرج في الأغلب رديء الاخلاق كذاباً حسوداً
سروقاً نموماً لجوجاً ذا فضول)

وبين العبارتين فرق صغير ، وعبارة الغزالي أدق ، لانها تعلق فساد
الطفل على اهمال تربيته وتأديبه

(٦) يقول ابن مسكويه (ثم يطالب بحفظ محاسن الأخبار والأشعار
التي تجرى مجرى ما تعود به بالأدب . ويحذر النظر في الأشعار السخيفة
وما فيها ذكر العشق وأهله ، وما يوهم أصحابها أنه ضرب من الظرف
ورقة الطبع . فان هذا الباب مفسدة للاخلاق)

ويقول الغزالي : (ثم يشتغل في المكتب : فيتعلم القرآن وأحاديث
الاخبار ، وحكايات الارار ، ويحفظ من الاشعار التي فيها ذكر العشق
وأهله . ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف
ورقة الطبع ، فان ذلك يفرس في قلوب الصبيان بذور الفساد)

ولئن قال قائل إن هذه آراء فطرية ، لا تصلح مثلاً للنقل
والمحاكاة ، فإني أجيبه بأن موافقة الغزالي لابن مسكويه في بعض
الأبواب موافقة تكاد تكون تامة ، تدل على الأقل على أنه
صدى لمن قبله ، وأن نصيبه من الابداع قليل

الفصل الثاني

منبع التصوف

وما زال الغزالي يكرع من مناهل الصوفية حتى رَوَى ؛ ثم اندفع يحدث الناس بما يفهمون ومالا يفهمون من أصول السلوك وقد صرح في كتاب الميزان والاربعين والاحياء بحدّبه على الصوفية ، ورفقه بهم ، وإشفاقه عليهم . بل أظهر تبعيته لهم ، ونسبته اليهم ، ثم أخذ يحن اليهم حنين الغريب الى دياره !!

وانظر قوله في منهاج العابدين :

« وان اللمعة التي تظهر منا الآن ليست الا بمن بقي على منهاج أسلافنا وشيوخنا المتقدمين كالحرث المحاسبي ، ومحمد بن ادريس الشافعي والمزني ، وحرملة ، وغيرهم من أئمة الدين — رحمهم الله أجمعين . فهم كما قال القائل :

وما صحبوا الأيام الا تعففا * وما وجدوا من حب سيدهم بدأ
أفاضل صديقون أهل ولاية * الى سيد السادات قد جعلوا القصد
تحلل عقد الصبر من كل صابر * وما حلت الايام من عقدهم عقدا
وكنا في الصدر الأول ملوكا فصرنا سوقة ، وكنا فرسانا فصرنا
رجالا ، وليتنا لا ننتقع عن الطريق . والله المستعان على المصائب ، وهو
المسئول أن لا يسلبنا هذا الرمق ، انه جواد كريم ، منان رحيم ، ولا
حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » ص ٩٦ و٩٧
فهل رأيت تحرقاً أمراً من هذا والدع؟

أصل التصوف

وهذا التصوف الذي يترسم الغزالي آثار أصحابه ليس في جملته مما تدعو إليه الشريعة الإسلامية ، وإنما هو مزيج من عدة مذاهب هندية ، وفارسية ، ويونانية ، نقلت إلى المسلمين ، وصادفت هوى في نفوس الزاهدين منهم ، فوسموها باسم الدين ، ووضعوا لها على حسابه القواعد والاصول

ويمكن الحكم بأن ما في التصوف من الدعوة إلى طهارة الباطن ، وحب الخير ، وبغض الشر ، وما إلى ذلك مما يتعلق بخلوص النفس البشرية من خبيث الصفات ، يرجع في جوهره إلى روح الإسلام ، أما ما يختص بقطع العلائق مع الناس ، والتزهيد في الحياة ، فهو بعيد عن روح الدين ، لأن الإسلام دين فتح وسيطرة ، وهو يُعَدُّ معتنقيه لأن يكونوا سادة ، بخلاف التصوف فإنه يلبس أصحابه أرواح العبيد

أنفاس الصوفية

وانك ترى الغزالي يحاكي الصوفية في أنفاسهم وخطرات قلوبهم ، ويسايرهم خطوة خطوة في ذم الناس ، وشكوى الزمان ، وأظهر ما يكون هذا في ذم الاتقياء المزيفين ، وسترى أنه في كتبه

الأخلاقية قد أشرب حب من يسميهم علماء الآخرة ، حتى
ليصف حاله بهذه الآيات

ظفر الطالبون واتصل الوصل وفاض الأحياب بالأحياب
وبقينا مذبذبين حيارى * بين حد الوصال والإجتباب
نرتجى القرب بالبعاد وهذا * نفس حال المحال للألباب
فاسقنا منك شربة تذهب الغم * وتهدى الى طريق الصواب
يا طبيب السقام يا مرهم الجر * ح ويا منقذى من الأوصاب
لست أدري بم أدوى سقامى * وبماذا أفوز يوم الحساب
ومن هنا نراه ينقل كلمات تحتاج الى قيد من الشريعة ،
ويسكت عنها لا يقيد بها بشئ . وأكثر ما أنكره عليه
معاصروه لم يأتها الا من جهة استسلامه للخطرات الوجدانية ،
التي علقته بنفسه من قراءة كتب التصوف ، حين اعتزل الناس
في دمشق وبغداد

على ان النقاد لم يتركوا له هذا الأديم صحيحاً ، بل رموه
بجهل التصوف ، وسألوكه منه في بيداء يضل فيها النسيم ، حتى
اضطر الزبيدي وغيره الى أن يثبتوا أنه لم يزد على ان حاكى
ما في قوت القلوب والرسالة القشيرية من مختلف الآراء في طرائق
السلوك .

قوت القلوب

وأهم الكتب التي تأثر بها الغزالي من بين كتب الصوفية كتاب قوت القلوب ، في معاملة المحبوب ، تأليف أبي طالب المكي المتوفى سنة ست وثمانين وثلثمائة ببغداد ، ولا يوجد الآن في الأسواق ، ومنه نسخة مطبوعة بدار الكتب المصرية نمرة ٢٦٧٧٢ وهو في مجلدين ، يقع الاول منهما في ٢٧٠ صفحة والثاني في ٢٩٧

ويعد هذا الكتاب — بحق — مصدراً لكتاب الاحياء ويكفي أن تقرأ باب التوكل مثلاً في الكتابين لتعرف أنهما يسيران في طريق واحد ، الى غاية واحدة ، حتى لتجدهما يتفقان غالباً في الشواهد من الآيات ، والاحاديث ، والأخبار . ويمكن الجزم بأن الغزالي أودع كتاب الاحياء كل ماصح لديه ، وحسن عنده ، من كتاب قوت القلوب ، وان لم يشر الى ذلك ، وربما ستر هذا بتغيير العناوين . فاذا قال أبو طالب المكي (ذكر حكم المتوكل اذا كان ذايت) قال هو (بيان آداب المتوكلين اذا سرقت متاعهم) وربما وضع عنواناً لمسألة لم تعنون في قوت القلوب ، وقد يضع صاحب القوت مسألة تحت عنوان ، فيأتي الغزالي

ويدمجها في كلامه ، فيخيل الى القارى انها له ، ولولا خشية الاطالة
لضربنا لذلك الامثال

وقد كان قوت القلوب واحياء علوم الدين موضع رعاية
الصوفية على السواء فيما سلف من الايام . وينقلون عن ابي الحسن
الشاذلى انه قال : كتاب الاحياء يورثك العلم ، وكتاب القوت
يورثك النور . ولهذا القول وجه من الصواب ، فانك تجد
الاسهاب والتفصيل في الاحياء ، وتجد الدقة وروعة الاخلاص
في القوت ، ويمتاز كتاب القوت فيما نرى بحرص مؤلفه واحتياطه
فما يتعلق بمذاهب الصوفية ، وبجمال لغته ، بخلاف الاحياء ، فانه
يعرب في التصوف ، وحظ أسلوبه من الدقة قليل

الرسالة القشيرية

هي رسالة في التصوف لابي القاسم عبد الكريم بن هوازن
القشيري المتوفى في ١٦ ربيع الآخر سنة ٤٦٥ هـ . وهي تقع
في ١٨٦ صفحة . ولها شرح مخطوط بدار الكتب المصرية تأليف
شيخ الاسلام زكريا الانصارى ويسمى هذا الشرح (احكام الدلالة
في شرح الرسالة)

وقد كتب القشيري رسالته هذه (إلى جماعة الصوفية

يبلدان الاسلام في سنة سبع وثلاثين وأربعمائة) كما قال في المقدمة
فهي اذن منشور عام لإصلاح المتصوفة في ذلك الحين ، وقد
ابتدأها بصرخة تشبه التي نقلناها للغزالي من منهاج العابدين ،
فهو يقول (اعلموا رحمكم الله أن المحققين من هذه الطائفة انقرض
أكثرهم ، ولم يبق في زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم ،
كما قيل :

أما الخيام فانها كخيامهم * وأرى نساء الحى غير نساها
حصات الفترة في هذه الطريقة ، بل اندرست بالحقيقة الخ)
وقد شرح القشيري في بداية هذه الرسالة اعتقاد طائفة
الصوفية في مسائل الاصول في التوحيد ، ثم ذكر تراجم اثنين
وثمانين من مشايخ الصوفية بإيجاز ، ثم فسر الألفاظ التي تدور
بين هذه الطائفة ، وبين ما يشكل فيها على المريدين ، كالوقت
والمقام ، والحال ، والقبض ، والبسط ، والتواجد ، والوجد ،
والوجود ، إلى آخر ما قال

ثم وضع عدة أبواب في المجاهدة ، والخلوة ، والعزلة ،
والمراقبة ، والصبر ، والشكر ، والخوف ، والرجاء ، وما إلى ذلك
عما يهيم السالكين

وتمتاز هذه الرسالة بكثرة النقل عن المتقدمين من شيوخ

الطريق. وقد صدق الزبيدي فيما رآه من أن الغزالي اعتمد عليها عند تأليف الإحياء، وإن كانت النسبة بين الكتابين بعيدة من جهة المادة، ومن السهل أن يثبت الانسان أثر هذه الرسالة في أكثر أبواب الإحياء، وما أدري لم لم يُشَدَّ الغزالي بذكر مؤلفها ومؤلف قوت القلوب، مع أن فضلها عليه كبير!

الفصل الثالث

من عرف الغزالي من الصوفية

ويجمل بنا أن نذكر طائفة من الصوفية الذين عرفهم الغزالي وزيد بذلك من قرأ لهم، واستشهد بكلامهم في مؤلفاته، لأن تأثيرهم غير قليل في تكليف أحكامه الأخلاقية، وطبعها بذلك الطابع الصوفي المعروف

الإمام الشافعي

ولد رضي الله عنه بغزة، ومات بمصر سنة ٢٠٤ بعد أن أقام بها أربع سنين. وكان سنه حين مات ٥٤ سنة. وليس غرضنا أن نتكلم عنه من الوجهة التشريعية، فإن لذلك مجالاً غير هذا المجال، غير أنه لا يفوتنا بهذه المناسبة أن نقرر أن كتاب الأم الذي

ينسب إليه ليس له ، وإنما هو من تأليف البويطى كما نص الغزالي
في الإحياء

والذى يهمننا الآن : هو أن تصور الشافعى كما تصوره
الغزالي ، أى من الوجهة الصوفية ، فقد كان رضى الله عنه معروفاً
بالتقوى ، ونسيان الذات ، حتى يقول : وددت لو أن الخلق
تعلموا هذا العلم على أن لا ينسب إلىّ منه حرف

نماذج من كلامه

وإلى القارىّ نماذج من كلماته التى جرت مجرى الأمثال .
قال رضى الله عنه : « أظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه
ورغب فى مودة من لا ينفعه ، وقبل مدح من لا يعرفه — المرء
فى العلم ، يقسى القلب ، ويورث الضغان — من لم تعزه التقوى
فلا عز له — سياسة الناس أشد من سياسة الدواب — لو علمت
أن الماء البارد ينقص مروءتى ما شرهته — ليس بأخيك من
احتجت إلى مداراته — من علامة الصادق فى أخوة أخيه أن
يقبل عله ، ويسد خلله ، ويفقر زلله — لا تشاور من ليس فى بيته
دقيق — لا تقصر فى حق أخيك اعتماداً على مروءته ، ولا تبذل
وجهك إلى من يهون عليه ردك — من نمّ لك نمّ عليك — من
نظف ثوبه قلّ همّه ، ومن طاب ريحه زاد عقله »

المزني

هو الامام أبو ابراهيم اسماعيل بن يحيى المزني . ولد سنة ١٧٥
وتوفي سنة ٢٦٤ تلقى العلم عن الشافعي وصار من ناشري مذهبه .
وكان الشافعي يقول فيه : لو ناظر الشيطان لقلبه !! ونقل السبكي
عن عمرو بن عثمان المكي : ما رأيت أحداً من المتعبدين في
كثرة من لقيت منهم أشد اجتهاداً من المزني ، ولا أدوم على
العبادة منه ، وما رأيت أحداً أشد تعظيماً للعلم وأهله منه ، وكان
من أشد الناس تضيقاً على نفسه في الورع ، وأوسعهم في ذلك
على الناس

حرملة

هو حرملة بن يحيى بن عبد الله بن حرملة ولد سنة ١٦٦ ،
وتوفي سنة ٢٤٣ ، وهو من تلامذة الشافعي ورواة حكمه . قال
السبكي : وقد ينفرد حرملة في بعض المسائل ويخرج عن المذهب
تأصيلاً وتفريعاً ، كما قد يفعل ذلك المزني وغيره في بعض
الأحايين .

المحاسبي

هو أبو عبد الله الحرث بن أسد المحاسبي المتوفى ببغداد سنة
٢٤٣ ، وهو شيخ الجنيد ، ويقال انه سمي المحاسبي لكثرة محاسبته

لنفسه ، وقد أُلّف في الفقه والتصوف والحديث والكلام نحو
مائتي كتاب . وكان الجنيد يقول : كنت كثيراً ما أقول للحرث
(عزّلتني أنسى) فيقول : كم تقول أنسى وعزّلتني ؟ لو أن نصف
الخلق تقربوا مني ما وجدت بهم أنساً ، ولو أن نصف الخلق
الآخر نأوا عني ما استوحشت لبعدهم . وأنشد منشداً بين يدي
الحرث هذه الأبيات :

أنا في الغربية أبكي * ما بكت عين غريب
لم أكن يوم خروجي * من بلادى بمصيب
عجباً لي ولتركي * وطناً فيه حبيبي

فقام وتواجد وبكى حتى رحمه كل من حضره

ومن كلامه : « خيار هذه الأمة هم الذين لا تشغلهم آخرتهم
عن دنياهم ، ولا دنياهم عن آخرتهم — حسن الخلق احتمال الأذى
وقلة الغضب ، وبسط الرحمة ، وطيب الكلام — الظالم نادم وإن
مدحه الناس ، والمظلوم سالم وإن ذمه الناس — القانع غني وإن جاع
والحريص فقير وإن ملك »

الجنيد

هو في نظر الصوفية سيد علماء الآخرة على الإطلاق ،

توفي سنة ٢٩٨ ، وكانت له أحوال لا يقرها شرع ولا عقل

ومن كلامه : « ان الله يُخَاصُّ الى القلوب من برِّه ، على حسب ما تُخلص اليه القلوب من ذكره . فانظر ماذا خالط قلبك — الغفلة عن الله تعالى أشد من دخول النار — اذا رأيت الفقير فلا تبدأه بالعلم ، وأبدأه بالرفق ، فان العلم يوحشه ، والرفق يؤنسه »

*
*
*

وفي كتب الغزالي عدد عظيم من الصوفية ، يؤيد بكلامهم رأيه ، وكان لأوثاق الصوفية مصنفات معروفة ، وكلمات مأثورة يتداولها الناس لعهده ، وإنه لا شك في انتفاعه بتلك الآثار . والرغبة في الإيجاز هي التي أَرْضَتْنَا عن الاكتفاء بترجمة هذا العدد القليل

الفصل الرابع

منبع الشريعة

وأهم المنابع التي استقى منها الغزالي هو منبع الشريعة ، ممثلة في الآيات والأحاديث والأخبار . ويرى غير واحد من علماء هذا العصر أن الأخلاق عند الغزالي هي عين الأخلاق الإسلامية ، وهذا رأى غير صواب ، ولكنهم حَمَلُوا عليه بما يرون من إكثاره

في مؤلفاته من الآيات والأحاديث ، وسترى كيف أخطأوا حين
تقرأ ما فصلنا من آرائه في الأخلاق

ويشمل هذا المتبع فقهاء المسلمين الذين تأثر الغزالي بأرائهم
في المعاملات . مع أنه احتاط في النقل عنهم ، ولكن هذه الحيلة
لا تزيد عن مطالبتهم بمسيرة أصول الشرع الحنيف

الإنجيل

إطلع الغزالي على الإنجيل ، واستفاد منه ، واعتمد عليه ماشاء
في مؤلفاته . وهذا طبيعي من رجل مسلم أوصاه دينه أن لا يفرق
بين أحد من الأنبياء

ولاعبرة بما كتبه الدكتور زويمر في هذا الموضوع . لأن
الدكتور زويمر يريد أن ينسب هداية الغزالي الى مطالعته للإنجيل ،
مع أن الغزالي لم يضلّ الا حين تعلق بأهداب الآداب السلبية
التي دعا اليها الإنجيل !!

ولتوضيح هذا نذكر أن الآداب التي وضعها الانجيل غير
طبيعية ، على معنى أنه لا يمكن أن يسكن اليها بطبيعته أحد من
الناس . فالحكمة الإنجيلية التي تقول : من ضربك على خدك
الأيمن فأدر له خدك الأيسر ، حكمة غير معقولة ، لا يقرها
عرف ، ولا يدعو اليها قانون - والحكمة المسيحية التي تقول :

من سخر كميلاً فامش معه ميلين ، حكمة غير ممكنة القبول .
ومن المستحيل أن تجد مسيحياً يدبر لك خده الأيمن حين تضربه
على خده الأيسر ، أما المسيحى الذى يتبعك ميلين حين تُسخره
ميلاً فهو نادر الوجود !!

ومن المستطرف ما لاحظته الدكتور زويمر على مارواه
الغزالي عن المسيح من أنه مكث يناجى ربه ستين صباحاً لم يأكل .
فقد قال : الحقيقة أنها أربعون ، ولم تتعب نفسك ياسيدى الدكتور
في هذا التصحيح ؟ المسألة برمتها خيال في خيال ، لأن الذى
يكث ستين يوماً أو أربعين يوماً بلا طعام لا يصلح لشيء في هذا
الوجود الزاخر بالجهد والجلاد . وهل يستطيع القسيسون والرهبان
أن يحيوا هذه الحياة ! وهبهم استطاعوا ، فما عسى أن تكون
منزلتهم بين الأحياء ؟

وأى خطأ أفدح من قول الغزالي في الدرّة الفاخرة « اعتبروا
بعمسى عليه السلام ، فقد قيل انه لم يملك الا ثوباً واحداً لبسه
عشرين سنة ؛ ولم يأخذ معه في كل سياحاته إلا كوزاً وسبحة
ومشطاً . ورأى ذات يوم رجلاً يشرب من نهر بحفنتيه فطرح
الكوز ولم يستعمله ثانياً ، ثم رأى رجلاً يشط لحيته بأصابعه ،
فطرح المشط ولم يستعمله ثانياً ، وكان يقول دائماً : حصانى قدمائى ،

ويبوتى مغائر الأرض ، وطعامى خضرتهاها ، وشرابى من ماء
أنهارها ، ومقرى بين بنى آدم »

وهذه من الغزالي دعوة مردودة ، لأن الاسلام لا يعرف
هذا النوع من الحياة ، وكيف يدعو المسلمين الى أن يعتبروا بما
روى من أن عيسى لم يملك الا ثوبا واحداً لبسه عشرين سنة ، مع
أنه من المستحيل أن يبقى الثوب الواحد على جسم المرء عشرين
سنة ، الا أن تكون هذه أيضاً معجزة ، وعفا الله عن لا يفهم
هذه المعجزات !!

ان عيسى الذى يصورونه بهذه الصورة شخص خرافى لم
يعرفه التاريخ . والا فأى أرض يسمح جوها بأن يظل الثوب
على صاحبه عشرين عاماً لا يبلى ، ولا يُعرض لابسه لنفرة تلامذته
وأصدقائه ؟ وكيف يقابل هذا بما روى الغزالي عن المسيح من
أنه قال : اذا كان صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ، ولينسح
شفتيه ، لئلا يرى الناس أنه صائم ؟ فان فى هذا الحديث دعوة الى
كتمان الصوم ، والظهور بمظهر الترف ، تجنباً لتمدح بمظهر
الصيام

أليس من العجيب أن يصدق الغزالي أن عيسى يقول : من
أخذ رداءك فأعطاه إزارك ، ومن ذا الذى يرضى من المسلمين

أو النصراني أن يتأدب بهذا الادب الغريب؟ :

ويستشهد الغزالي بقول عيسى عليه السلام : لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن ، كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحدمع أن هذا مناقض للآية الكريمة : ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار — ويستشهد بقول عيسى : انظروا الى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر ، والله تعالى يرزقها يوماً بيوم ، فان قلتم نحن أكبر بطوناً فانظروا الى الأنعام كيف قيض الله تعالى لها هذا الخلق للرزق . وهذا يناقض الآية الكريمة : ولا تنس نصيبك من الدنيا . ومن الواضح أن الذي لا ينسى نصيبه من دنياه ، يسعى له ، ويحده في طلبه

ونحن بهذه الكلمات لا ننكر نبوة عيسى عليه السلام . وانما نرجح أن أتباعه جنوا على شريعته ، بما زوروا باسمه من الأحاديث ، وهذه جنابة كثيرة الامثال في الشرائع ، فان الاسلام مع تواتر سنده الاول وهو القرآن ، لم يعدم من أصحاب الغفلة وأصحاب الغرض من زوروا الاحاديث باسم النبي حتى كادوا يقضون على ما للدين من قوة الحق ، وروعة الجمال

ونحن كذلك لا ننكر أن المسيحية تدعو الى الزهد . فان الدعوة الى الزهد أصل من أصولها الاولى . ولكننا نرجح انها

كانت تدعو الى الزهد بقدر ما تفل من حدة الناس . وتقل من
جشعهم وطمعهم . فأما الدعوة الى الفرار من طيبات ما أحل الله
فهي دعوة بعيدة الوقوع من الانبياء والمرسلين
وكنا نحب أن لا يصدق الغزالي كل ما نقل عن المسيح ،
ولكن الغزالي كان طيب القلب أكثر مما يجب ، وما أحوج
العلماء الى الاعتصام بحبل الشك ، فان الشك وحده سبيل اليقين

الفصل الخامس

أساتذة الغزالي وأصحابه

وبعد الذي قدمناه من ورود الغزالي للمناهل الفلسفية ،
والشرعية ، والصوفية : لا نجد بدءاً من التنبيه الى انه اغترف
كذلك من المنهل الذي ورده أساتذته وأصحابه . وقد لاحظنا
أن الذين تتلمذ الغزالي لهم كانوا في الأغلب صوفية ، كما أن أكثر
من صحبهم كانوا صوفية
فن أساتذته الأمام احمد بن محمد الراذكاني ، وكان من الفقهاء
الصالحين ، وقد تلقى عنه دروسه الاولى في طوس
ومن أساتذته الأمام أبو نصر الاسماعيلي ، وكان من الأمثلة
النادرة في الورع والتقوى ، وقد تلقى عنه الغزالي في جرجان ،

وعلق عنه التعليقة ، كما كانوا يقولون
ومن أساتذته إمام الحرمين ، وكان من أتقى أهل زمانه ،
وقد تلقى عنه الغزالي في نيسابور ، ويقال انه كان يحسد الغزالي ،
بالرغم من شهادته له بالتفوق والنبوغ
ومن أساتذته الامام الزاهد أبو علي الفارمذي من أعيان
تلامذة أبي القاسم القشيري وكان أستاذه في التصوف ، وقد عده
السبكي من أصحابه
هؤلاء وغيرهم من أساتذة الغزالي وأصحابه أثروا في حياته
العقلية تأثيراً غير قليل ، وطبعوا نظره إلى الحياة بطابع خاص ،
وفي مقدور القارئ أن يرجع إلى تفصيل حياة هؤلاء الذين
اختصروا أخبارهم في طبقات الشافعية . أما تلامذة الغزالي فسنعود
إليهم في غير هذا الباب



الباب الرابع

في

مؤلفات الغزالي

تمهيد

تكلم ابن السبكي في طبقته عن مؤلفات الغزالي ، وتبعه الزبيدي في شرح الاحياء ، ثم كتب جرجي زيدان في صدر الجزء السادس من السنة الخامسة عشرة للهلال كلمة مفصلة عن مصنفات الغزالي ، وتماز هذه الكلمة بشيئين : الأول ترتيب تلك الكتب بحسب موضوعاتها ، والثاني الاشارة إلى أماكن وجود النسخ النادرة ، مخطوطة كانت أو مطبوعة . إلا أنه لحسن حظ العلم نجد أكثر ما نوه جرجي زيدان بندرته أصبح اليوم في المكاتب والأسواق وأعم كتب الغزالي فيما نحن بصدده من درس الأخلاق ، كتاب الاحياء ، وسنكتب عنه كلمة مفصلة ، وكتاب ميزان العمل ، وهو يقع في ٢١٥ صفحة ، ونحسبه يفضل في دفته

كتاب الإحياء ، بل يشبه أن يكون خلاصة له ، وميزان العمل هذا مقابل لكتابه معيار العلم . وقد قال في مقدمته (لما كانت السعادة التي هي مطلوب الأولين والآخريين لا تنال إلا بالعلم والعمل ، واقتصر كل واحد منهما إلى الاحاطة بحقيقته ومقداره ، ووجب معرفة العلم والتميز بينه وبين غيره بمعيار ، وفرغتنا منه ، ووجب معرفة العمل المسعد ، والتميز بينه وبين العمل المشقى ، فافتقر ذلك أيضا إلى ميزان ، فأردنا أن نخوض فيه الخ) وقد نص على أنه وضع أكثر هذا الكتاب على طريقة التصوف

ويلى هذين الكتابين في الأهمية كتاب الأربعين . وهو جزء من كتاب جواهر القرآن ، كما ذكر صاحب كشف الظنون ، وقد وضع بعد الإحياء ، وهو قريب منه في الموضوعات وفي التبويب

ومن مؤلفاته الهامة في الأخلاق كتاب منهاج العابدين وهو آخر مصنفاته ، ولعل هذا هو السرفيا احتواه هذا الكتاب من مظاهر الضعف والاضطراب ، وقد رأيت كيف اعتلت صحته بسبب العزلة ، ونقل الزبيدي عن المسامرة لابن عربي أنه ليس له ، وإنما هو لأبي الحسن علي بن خليل السبتي ، وسترى بعد قليل ما زور باسم الغزالي من التأليف

وهناك التبر المسبوك في نصيحة الملوك ، كتبه للسلطان محمد بن ملكشاه ، وعن هذا الكتاب أخذنا رأى الغزالي في آداب الكتاب ، وواجبات الملوك ، وحقوق الوزراء . وسترى بعد كلمة في نسبة هذا الكتاب إلى الغزالي ، وهو يقع في ١٢٤ صفحة وتجده مشحوناً بالأقاصيص ، وهي فكرة حسنة في الترغيب والترهيب ، ولم يختص بها كتابه هذا ، ولكنها فيه أظهر من سواه

ولا تنس كتابه المنقذ من الضلال ، ففيه صورة صادقة لحياة العقلية ، وهو يمثل وجهة نظره فيما شهد من الحركة العلمية في عصره ذلك ، وقد كتبه بسذاجة ظاهرة تكشف لنا عن قلب أبيض ، ونفس تجيش بالاخلاص وكتابه المستصفي في الأصول كان المرجع فيما كتبنا عن الحسن والقبیح ، وهو كتاب قيم يدل على مبلغه من دقة الفهم ، وحسن الأداء

ورسالته مشكاة الأنوار تمثل لنا رأيه في منازل الناس بحسب قربهم أو بعدهم من فهم ما بنى عليه العالم من دقائق الجمال ، وقد توسع في شرح قوله تعالى : الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح إلى آخر الآية

ويعد الغزالي من أكبر المؤلفين حتى زعموا أن مؤلفاته
قسمت على أيام حياته فخص كل يوم أربعة كراريس (!) وأهمها
جميعاً كما قدمنا هو كتاب الإحياء وهو سبب مارزق من الخلود

إفصل الأول

طريقة في التأليف

وللغزالي في التأليف منهج جميل ، فهو يشرح أولاً المذهب
الذي يريد نقده ، وقد بلغ من حرصه على هذا المنهج أن ألف
كتاباً في مقاصد الفلاسفة ، حين تمّ بتأليف كتاب في تهافتهم ،
ويقول في كتابه ذلك (ولنفهم الآن ما نوردده على سبيل الحكاية
مهملاً مرسلًا ، من غير بحث عن الصحيح والفاقد ، حتى إذا
فرغنا منه استأنفنا له جداً وتشميراً في كتاب مفرد نسميه
تهافت الفلاسفة)

وصنع مثل هذا الصنيع حين رد على الباطنية ، وقد ذكر
في المنتقد من الضلال ص ٢٠، ٢١ أن بعض أهل الحق أنكروا عليه
مبالغته في تقرير حججهم ، وقالوا : هذا سعى لهم ، فانهم كانوا

يعجزون عن نصره مذهبهم بمثل هذه الشبهات ، لولا تحقيقه لها ،
وترتيبه إياها ، وأجاب بأنه استحسن أن يقرر شبهتهم إلى حد
الامكان ثم يظهر فسادها ، وهذا منهج لانسرف إن كررنا
أنه جميل

ومما تمتاز به خطة الغزالي في التأليف ، الاعتماد على الخطايات
في إصلاح القلوب ، فهو حين يتكلم عن فضيلة من الفضائل ،
يبدأ بذكر ماورد في حمدها من الآيات ، ويعقب بسرد ما جاء
عنها من الأحاديث ، ثم الأخبار ، ثم الآثار ، وينطلق بعد ذلك
في ذكر القصص والحكايات التي تستولى على قلب القارئ ،
وترسم في نفسه أثر تلك الفضيلة ، ومالها من مقام محمود . والأمر
كذلك إذا تكلم عن رذيلة من الرذائل ، وهو في هذا الباب
لا يعتبر مبتكراً ، فقد سبقه القصاص ، ولكنه آخر عفى على
الأولين ؛ وقد رأيت من الأدباء من يستنكر هذه الخطة ، وهو
استنكار على غير أساس ؛ ويكفي أن تقرأ كتب سميلاز الانجليزي
المتوفى في ١٦ ابريل سنة ١٩٠٤ لتعرف حسن هذا المنهج في رأى
المعاصرين ، فاني لم أر أحداً يستنكر منهج سميلاز في الاكثار من
الأقاصيص للترغيب في مكارم الأخلاق
وتمتاز كتب الغزالي الاخلاقية بأنها صالحة لكل قارئ ،

فلم يقصد المؤلف وضعها لطائفة معينة : أو فريق خاص ، وإنما
وضعها لجمهور المساميين

وهناك ميزة خطيرة لمؤلفات الغزالي : وهي إقباله على الخيال
فهو يحسن ويقبح بطريقة فنية بدیعة ، تحبب العقول ، وتمتع
القلوب . وانظر كيف يشبهه من يحسب المحسن إنما يحسن باختياره
إنه يشبهه بالتملة ترى سواد الخيط على البياض يحصل من حركة
القلم فتضيف ذلك إلى القلم : إذ حدقتها الصغيرة الضعيفة ، لا تمتد إلى
الإصبع ، ومنها إلى اليد ، ومنها إلى القدرة المحركة لليد ، ومنها
إلى الإرادة التي القدرة مسخرة لها ، ومنها إلى المعرفة التي يتوقف
انبعاث الإرادة عليها ، ومنها إلى صاحب القدرة والعلم والإرادة^(١)
ويشبهه الضعيف القلب ، بالحمار في معلقه ، والدجاج في قفصه
يرمق ما تعود من صاحبه ، لا يكاد ينفك عن ذلك ، وتفاعدت
نفسه عن معالي الأمور ، وانقطعت همته ، فلا يكاد يقصد
أمراً شريفاً^(٢)

والذي يعبر بنظره كتاب الأحياء وكتاب الأربعين وكتاب
المنهاج، يرى البدائع الفنية ، وألوان البيان . في طرق الترغيب
والترهيب . وهو يجيد في التخيل حتى يغلب القاري على أمره ،

ويشكك في نفسه ، ويحمله قهراً على أن يدرس نفسه من جديد ،
وهذا وجه الخطر في مؤلفات الغزالي ، إذ كانت في الأغلب
وساوس صوفية عُشِّيت بألوان السحر والفتون ، فلا يسلم منها
إلا العالمون والأقوياء

الفصل الثاني

الصوت المررد في مؤلفات الغزالي

ومع محاكاة الغزالي لمن تقدمه من المؤلفين ، فإنا نراه يكرر
كثيراً الأفكار ، والعبارات ، والأمثلة ، حتى لنظن بضاعته
واحدة ، في جميع مؤلفاته ، ويمكن الحكم بأن الإحياء ،
والأربعين ، والميزان ، والمنهاج ، والتبر المسبوك ، والأدب
في الدين ، وبداية الهداية ، وجزءاً كبيراً من مؤلفاته في الفقه
والتوحيد ، أقول يمكن الحكم بأن جميع هذه المؤلفات يندر أن
تكون بينها فروق جوهرية . ولو أننا وازنا بين كتبه في باب
كباب الإخلاص لوجدنا الأمثلة واحدة ، والعبارات واحدة ،
وانما تختلف بالإطناب والإيجاز
وإذ كان الرجل مفتوناً بأراء الصوفية . فإنا نجد تأثره بهم

يختلف اختلافا قليلا بحسب الظروف ، فهو في المنهاج ، أقرب اليهم منه في الاحياء ، فإيحترز منه هنا قد لا يحترز منه هناك ونلاحظ أنه ليست هناك غاية موحدة يسعى لنصرتها الغزالي بمصنفاته العديدة : فهو تارة يلوذ بأكناف الشريعة ، فيمنع ما تمنع ، ويبيح ما تبيح . وتارة يسير الصوفية ، فينصرهم فيما يسمون اليه من الانفراد بفهم أسرار الوجود ، وهو مع ذلك يصرح بأن علم المكاشفة لا يودع الكتب ، ولا يصح أن يلقى لغير الخواص : وينتج مما سلف أن الغزالي ليس من المبتكرين المبدعين ، وإنما يمتاز بصبره على قرع ذلك الناقوس الذي أراد أن يوقظ به الناس من سباتهم ، وإن لم يكن ذلك الناقوس من صنع يديه ، وقد أفاق الناس ولم يروا غير الغزالي ، ثم هرعوا اليه ، فوجدوا كتاب الاحياء في يمينه ، وما زالوا به يحملون :

الفصل الثالث

كتاب الاحياء

هو أهم ما كتب الغزالي في الأخلاق ، ألفه في أخريات حياته حين جنح الى اعتزال الناس ، ثم قرأه في دمشق وبغداد ، ووضع له مختصرات عديدة ، منها الوجيز ، ومنها المبسوط ،

وقد أسسه على أربعة أرباع : ربع العبادات ، ويشتمل على كتاب العلم ، وكتاب قواعد العقائد ، وكتاب أسرار الطهارة ، وكتاب أسرار الصلاة ، وكتاب أسرار الزكاة ، وكتاب أسرار الصيام ، وكتاب أسرار الحج ، وكتاب آداب تلاوة القرآن ، وكتاب الاذكار والدعوات ، وكتاب ترتيب الاوراد في الاوقات

وربع العادات ، ويشتمل على كتاب الاكل ، وكتاب آداب النكاح ، وكتاب أحكام الكسب ، وكتاب الحلال والحرام ، وكتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق ، وكتاب العزلة ، وكتاب آداب السفر ، وكتاب السماع والوجد ، وكتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة

وربع المهلكات : ويشتمل على كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب رياضة النفس ، وكتاب آفات الشهوتين شهوة البطن وشهوة الفرج ، وكتاب آفات اللسان ، وكتاب آفات الغضب والحقد والحسد وكتاب ذم الدنيا ، وكتاب ذم المال والبخل ، وكتاب ذم الجاه والرياء وكتاب ذم الكبر والعجب ، وكتاب ذم الغرور

وربع المنجيات : ويشتمل على كتاب التوبة ، وكتاب الصبر والشكر ، وكتاب الخوف والرجاء ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوحيد والتوكل ، وكتاب المحبة والشوق والانس والرضى ، وكتاب النية والصدق والاخلاص ، وكتاب المراقبة والمحاسبة ، وكتاب التفكير ، وكتاب ذكر الموت

ونظرة الى هذا البرنامج تريك مبلغ عناية الغزالي بكتاب الاحياء ، وليس كثيراً أن ذكرنا هذا البرنامج ، فان الاحياء

عمدتنا فيما قصدنا اليه من تحرير ما وضع الغزالي في الاخلاق ،
ومن الخير أن نذكر رأى الغزالي نفسه في ذلك الكتاب المتمتع
الجامع ، فقد قال بعد ان بين ما اختطه في شرح العبادات ،
والعادات ، والمهلكات ، والمنجيات « ولقد صنف الناس في بعض
هذه المعاني كتباً . ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور :

الاول - حل ما عقده ، وكشف ما أجلوه

الثاني - ترتيب ما بددوه ، ونظم ما فرقوه

الثالث - ايجاز ما طولوه ، وضبط ما قرروه

الرابع - حذف ما كرروه ، واثبات ما حرروه

الخامس - تحقيق امور غامضة اعتاصت على الأفهام لم يتعرض
لها في الكتب أصلاً ، اذ الكل وان تواردوا على منهج واحد فلا مستنكر
أن ينفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصه ويغفل عنه
رفقاؤه »

الفصل الرابع

أغراض الاحياء

نذكر هنا شيئاً من المآخذ التي أخذها المتقدمون على الغزالي
فيما يخص كتاب الاحياء . لان في ذلك بياناً لقيمة هذا الكتاب

في نظر المتقدمين ، ولأن فيه تمهيداً لما نحن بسبيله من نقد آراء
الغزالي في الاخلاق

١ — نقل السبكي في طبقات الشافعية أن أبا عبد الله المازري
قال : وقد سئل عن الاحياء ، إن الغزالي يستحسن أشياء مبنهاها
على ما لا حقيقة له ، مثل قوله في قص الأظفار : تبدأ بالسبابة لأن
لها الفضل على بقية الأصابع لكونها المسبحة :

٢ — وأنكروا عليه كما نقل الزبيدي ، قوله في الاحياء ،
ليس في الامكان أبدع مما كان ، واستندوا في إنكارهم إلى أن هذا
يُوم عجز الجناب الالهى ، وهو كفر صريح ، وإنما انحصر انكارهم
في هذه الوجهة لاغراقهم في المباحث الدينية ، ولو كان لهم نصيب
من العلم والفن لعدوا هذا عقبة في سبيل الاختراع

٣ — ونقل الزبيدي عن الأجوبة المرضية للشعراني أن مما
أنكر على الغزالي قوله : يباح للصوفية تمزيق ثيابهم عند غلبة
الحال ، ان قطعت قطعاً مربعاً تصالح لترقيق الثياب والسجادات ،
كما يجوز تمزيق الثوب ليرقع به ثوب آخر ؛ وقد أجاب الزبيدي :
على هذا بجواب مضحك جاء فيه (وبالجلمة فلو كان جميع أموال
الدنيا وأمتعتها بيد الفقير ورأى حضور قلبه مع الله تعالى لحظة
باتلافها كلها ، بحرقها أو رميها في بحر ، لكان له ذلك بطريق

الاجتهاد، ولا لوم إلا على من يمزق ثيابه ويتلف ماله إسرافاً
وسفهاً) وقد فات الزبيدي أن غرض المنكر ليس منصباً على
التبديد والإسراف، وإنما هو موجه إلى الخروج من الوقار، فإنه
لا مريية في أن غرض الشرع من التجميل إنما يرجع إلى الرغبة في أن
يسبغ على المؤمن رداء الجلال

٤ — ومما أنكروا عليه قوله في الأحياء: المقصود بالرياضة
تفريغ القلب، وليس ذلك إلا بالخلوة، والجلوس في مكان مظلم،
فإن لم يكن مظلماً لف رأسه في جيبه، أو تدثر بكساء أو رداء
فإنه في مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق تعالى ويشاهد جلال
الربوبية (!؟)

وقد تنبه ناقدوه إلى أن التقليل من الطعام قد يورث الجنون؛
فمن يدرينا أن ما يسمعه المترىض هو نداء الحق، أو أن الذي يشاهده
هو جلال الربوبية، ومن يضمن أن لا يكون ما يجده هو من
الوساوس والخيالات الفاسدة!

٥ — وأنكروا عليه كذلك تقريره قول الجنيد: إذا كان
الأولاد عقوبة شهوة الحلال، فما ظنكم بعقوبة شهوة الحرام (!)
٦ — وأنكروا عليه كذلك تقريره ما حكاه عن بعضهم أنه
بات عند السباع في برية ليمتحن توكله على الله هل صح أم لا (!؟)

قالوا وكيف جاز له أن يسكت على ما فعله هذا الرجل مع تعرضه
لأسباب الهلاك؟

٧ - ومما أنكروا عليه قوله : كان بعض الشيوخ في بدايته
يكسل عن قيام الليل ، فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل
لتصير نفسه بحيث تجيبه الى قيام الليل اختياراً ، وكذلك عالج
بعضهم حب المال : فباع جميع أمتعته ورعى ثمنها في البحر خوفاً
من أن يقع في حب تركية الناس له ، ووصفه بالجلود ، أو الرياء
في فعلها ، ولذلك كان بعضهم يستأجر من يشتمه على رءوس
الاشهاد ليعود نفسه الحلم ، وكان آخر يركب البحر في الشتاء عند
اضطراب الموج ليعود نفسه الشجاعة ، وكان بعضهم اذا خاف
النوم يقف على رأس حائط عال حتى لا يأخذه النوم (:) قال ابن
القيم : وإني لأعجب من أبي حامد هذا كيف يأمر بهذه الامور
التي تخالف ظاهر الشريعة ، وكيف يحل لأحد أن يقوم على رأسه
طول الليل ، وكيف يحل رمي المال في البحر ، وكيف يحل سب
المسلم بلا سبب ، وهل يجوز لمسلم أن يستأجر من يشتمه ، وهل
يجوز لأحد أن يقوم على رأس جدار عال ويعرض نفسه لوقوع
بالنوم فتتكسر رقبتة فيموت ؟؟؟

٨ - ومما أنكروا عليه حكايته عن ابن الكرتي شيخ

الجنييد انه قال : نزلت في محلة فعرفت فيها بالصلاح ، فشت قلبي ،
ونفر مني ، فدخلت الحمام ، وسرقت ثيابا فاخرة ولبستها ، ثم
لبست مرقعي فوقها ، وخرجت فجعلت أمشي قليلا قليلا ،
فلحقوني وأخذوا مني الثياب ، وصفعوني وسموني اص الحمام ،
فسكنت نفسي (!؟) قال الغزالي : فهكذا كانوا يرون أنفسهم
حتى يخلصهم الله تعالى من فتنة النظر الى الخلق ومراعاتهم لهم ،
وأهل النظر الى النفس وأرباب الأحوال ربما عاجلوا أنفسهم بما
لا يفتي به الفقيه ، إذا رأوا صلاح قلوبهم في ذلك ، ثم يتداركون
ما فرط منهم من صورة التقصير كما فعل هذا في الحمام (!!) قال ابن
القيم سبحانه من أخرج أبا حامد من دائرة الفقه بتصنيفه كتاب
الاحياء ! فليته لم يحك فيه مثل هذه الأمور التي لا يحل لأحد
السكوت عليها ؛ ثم نقل نص الامام احمد والشافعي في أن من
سرق من الحمام ثيابا عليها حافظ وجب قطع يده . ثم قال : وتعجبي
من هذا الفقيه الذي استتاب التصوف علمه وعقله ، أكثر من
تعجبي من هذا المستلب الثياب من الحمام : فيا ليت أبا حامد بقي
مع قواعد الفقه واستغنى عن هذه الهديانات !

٩ - وأنكر واعليه تقرير ما حكاه عن أبي الحسن الدينوري

أنه حج اثنتي عشرة حجة ، وهو حاف مكشوف الرأس ! قال ابن

القيم ، وهذا من أعظم الجهل لما في ذلك من الأذى للرأس
والرجلين ، ولا تسلم الأرض من الشوك والوعر ، وكان هؤلاء
الصوفية ابتكروا من عند أنفسهم شريعة سموها بالتصوف ،
وتركوا شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فنعوذ بالله من تلبيس
إبليس . فان مثل هذه الحكايات تفسد عقائد العوام ، اذ يظنون
أن فعل مثل هذا من الصواب

١٠ - وأنكروا عليه تقريره عن أبي الخير الأقطع التيتاني
قوله : إني عقدت مع الله عهداً أن لا آكل شيئاً من الشهوات ،
فددت يدي الى ثمرة في شجرة فقطعتها ، فينما أنا أمضغها إذ
ذكرت العهد فرميت بها من فمي ، فدار بي فرسان وقالوا قم !
وأخرجوني الى ساحل بحر اسكندرية ، واذا أمير وحوله خيل
وجند ، فقالوا أنت من اللصوص ، واذا معهم جماعة من لصوص
السودان ، فسألوهم عنى ، فقالوا لا نعرفه ، فكذبهم الأمير ،
وشرع يقدم يداً ويقطعها الى أن وصل الى ، وقال لى : تقدم ومد
يدك ، فددتها فقطعت الى آخرها : : قالوا : فانظروا ما يفعل الجهل
العظيم بصاحبه ، فلو أن عند التيتاني راحة علم ، لعلم أن ما فعله
حرام عليه ، وليس لابليس عون على الزهاد والعباد أكثر من
الجهل ، وما أظن غالب ما يقع لهؤلاء إلا من الجنون

١١ - وأنكروا عليه قوله : ان الاشتغال بعلم الظاهر
بطالة (!) قال ابن القيم : هذا جهل مفرط منه . وأصل ذم
الصوفية للعلم أنهم رأوا طريق الاشتغال به لا يوصلهم الى الرياسة
إلا بعد طول زمان ، بخلاف طريقهم المبتدعة من لبسهم الزى ،
وصلاتهم بالليل ، وصيامهم بالنهار ، وتقصير الثياب والأحجام

١٢ - وأنكروا عليه حكايته عن أبي تراب النخشي أنه قال
لمريد له : لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة ، كان أنفع لك من رؤية
الله عز وجل سبعين مرة (!؟) قال ابن القيم : وهذا الكلام فوق
الجنون بدرجات

١٣ - وأنكروا عليه تقريره لرمي الشبلي ما كان معه من
الدنانير في دجلة ، وقوله : ما أعزك عبد إلا أذله الله تعالى . قال
ابن القيم : وأنا أتعجب من أبي حامد أكثر من تعجبى من هؤلاء
الجهلة بالشرعية ، كيف يحكى ذلك عنهم على وجه المدح لهم ، لا على
وجه الانكار ، وأى رائحة بقيت من الفقه عند أبي حامد حتى
يكتب عنه شيء من العلم ؟ إذن النقماء كلهم يقولون إن رمى المال
في البحر لا يجوز

١٤ - وأنكروا عليه تقريره قول أبي سليمان الداراني : إذا
طلب الرجل الحديث ، أو سافر في طلب المعاش ، أو تزوج ،

فقد ركن إلى الدنيا (؟!) قالوا : هذه الأشياء الثلاثة مخالفة لقواعد
الشريعة . وكيف لا يطلب الحديث وقد ورد : ان الملائكة لتضع
أجنحتها على طالب العلم ؛ وكيف لا يطلب المعاش . وقد قال عمر
رضي الله عنه : لأن أموت من سعى رجلى أطلب كفاف وجهي
أحب إلي من أن أموت غازياً في سبيل الله ؛ وكيف لا يطلب
الزواج ، وصاحب الشرع صلى الله عليه وسلم يقول : تناكحوا
تناسلوا فإني مباحبكم الأم يوم القيامة ؟

١٥ - وأنكروا عليه تقريره قول أبي حمزة البغدادي : إني
لأستحي من الله أن أدخل البادية وأنا شعبان ، وقد اعتقدت
التوكل ، لئلا يكون شعبي زاداً تزودت به (!) قالوا : ومن
العجب اعتذاره عن أبي حمزة بقوله : كلام أبي حمزة صحيح ،
ولكن يحتاج إلى شرطين : أحدهما أن تكون للانسان قدرة
من نفسه بحيث يمكنه الصبر عن الطعام أسبوعاً ونحوه . الثاني
أن يمكنه التقوّت بالحشيش ، ولا تخلو البادية من أن يلقاه الذي
معه طعام بعد أسبوع ، أو ينتهي إلى محلة أو حشيش يجده
مايقوته . قال ابن القيم : أقبح ما في هذا القول صدوره من فقيه
فإنه قد لا يلقى أحداً ، وقد يضل ، وقد يمرض فلا يصلح له
الحشيش ، وقد يلقاه من لا يطعمه ، وقد يموت فلا يدفنه أحد

١٦ - وأنكروا عليه ما أجاب به من سأله عن رجل يدخل البادية بلا زاد حيث قال : هذا من فعل رجال الله - قيل له فان مات ؟ قال : الدية على العاقلة (!) قالوا : هذه فتوى جاهل بقواعد الشريعة ، اذ لا خلاف بين فقهاء الاسلام أنه لا يجوز لأحد دخول البادية بغير زاد ، وان فعل ذلك ومات بالجوع فهو عاص مستحق للعقوبة في الآخرة

١٧ - وأنكروا عليه أيضاً ما حكاه عن شفيق البخى أنه رأى مع شخص رغيماً ليفطر عليه من صومه فجره ، وقال : تمسك رغيماً الى الليل !

١٨ - وكذلك أنكروا عليه قوله : اعلم أن ميل قلوب أهل التصوف إنما هو الى تحصيل العلوم الدنية ، دون العلوم النقلية ، ولذلك لم يحضوا على دراسة العلم ، ولا تحصيل ما تنفقه المصنفون ، وانما حضوا على الاشتغال بالله تعالى وحده ، والاشتغال بذكر الله فقط (!) ؟

١٩ - - وأنكروا عليه تفسير قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام : واجنبي وبنى أن نعبد الأصنام . فقد قال : الأصنام الذهب والفضة . وعبادتهما جبهما والاعتزاز بهما . وواضح أن هذا التفسير بعيد عن المعنى المراد

٢٠ — وأنكروا عليه أيضاً تقريره قول سهل التستري :

إن للربوبية سرّاً لو ظهر لبطلت النبوة ، وإن للنبوة سرّاً لو ظهر لبطل العلم ، وإن للعلماء بالله سرّاً لو ظهر لبطلت الأحكام والشرائع (؟:)

وأنا أكتفي بهذا القدر من أغلاط الإحياء ، ففيه صورة واضحة لآراء العلماء في ذلك الكتاب ، وسترى في باب غير هذا أن هذه الحركة العنيفة لم تخمد بموت الغزالي ، بل ظلت نائرة عدة أجيال . وما عجبت لشيء عجبي للزيدي ، فقد تولى تنفيذ هذه المآخذ ، واحداً واحداً ، وهو تعسف ممقوت ، يكفي أن تعلم أنه لا يرتكز على قاعدة مسامة ، من عرف ، أو تشريع ، وإنما يستند على قواعد من التصوف بنيت على الماء . ومن أراد التحقق من صحة هذا الحكم فليرجع إلى الجزء الأول من شرح الإحياء ، من ص ٢٧ إلى ص ٤٠

ومن الأجوبة السخيفة ما أجاب به السبكي عن الغزالي في قص الأظفار ، فقد قال : وأما ما ذكره في قص الأظفار ، فلا أمر المشار إليه يروى عن علي كرم الله وجهه غير أنه لم يثبت وليس في ذلك كبير أمر ولا مخالفة شرع ، وقد سمعت جماعة من الفقهاء يذكرون أنهم جربوه فوجدوه لا يخطيء ، ومن داوم عليه

أمن من وجع العين . و يروون من شعر على كرم الله وجهه هذا :
ابداً ييمناك وبالنخصر * في قص أظفارك واستبصر
واختم بسبابتها هكذا * فافعل في الرجل ولا تتمر
وابداً ليسراك باهامها * والأصبع الوسطى وبالنخصر
ويتبع الخنصر سبابة * بنصرها خاتمة الأيسر
هذا أمان لك قد حزنه * من رمد العين كما قد قرى

والسخف ظاهر كل الظهور في هذا الجواب ، والا فإلهي
الصلة بين قص الأظافر بهذه الكيفية ، وبين الأمن من وجع
العين ؛ وكيف قال علي بن أبي طالب هذا الشعر السخيف وقد كان
من أفصح الناس ؟

الواقع أن الغزالي كان فتنة من فتن العصور القديمة ، وقد
نسى العلماء في الدفاع عنه أن هناك عقلاً يجب أن يحكم ، وأنه لن
يخلو العالم من أصحاب العقول ، ولو كره الجامدون ؛

الفصل الخامس

غفلة الغزالي وعنايه

١

أما غفلته فدليلها ما في كتبه من الأحاديث الضعيفة
والموضوعة . وهي تقرب من ستمائة حديث
وأنا لا أشك في نزاهة الغزالي وبعده من الكذب على
رسول الله ، فحال على مثله في ورعه وتقواه أن يزور على النبي
حديثاً ، أو يضع في كتبه أحاديث يعلم أنها من الموضوعات .
وحقيقة الأمر أن الرجل كان « يمتاز » بقسط كبير من الغفلة
والبساطة ، وإلا فكيف صدق ان النبي يقول : إن الحسنات
يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ . وأقل الناس علماً بالبلاغة
يدرك أن رسول الله لا ينطق بمثل هذا الحديث ؟ وكيف يصدق
ماروى من أن جبريل نزل فقال : ان الله يقرئك السلام . ويقول :
أتحب أن أجعل هذه الجبال من ذهب فتكون معك أينما
كنت ؟؟

ومالى أظيل في تقدما جاء في الاحياء مما لا اسناد له من
الأحاديث ، وهي مسطورة في طبقات الشافعية ، في ثمان وثلاثين

صفحة من الجزء الرابع . والضعف فيها ظاهر لا يحتاج الى دليل

٢

وأما عناده فدليله إصراره على إبقاء ما جاء في كتبه من الأغلاط ، ورميه ناقديه بالعباوة ، والحسد ، والكذب ، مع أنه كان يحمل به أن يتأمل تقدم برفق ، ويميز بين الغث منه وبين الثمين ، ولكنه اندفع كالصخر حطه السيل من شاهق ، وأخذ يرميهم بالزيغ والفسوق

وبيان ذلك أنه ما زال يغرب معاصروه في الإنكار عليه حتى ضاق تلامذته ذرعا بذلك ، فكتب اليه أحدهم يرجوه دحض تلك المزاعم ، فصنف كتابا سماه : الاملاء ، في اشكالات الاحياء . وما نريد الآن تلخيص هذا الكتاب ، فهو في أيدي الناس ، وإنما نذكر مقدمته لرى كيف ابتأس بما فعل أولئك المنكرون ، فإن في هذا صورة لجانب من جوانبه الاخلاقية ، وهو يدلنا على الأقل على مبلغ ثقته بنفسه ، وإيمانه بصحة ما جاء في الاحياء ، وعدم اكترائه بأراء الناس

قال : سألت يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقبها ، وقرب لك مقامات الولاية تحمل مغانيها ، عن بعض ما وقع في الاملاء الملقب بالاحياء مما أشكل على من حجب فهمه ، وقصر علمه . ولم يفز بشيء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه ، وأظهرت التحزن لما شوتش به شركاء الطعام ،

وأمثال الأنعام ، وأجماع العوام ، وسفهاء الأحمال ، وعار أهل الاسلام ، حتى طعنوا عليه . ونهوا عن قراءته ، وأفتوا بمجرد الهوى على غير بصيره باطراحه ومنابدته ، ونسبوا مملية الى ضلال واضلال ، ونسبوا قراءه ومنتحلبيه بزيف في الشريعة واختلال ، فالى الله انصرافهم وما آثمهم ، وعليه في العرض الأكبر ايقافهم وحسابهم ، فستكتب شهادتهم ويسألون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، وإذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا أفك قديم ، ولوردوه الى الرسول والى أولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم . ولكن الظالمون في شقاق بعيد . ولا عجب فقد توى^(١) أدلاء الطريق ، وذهب أرباب التحقيق ، فلم يبق في الغالب الا أهل الزور والفسوق ، متشبثين بدعاوى كاذبة ، متصفين بحكايات موضوعة ، مترينين بصفات منمقة ، متظاهرين بطواهر من العلم فاسدة ، ومتقاطعين بحجج غير صادقة ، كل ذلك لطلب دنيا أو محبة ثناء ، أو مغالبة نظراء . قد ذهبت المواصلة بينهم بالبر . وتألفوا جميعاً على الفعل المنكر . وهدمت النصائح منهم في الأمر ، وتصافوا بأسرهم على الخديعة والمكر ، ان نصحهم العلماء أغروا بهم ، وانصمت عنهم العقلاء أزروا عليهم ، أولئك الجهال في علمهم ، الفقراء في طولهم البخلاء عن الله عز وجل بأنفسهم ، لا يفلحون ولا ينجح تابعهم ، ولذلك لا تظهر عليهم موارنة الصدق ولا تسطع حولهم أنوار الولاية ، ولا تتحقق لديهم أعلام المعرفة . ولا يستر عوراتهم لباس الخشية . لأنهم لم ينالوا أحوال النقباء ، ومراتب النجباء ، وخصوصية البدلاء ، وكرامات الأوتاد ، ولو عرفوا أنفسهم لظهر لهم الحق . وعلموا علم أهل الباطن ... الى آخر ما قال

وبقليل من التأمل نعرف من هذه المقدمة أن الغزالي يُصرّ
بعد أن نقده معاصروه على التشبث بأذيال الصوفية . ويمكننا أن
نتوقع ماسيحيب به في كل ما أخذ عليه من الوجهة الشرعية ،
ويجب أن نفهم ذلك منذ الآن ، لنخرِّج كل ما نلقاه في آرائه
الأخلاقية من الشذوذ هذا التخريج ، ولنرجع اسرافه في بعض
المواطن الى هذا الأصل الذي اختاره وارتضاه ، وهو التصوف
وإلا فنم النقباء ، والنجباء ، والبدلاء ، والأوتاد ، إن لم يكونوا
جماعة المتصوفة الذين يستيحيون مالا يباح ؟ !

ومن أظرف ما أجاب به الغزالي فيما أخذ عليه من الأغلاط
النحوية ، أنه قليل الخبرة بالنحو ، ثم ما أجل نصحه لتلامذته بأن
يصلحوا ما يعثرون عليه من أشباه هذه الأغلاط ؛ وباليته نصح
بمثل هذا في إصلاح ماضل فيه من الأحكام :

الكذب على الغزالي

ومما يجب التنبه له أن الغزالي لم يسلم من الكذب عليه
فقد وضعت المؤلفات باسمه ، وانجر به المضللون . ويذكر
الزبيدي من هذه الكتب (السر المكتوم في أسرار النجوم)
وينص على أن هذا الكتاب نسب أيضاً إلى الفخر الرازي ، وأنه
سئل عنه فأنكره . ومما دس على الغزالي كتاب تحسين الظنون

وكتاب النفخ والتسوية . وكتاب المضمون به على غير أهله . قال السبكي : ذكر ابن الصلاح أنه منسوب إليه ، ثم قال : معاذ الله أن يكون له . وبين سبب كونه مختلفاً موضوعاً عليه . قال الزبيدي والامر كما قال . فقد اشتمل على التصريح بقدم العالم ، ونفى علم القديم بالجزئيات ، وكل واحد من هذه يكفر الغزالي قائلها هو وأهل السنة أجمعون ، فكيف يتصور أنه يقولها ؟

وقد ذكر الأستاذ الدكتور على العناني في محاضراته بالجامعة المصرية أنه يبعد أن يكون المضمون به على غير أهله هو ما بأيدي الناس ، لأن هذا الكتيب الضعيف لا يدل على المعنى الذي قصده الغزالي من « المضمون به على غير أهله » ويرجع الدكتور العناني أن يكون المضمون به على غير أهله كتاباً ضخماً يشمل آراء الغزالي الفلسفية التي يَضِنُّ بنشرها على الجمهور

وعندي أن رأى الدكتور العناني صواب لأمرين : الأول أن الغزالي كان ينصح دائماً بأن لا يلقى للعامة غير الكلام البسيط فمن المعقول أن تكون له آراء خاصة تخالف ما في كتاب الأحياء ، وأمثال كتاب الأحياء . الثاني ما ذكره الزبيدي من أن كتاب المضمون به على غير أهله يشتمل على التصريح بقدم العالم ونفى علم القديم بالجزئيات ، فإن هذه المسائل لا توجد في النسخة التي يتداولها الناس

وقد رجح جرجى زيدان في فهرس تاريخ الآداب العربية أن كتاب التبر المسبوك مدسوس على الغزالي ، وقد حاولت تحقيق ذلك ، فوجدت ما يقرب رأى جرجى زيدان وما يبعده . أما ما يقربه فهو إسقاط إسم من ترجمه من الفارسية . وظهور الكتاب بمظهر الضعف في كثير من الموضوعات ، وأما ما يبعده فهو تقارب مادته من مؤلفات الغزالي الأخلاقية ، وإحاطته على الإحياء في كلامه عن رذيلة الغضب ، إلا أن يكون من دسه عليه غشى فعلته تلك بهذه القرائن الصناعية ، التي توهم القارى أن لاوضع ولا اختلاق . ومما لامرية فيه أن مصنفات وضعت باسم الغزالي ، فأما عدد هاما فلا يزال مظنة الارتباب

ولا يفوتنا في ختام هذا الباب أن نذكر القارى بما لاحظناه فيما سلف من اختلاف آراء الغزالي في كتبه ، باختلاف سنه ، وصحته . فقد وضع مؤلفاته في ظروف مختلفة ، كان في بعضها يحكم العقل والشرع ، وكان في بعضها يسائر الصوفية في أوهامهم ووساوسهم . والرجل في الواقع معذور ، فقد كان يؤلف في أوقات لا تصلح مطلقاً للتأليف ، لأنه يشترط في المؤلف ما يشترط في القاضى من الصحة وهدوء البال

الباب الخامس

في

مباحث خمس الافضل

نبيّن في هذا الباب قيمة العمل في ذاته ، شر هو أم خير ،
حسن أم قبيح ، ضار أم نافع . ثم نتكلم عن الارادة ، وعن
الضمير ، وعن الأغراض والنتائج ، والوسائل والغايات . وسبيلنا
في هذا الباب أن نجمل الآراء الفلسفية إجمالاً لتبين بازاها آراء
الغزالي نوعاً من البيان

افضل الأول

الخبر والشر

العمل الذي يجب أن يُعمل ، أو يحسن أن يُعمل ، هو الخير
والعمل الذي يجب أن لا يُعمل ، أو ينبغي أن لا يعمل ، هو الشر .
فللخير درجات ، وللشر درجات

هذه لغة اليوم . أما الغزالي فكان تارة يسمي ما يجب أن
يعمل واجباً ، وما يحسن أن يعمل مستحباً ، وما يجب أن لا يعمل

حراما ، وما ينبغي أن لا يعمل مكروها ، وما عدا أولئك فهو مباح
وكان تارة أخرى يقسم الأفعال إلى : حرام ، وواجب ،
ومباح . أما الحرام فهو المقول فيه : أتركوه ولا تفعلوه . وأما
الواجب فهو المقول فيه : افعلوه ولا تتركوه . وأما المباح فهو
المقول فيه : إن شئتم فافعلوه ، وإن شئتم فأتروا

الحسن والقبح

وربما قسم العمل إلى : حسن ، وقبيح ، ومباح — وإليك
إجمال مافصله في كتابه المستقصى في الأصول :

هناك اصطلاحات ثلاثة مختلفة في إطلاق لفظ الحسن والقبح :
الأول — أن الأفعال تنقسم إلى ما يوافق غرض الفاعل ،
وإلى ما يخالفه ، فالموافق يسمى حسنا ، والمخالف يسمى قبيحا ،
والثالث يسمى عبثا

الثاني — الحسن ما حسنه الشرع بالثناء على فاعله . ويقول
الغزالي : ويكون المأمور به شرعا ، ندبا كان أو ايجابا ، حسنا ،
والمباح لا يكون حسنا

الثالث — الحسن ما لفاعله أن يفعله ، فيكون المباح حسنا
مع الأمور

والمقصود من هذه الاصطلاحات الثلاثة هو ما حسنه الشرع
أو قبّحه . وهنا يجزم الغزالي بأن العمل لا يكون حسناً لذاته ،
ولا قبيحاً لذاته ، فيخالف المعتزلة الذين يقولون بأن من الأعمال
ما يدرك حسنه بضرورة العقل ، كاتخاذ الفري والهللكي ، ومعرفة
حسن الصدق ، ومنها ما يدرك قبّحه بضرورة العقل : كالكفران
وإيلاء البريء ، والكذب الذي لا غرض فيه

ويحتج المعتزلة لذلك : بأننا نعلم قطعاً أن من استوى عنده
الصدق والكذب آثر الصدق ، ومال إليه ، إن كان عاقلاً ، وليس
ذلك إلا لحسنه . وأن القوى إذا رأى ضعيفاً مشرفاً على الهلاك
يميل إلى اتقاذه ، وإن كان لا يعتقد أصل الدين لينتظر ثواباً ، ولا
يوافق ذلك غرضه : فقد يتعب به . بل يحكم العقلاء بحسن الصبر
على السيف إذا أكره المرء على إفشاء السر أو نقض العهد
ويجب الغزالي : بأنه لا ينكر اشتها هذه القضايا بين الخلق
وكونها محمودة ، ولكنه يصر على أن مستندها : إما التدين
بالشرائع ، وإما الأغراض

مشاراة الغلط

ولكن الأغراض قد تدق ، فلا يتنبه لها إلا المحققون ،
من أجل ذلك نبه على مشاراة الغلط ، وهي ثلاثة :

الأول : ان الانسان يطلق اسم القبح على ما يخالف غرضه ،
وان كان يوافق غرض غيره . فان كل طبع مشغوف بنفسه ،
فيقضى بالقبح مطلقاً ، وربما يضيف القبح الى ذات الشيء ، فيكون
قد قضى بأمور ثلاثة ، هو مصيب في واحد منها ، وهو أصل
الاستقباح ، ومخطئ في أمرين : أحدهما إضافة القبح إلى ذاته ،
إذ غفل عن كونه قبيحاً لمخالفته غرضه ، والثاني حكمه بالقبح
مطلقاً ؛ ومنشؤه عدم الالتفات الى غيره ، بل عدم الالتفات
الى أحوال نفسه ، فانه قد يستحسن في بعض الأحوال عين
ما يستقبحه اذا اختلف الغرض

الثاني : ما هو مخالف للغرض في جميع الأحوال ، إلا في حالة
واحدة نادرة ، قد لا يلتفت إليها الوهم ، بل لا تخاطر بالبسال ،
فيراها مخالفاً في جميع الأحوال ، فيقضى بالقبح مطلقاً ، لاستيلاء
أحوال فبحة على قلبه ، وذهاب الحالة النادرة عن ذكره

الثالث : سبق الوهم الى العكس ، فان ما يرى مقروناً بالشيء ،
يظن أن الشيء أيضاً مقرون به مطلقاً لا محالة ، ومثاله نفرة من
نهشته الحية من الحبل المبرقش اللون ، لأنه وجد الاذى مقروناً
بهذه الصورة ، فتوهم أن هذه الصورة مقرونة بالاذى ، فان الوهم

عظيم الاستيلاء على النفس ، ولذلك ينفر طبع الانسان من المييت
في بيت فيه ميت ، مع قطعه بأن لا يتحرك ، ولكنه يتوهم
في كل ساعة حركته ونطقه

نقض شبهة المعتزلة

وبعد أن بين الغزالي هذه المثارات أخذ يناقش ما احتج به
المعتزلة ، وهو يرى أن الاتقاذ انما يرجع على الاهمال في حق من
لا يعتقد الشرائع ، لدفع الأذى الذي يلحق الانسان من رقة
الجنسية ، وهو طبع يستحيل الانفكاك عنه ، وسببه أن الانسان
يقدر نفسه في تلك البلية ، ويقدر غيره معرضاً عنه وعن إنقاذه ،
فيستقبله منه بمخالفة غرضه ، ويعود فيقدر ذلك الاستقبال من
المشرف على الهلاك في حق نفسه ، فيدفع عن نفسه ذلك القبح
المتوهم ، فان فرض في بهيمة أو في شخص لا رقة فيه ، فهو بعيد
تصوره . ويبقى أمر آخر : هو طلب الثناء على إحسانه . فان
فرض حيث لا يعلم أنه المنتقد ، فقد يتوقع أن يعلم ، فيكون ذلك
التوقع باعثاً . فان فرض في موضع يستحيل أن يعلم ، فقد يبقى
في النفس ميل يضاهي نفرة طبع المدوغ من الحبل المبرقش :
وذلك أنه رأى هذه الصورة مقرونة بالثناء فظن أن الثناء مقرون

بها على كل حال ، والمقرون باللذيد لذيد ، كما أن المقرون بالمكروه
مكروه

بل الانسان اذا جالس من عشقه في مكان . فانه يحس من
نفسه بتفرقة بين ذلك المكان وغيره ، اذا انتهى اليه . ولذلك قال
الشاعر :

أمر على الديار ديار ليلى * أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وماحب الديار شغفن قلبي * ولكن حب من سكن الديارا
وقال ابن الرومي :

وحبب أوطان الرجال اليهم * ما رب قضاها الشباب هنالك
اذاذكروا أوطانهم ذكرت لهم * عهود الصبا فيها فحنوا لذلك
وكذلك إخفاء السر ، وحفظ العهد . انما توأصى بهما الناس
لما فيهما من المصالح . فمن يحنل في سبيلهما الضرر ، فانما يحنله
لأجل الثناء ، فان فرض حيث لا ثناء ، فقد وجد مقرونا بالثناء .
فيميل الوهم الى المقرون باللذيد وان كان خاليا عنه

نحبر هذا البحث

هذه خلاصة ما يراه الفزالي في تأييد أهل السنة ، ونخطة
المتزلة . وتكون النتيجة على رأى أهل السنة أنه لاحسن ولا

قبح قبل ورود الشرع ، وأنه لا ثواب ولا عقاب قبل ورود الشرع
وهذا الرأي خطأ من وجهين :

الاول - مخالفته لجوهر الشريعة ، فان الشريعة انما جاءت
لهداية الناس ، ولا معنى للهداية غير إرشادهم الى ما حسن أو قبح
من الافعال ، ليفعلوا الحسن ، ويتجنبوا القبيح . ولو كانت الاعمال
خالصة في ذاتها من صفة الحسن والقبح ، لما كانت هناك حاجة
الى الشرائع ، ولكان خيراً للناس أن لا يحملوا أعباء التكليف

الثاني - استهاتته بالشخصية الانسانية ، فانه اذا صح أن
لا حكم للعقل قبل ورود الشرع ، فان معنى ذلك أن الشخصية
الانسانية لاتصاح لفهم حقائق الاشياء ، وما أدري كيف صلحت
بعد ذلك لحمل أمانة الدين الخفيف ؟

والواقع أن الأشاعرة يجنون على العقل حين يحكمون بأن
التحسين والتقبيح لا يكون الا بالشرع . فالزنا عند قبيح ، لاضرره
كما يحكم بذلك العقل ، بل لأن الشرع حكم بقبحه ، وعلى ذلك
لو حكم الشرع بحسن الزنا لكان حسناً ، ولوجد الأشاعرة من
أوجه المغالطة ما يثبتون به حسن ، ولهذا الرأي نتيجة من أسوأ
النتائج : وهي الركون الى ما وقع في الشرائع من الاغلاط ، فقد

يندر أن تجد شريعة لم تمتد إليها يد التحريف ، فإذا شئت أن تتحاكم
إلى العقل لتنتقى الشرائع من أوشاب المسخ والتشويه ، وقف
في وجهك الجهال باسم الدين ، وقالوا ما لنا وللعقل ؟ إنا وجدنا
آباءنا على أمة وإنا على آئنا هم مهتدون ! :

الضار والنافع

لا يفرق الغزالي بين كلمة شر وكلمة ضار ، كما يفعل علماء
الأخلاق ، فمن الواضح أني قد أعمل عملاً ضاراً ولكنه غير شر ،
إذا حسنت النية ، وخفي وجه الصواب

لكن العمل الضار شر مطلقاً عند الغزالي ، لأن القاعدة
عنده أن العمل ليس شراً إلا لأنه ضار ، وليس خيراً إلا لأنه نافع
نعرف هذا من قوله في ص ١٣٩ ج ٣ إحياء (إن الكذب ليس
حراماً لعينه ، بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره)
ونعرفه كذلك من تقسيمه الحرام إلى ما حرم لصفة في عينه ، وما
حرم لخلل في إثبات اليد عليه : فلا يحرم من المعادن إلا ما يضر
بالأكل ، ولا يحرم من النبات إلا ما يزيل العقل ، أو يضعف
الصحة ، أو يزيل الحياة ، ولا يحرم السم إذا خرج عن كونه مضرراً :
لقلته ، أو لعجنه بغيره . وحرمة المال المغصوب ظاهرة ، لأن
الغصب إيذاء للغير ، والإيذاء ضرر

وانما كان الضار شراً على كل حال ، لأن الحاكم بالخير أو
بالشر هو الشرع . وعلم الشرع فريضة على كل مسلم ، والجاهل
لا عذر له ، الا اذا كان حديث عهد بالاسلام ، وهو عذر ضيق
محدود ، لا يوجد الا في بعض الأحوال

العمل والاعتقاد

ولكن إذا غلب المرء على أمره ، فاعتقد أن الشر خير ، ثم
عمل بمقتضى اعتقاده ، فماذا عسى أن يكون في رأى الغزالي ؟
يظهر لمن تأمل مؤلفاته : أنه يفرق بين الخير في العمل ،
والخير في الاعتقاد . إذ يراه يقول في ص ٤٧ من الجزء الثالث
من الاحياء :

« اذا حكم قلب المفتى بإيجاب شئ ، وكان مخطئاً فيه ، صار مثاباً عليه .
بل من ظن أنه تطهر ، فعليه أن يصلى . فان صلى ثم تذكر أنه لم يتوضأ
كان له ثواب بفعله ، فان تذكر ثم تركه كان معاقباً عليه . ومن وجد
على فراشه امرأة فظن أنها زوجته ، لم يعص بوطئها وان كانت أجنبية
فان ظن أنها أجنبية ، ثم وطئها ، عصى بوطئها وان كانت زوجته »
ويراه يقول في ص ١١ من كتابه المنقذ من الضلال :

« والطبيعيون قوم أكثروا بحسبهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب
الحيوان والنبات . وأكثروا الخوض في علم تشریح أعضاء الحيوان
فراوا فيها من عجائب صنع الله وبدائع حكمته ما اضطر وامعه الى الاعتراف
بفاطر حكيم مطلع على غايات الأمور ومقاصدها . ولا يطالع التشریح

ومنافع الأعضاء مطالع إلا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير
البناني لبنية الحيوان ، ولا سيما الانسان . إلا أن هؤلاء لكثرة بحمهم
عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم في قوى الحيوان ،
فظنوا أن القوة العاقلة من الانسان تابعة لمزاجه أيضاً ، وأنها تبطل
ببطلان مزاجه ، فتنعدم . ثم إذا انعدمت فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا
فذهبوا الى أن النفس تموت ولا تعود ، فجحذوا الآخرة . وهؤلاء
أيضاً زنادقة . لأن أصل الايمان هو الايمان بالله وبالرسول واليوم
الآخر وهؤلاء جحذوا اليوم الآخر وان آمنوا بالله وبصفاته »

وتهاقت الغزالي في هذا الحكم واضح . فقد قرر أن من
يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء يحصل له العلم الضروري
بكمال تدبير البناني لبنية الحيوان والانسان ، فهو إذن أقوى ايماناً
وأرسخ عقيدة ممن لم يطالع التشريح . ولكن الباحث في منافع
الأعضاء مضطر الى أن يؤمن بأثر المزاج فيما يعتور النفس من
قوة وضعف ، وهو بالتالي مضطر الى الايمان بأن النفس تموت .
وإذن فهو زنديق فيما يرى الغزالي ؛ وكيف ذلك والغزالي يرى
أن من وجد على فراشه امرأة فظن انها زوجته ، لم يعص بوطئها
وان كانت أجنبية ؛؟

لقد صرح الغزالي في عدة مواطن من كتبه ، بأن من محمل
على شرب الخمر لا يحد ؛ وصرح في ميزان العمل بأن الأمزجة
تُشكّل الأخلاق ؛ فهو يرى الاختيار شرطاً للمواخذة ، كما

أوضح ذلك حين تكلم عن حديث النفس في الجزء الثالث من الاحياء ، فكيف يحكم بكفر الرجل العالم الذي أقنعه العلم مثلاً بأن النفس تموت ؟ أيرى الغزالي أن من المحرم شرعاً أن يدرس التشريح ؟ وإذا كانت الشريعة تدعو الى تحكيم العقل كما نطق بذلك القرآن ، أفليس معنى ذلك انه ليس للشريعة أن تضع بنفسها نتيجة ذلك التحكيم ، والا كان ايماناً بقوة الحديد ؟

الحق أن الغزالي مال كثيراً الى ترضية العامة حين بحث صحة الايمان ، حتى رأيناه يذكر أن المرء قد يتكلم بما هو كافر ، وهو لا يدري !

وما أغرب قوله في كتابه المتقدم من الضلال « ثم رد ارسططاليس على افلاطون وسقراط ومن كان قبلهم من الالهيين ، رداً لم يقصر فيه حتى تبرأ من جميعهم ، إلا أنه استقى أيضاً من ردائل كفرهم بقايا لم يوفق للنزوع منها . فوجب تكفيره ، وتكفير متبعيه ، من متفلسفة الاسلاميين : كابن سينا والفارابي ، وأمثالهم »

والغزالي الذي أسرف هذا الاسراف في الحكم على الايمان وفق كل التوفيق حين دعا الى حسن الظن بالناس . وانظر مقاله في تحريم الغيبة بالقلب « ليس لك أن تعتقد في غيرك سوءاً إلا اذا انكشف لك ببيان لا يقبل التأويل . . . حتى ان من استنكك فوجد منه رائحة الحجر ، لا يجوز أن يحد ، إذ يقال يمكن أن يكون قد تغمض بها وجهها وما شربها ، أو حمل على الشرب قهراً . فكل ذلك لا محالة دلالة

محملة ، فلا يجوز تصديقها بالقلب ، وإساءة الظن بالمسلم بها »
وعندي أن الرجل لا يكفر الا اذا عرف الحق وعاند، فأى
فيلسوف رأى رأياً شاذاً عن حسن قصد فهو ناج ولو كان رأيه
يخالف الدين مخالفة صريحة . فكان من الحق على الغزالي أن يقيم
الأدلة على ما عند ابن سينا والفارابي من العناد ، وسنعود الى
تفصيل هذا الرأى فى غير هذا الباب

مقياس الخبر والشر

ومع أن الغزالي قرر أن لا دخل للعقل فى حسن العمل
وقبحه ، وإنما الامر فى ذلك للشرع ، فقد رأيناه يقيس العمل
بمقياس العقل والشرع معاً ، حين يريد أن يحكم : أخير هو أم
شر . فالعمل خير اذا وافق العقل والشرع ، وشر اذا خالف العقل
والشرع

ولم يفرد الغزالي باباً لهذا البحث ، ولكنه نوه بمدلوله
فى مواطن كثيرة ، فقد جاء فى ص ٨١ من ميزان العمل فى تعريف
السخاء ما نصه : « هو أن يتيسر عليك بذل ما يقتضى الشرع والعقل بذله عن
طوع ورغبة ، ويتيسر عليك إمساك ما يقتضى الشرع والعقل إمساكه عن
طوع ورغبة » وجاء فى ص ١٣٦ من هذا الكتاب ما نصه :
« وعماد عفة الجوارح كلها أن لا يطلقها فى شىء مما يختص بها الا فيما

يسوغه العقل والشرع وعلى الحد الذي يسوغه ، وقال في ص ٥٧ من الجزء الثالث من الاحياء « وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع » وقال في وصف العمل الصالح « وذلك بأن يكون موزوناً بميزان العقل والشرع » ص ٢٢ ج ٣ إحياء

اغفال الغزالي لهذا المقباس

هكذا يقاس الخير والشر بمقاييس العقل والشرع فيما يرى الغزالي . ولكن ماهو الشرع ؟ وما هو العقل ؟
إن الغزالي نفسه وضع في الأخلاق أحكاماً لانظمتها تستند على عقل أو دين ؛ ولنضرب مثلاً بها وضعه لنظام الطعام . جاء في الميزان ص ١٨٤ مانصه « وأما المطعم فهو الأصل العظيم . إذ المعدة مفتاح الخيرات والشور - ولهذا أيضاً ثلاثة مراتب : أدناها قدر الضرورة وهو ما يسد الرمق ويبقى معه البدن ، وقوة العبادة . وذلك يمكن تقليله بالعادة ، نارة بتقليل الطعام شيئاً فشيئاً حتى يتعود الصبر عنه عشرة أيام وعشرين . وقد انتهى الزهاد في القدر كل يوم الى حمصة وبعضهم في الوقت الى عشرين يوماً وقيل أربعين . وهذه رتبة عظيمة يقل من يستقل بها » وقد أطال القول في فضائل الجوع في الربع الثالث من الاحياء حتى قال « روى أن عيسى عليه السلام مكث يناجي ربه ستين صباحاً لم يأكل نخطر بباله الخبز فانقطع عن المناجاة ، فاذا رغب موضوع بين يديه ، جلس يبكي على فقد المناجاة ، واذا شيخ قد أظله ، فقال له عيسى : بارك الله فيك يا ولي الله ، ادع الله تعالى لي . فاني كنت

في حالة نخطر بيالى الخبز فانقطعت عنى ! فقال الشيخ : اللهم إن كنت تعلم أن الخبز خطر بيالى منذ عرفتك فلا تغفر لى ! بل كان إذا خطر لى شئاً أكلته من غير فكر ولا خاطر ! »

وقال أيضاً « الفائدة السابعة من فوائد الجوع - تيسير المواظبة على العبادة . فان الأكل يمنع من كثرة العبادات لأنه يحتاج الى زمان يشتغل فيه بالأكل ، وربما يحتاج الى زمان فى شراء الطعام وطبخه ، ثم يحتاج الى غسل البدن والخلال ، ثم يكثرتاداه الى بيت الماء لكثرة شربه ، والأوقات المصروفة الى هذا لو صرفها الى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثرتربحه »

ففى الكلمة الأولى نراه يدعو الى تقليل كمية الطعام حتى تصل الى حمصة ، وتطويل المدة حتى تصل الى عشرين يوماً أو أربعين ، ثم يعد هذه الرياضة رتبة عظيمة . فياليت شعرى ، أيرضى بذلك العقل ، وهو لايرضى بأقل من أن يكون المرء حياً فيه فضائل الحياة من قوة ونشاط ؛ أم يرضى بذلك الشرع ، وهو لايرضى بأقل من أن يكون الرجل جندياً يضرب فى الارض ، ويجرس الثغور ، ويرهب القوم الكافرين ؟

وفى الكلمة الثانية ، يصف عيسى بما لاينبغى أن يوصف به الأنبياء ، وإلا فكيف ينبغى لنبي أن يناجى ربه ستين صباحاً بلا طعام ، وهو مسئول عن الدعوة الى دينه ، وقلما ينجح فى الدعوة ضعيف ؟ هذه جرأة فى وصف الأنبياء والمرسلين ،

فما أحسبهم إلا رجالاً أشداء تمت لهم صفات الفتوة والرجولة ،
أما هذه الرهينة التي تصورها الغزالي فلا تنتج غير الضعف
والخمول ، وما كان الأنبياء كسالى ولا واهنين

وفي الحكمة الثالثة ، يستكثر على المرید أن يضع وقتاً في شراء
الطعام وطبخه ، ثم غسل يده ، وتخليل أسنانه ، وما أدرى كيف
يصير الناس ، إذا قاسوا الخير والشر بهذا المقياس :

الواقع أن الغزالي وضع مؤلفاته في الأخلاق مشربة بنزعة
صوفية ، بل صرح بأن مداراً أكثر كتابه الميزان على مذهب
التصوف . والتصوف ليس مذهب الأحياء ، ولكنه مذهب
الأموات . وما ظنك بمذهب يجيز للغزالي أن يصور
للنظر للمستقبل بهذه الصورة المنكرة حين يقول « وأرفع
الدرجات درجة من يلتفت إلى غيره ، ويقصر همته على يومه ، ويومه
على ساعته ، وساعته على نفسه ، وقد رتقته كل لحظة مرتحلاً من الدنيا
أو مستعداً للارتحال »

وما أظن أمة تفهم الأخلاق بهذا الفهم ، ثم تقدر على
الجلاد في عالم الأحياء . ولم يبعد من وصف الأخلاق في رأى
الغزالي بأنها أخلاق العبيد :

الفصل الثاني

الارادة



وردت كلمة الارادة في كتب الغزالي لأغراض متعددة :
فتارة يريد بها السلوك في طريق الله ، ومنها المرید الذي يرد كثيراً
في كلامه ، ويريد به السالك في ذلك الطريق ، طريق الصوفية
وللارادة بهذا المعنى شرط يتقدمها : وهو رفع السد الذي
بين المرید وبين الحق ، وهذا السد فيما يرى الغزالي أربعة أشياء :
المال ، والجاه ، والمعصية ، والتقليد
ويُرفع حجاب المال بخروج المرید عن ملكه ، حتى لا يبق
له إلا قدر الضرورة . ويُرفع حجاب الجاه بالبعد عن مواطنه مع
إيثار الخمول . ويُرفع حجاب التقليد بترك التعصب للمذاهب .
أما المعصية فلا يرفعها إلا التوبة ، والندم ، والعزم على عدم العود
وإخراج من المظالم

والتجرد من هذه الحجب هو فيما يرى الغزالي كالتطهر
للصلاة ، ولا بد للمصلي من إمام . فكذلك لا بد للمرید من أستاذ

وقد وضع عدة آداب للمريد مع أستاذه ، وليس ذلك مما يعنيننا الآن . ويكفي أن يعرف القارئ ما يقصد من كلمة مريد التي يكثر دورانها في الميزان والمنهاج والإحياء

٢

وتارة يذكر الإرادة ويريد بها ما ينبعث عن المعرفة ويسخر القدرة . والإرادة بهذا المعنى هي المقصودة عند علماء الأخلاق . ولها عند الغزالي أسماء مختلفة : فراه حيناً يسميها القوة العاملة إذ يقسم قوى النفس الانسانية إلى قوة عالمة ، وقوة عاملة ، ويذكر أن الثانية « هي قوة ومعنى للنفس هو مبدأ حركة بدن الانسان الى الأفعال المعينة الجزئية المختصة بالفكر والروية على ما تقتضيه القوة العاملة النظرية » الميزان ص ٢٦

وزاه حيناً آخر يسميها النية . ويعنونها كذلك في الأربعين والاحياء . فلو أنك نظرت في الفهرست لتعرف في أى موضع تكلم عن الإرادة ، ثم نظرت في الفصل الذى شرحها فيه ، لما رأيتها الإرادة التي يتكلم عنها الأخلاقيون ، وإنما رأيتها الإرادة التي عنها الصوفية ، واشتقوا منها كلمة مريد . فاما الإرادة التي هي من موضوعات الأخلاق ، فاسمها عند الغزالي النية ، وله في شرحها كلام طويل

٣

يقول الغزالي « إن النية والإرادة والقصد ، عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب ، ويكتنفها أمران : علم وعمل . والعلم يتقدم لأنه أصل وشرط . والعمل يتبع لأنه ثمرة وفرع . وذلك لأن كل عمل ، أعنى كل حركة وسكون اختياري . لا يتم إلا بثلاثة أمور : علم ، وإرادة ، وقدرة . لأنه لا يريد الانسان مالا يعلمه ، فلا بد وأن يعلم ، ولا يعمل ما لم يرد فلا بد من ارادة . ومعنى الارادة انبعث القلب الى ما يراه موافقا للغرض ، إما في الحال ، وإما في المآل » ص ٣٨١ ج ٤ إحياء

ويقول (النية هي الإرادة الباعثة للقدرة ، المنبعثة عن المعرفة . وبيانه أن جميع أعمالك لا تصح الا بقدرة وارادة وعلم ، والعلم بهيج الإرادة . والإرادة باعثة للقدرة . والقدرة خادمة الارادة) ص ٢٦٢ من الأربعين

وواضح أن الارادة كما يراها الغزالي لا تختلف عما نراه الآن فانك لا تجد فرقا بين كلامه هذا وبين قول چول سيمون (والواقع اننا لأجل أن نعمل يجب أن نريد ، ولأجل أن نريد يجب أن نعرف ماذا نريد ، ولماذا نريده) الواجب ص ١٩

٤

ويقرر الغزالي فوق ما تقدم انه لا يكفي أن يعلم الانسان صواب العمل ليريده وينفذه ، بل لابد من أن يقوى في نفسه

كون الشيء موافق له ، فاذا جازمت المعرفة بان الشيء موافق
ولا بد أن يفعل ، وسامت عن معارضة باعث آخر صارف عنه ،
انبعثت الارادة ، ونهضت القدرة لتنفيذ المراد
ويقرر كذلك أن نهوض القدرة للعمل قد يكون بباعث
واحد ، وقد يكون بباعثين اجتماعاً في فعل واحد . واذا كان
بباعتين فقد يكون كل واحد من القوة بحيث لو انفرد لكان
كافياً لإنهاض القدرة ، وقد يكون كل واحد قاصراً عنه إلا
بالاجتماع ، وقد يكون أحدهما كافياً لولا الآخر ، ولكن قام
الآخر بمعاونته . فالباعث الثاني اما شريك أو رفيق أو معين .
ولهذا التقسيم مزية في تقدير ما في العمل من خير أو شر ، بتقدير
البواعث ؛ فان العمل تابع للباعث عليه ، فيكتسب الحكم منه ،
إن خيراً خيراً ، وإن شراً شراً . بل ربما كانت النيات أقوى في
التقدير من الأعمال ، ومن هنا كانت نية المرء خيراً من عمله ،
كما جاء في الحديث الشريف ، وكما ذكر الغزالي من أن أعمال
الجوارح ليست مرادة إلا لتأثيرها في القلب ، ليميل الى الخير ،
وينفر من الشر^(١)

تربية الارادة

تُرَبَّى الارادة فيما يرى الغزالي بتكرار طاعة الميل المحمود
وتكرار مجاهدة الميل المذموم . وفي ذلك يقول : «واذا حصل أصل
الميل بالمعرفة فانما يقوي بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه . فان المواظبة
على مقتضى صفات القلب تجرى مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفات
فالمائل الى طلب العلم أو طلب الرياسة ، لا يكون ميله في الابتداء إلا
ضعيفاً . فان اتبع مقتضى الميل ، واشتغل بالعلم ، وتربية الرياسة ،
والاعمال المطلوبة لذلك ، تأكد ميله ورسخ ، وعسر عليه النزوع .
وان خالف مقتضى ميله ، ضعف ميله ، وانكسر ، وربما زال . بل الذي
ينظر الى وجه حسن مثلاً فيميل اليه طبعه ميلاً ضعيفاً ، لو تبعه وعمل
بمقتضاه فداوم على النظر ، والمجالسة ، والمخالطة ، والمخاطرة ، تأكد
ميله حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه . ولو فطم
نفسه ابتداء ، وخالف مقتضى ميله ، لكان ذلك كقطع القوت والغذاء
عن صفة الميل ، ويكون ذلك دفعاً في وجهه حتى يضعف . . . لان بين
الجوارح والقلب علاقة ، حتى انه ليتأثر كل واحد منهما بالآخر . إلا
أن القلب هو الأصل المتبوع ، فكانه الأمير والراعى . والجوارح
كالخدم والرعايا والاتباع»

والغزالي لا يرى للعمل قيمة بغير النية ، وان شئت الارادة .
واذ كانت النية هي التي تقوم العمل ، فمن الخير أن تكون قوية ،
لأنه كما تكون الرغبة في عمل طيب ، أو النفرة من عمل خبيث ،
يكون جزاء العامل : فيكثر أجره إن قوى حبه للخير ، وبغضه

للشر ، ويقل فيما عدا ذلك . وقد نص في عدة مواطن من كتبه بان المعول على القلوب ، حتى لنجده يذكر أن الصغيرة تنقلب كبيرة بالاصرار والمواظبة ، أو بالاستهانة بما لها من الخطر . وأن الكبيرة اذا وقعت بغتة ، ولم يتفكق اليها عود ، واستعظمها المرء ، كانت مرجوة العفو ، وفي ذلك يقول :

« فان الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله ، وكلما استصغره كبر عند الله ، لأن استعظامه يصدر عن تقور القلب منه ، وكراهيته له ، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به . واستصغاره يصدر عن الإيلاف له ، وذلك يوجب شدة الأثر في القلب ، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمخذور تسويده بالسيئات » ص ٣٣ ج ٣

أهمية الإرادة

الإرادة شرط للمسئولية ، وشرط للجزاء . فالذي يعمل وهو ناسٍ أو غافل لا يجازى ولا يؤخذ . وإنما كان الأمر كذلك فيما يرى الغزالي : لأن القلب لا يتأثر بما يجري في الغفلة ، والقلب عند الغزالي هو كل شيء ، فليست الحسنة حسنة إلا لأنها تصاحبه ، أو تزيد في صلاحه ، وليست السيئة سيئة إلا لأنها تفسده ، أو تزيد في فساده . والجريمة الهائلة اذا اقترفها المرء وهو مضطرب متردد ، لا خطر لها عنده ، لان القلب لا يتأثر بما يفعل المرء وهو

كاره ، والهفوة التافهة عظيمة الخطر إذا أتاه المرء وهو راضٍ مسرور ، لأنه بقدر ما تحلوا السيئة يعظم أثرها في تسويد القلب وإفساده . والذنب الواحد يختلف قيمته حين يأتيه رجلان : أحدهما عارف به ، وثانيهما جاهل له ، فهو بالنسبة للأول كبيرة ، وبالنسبة للثاني صغيرة ، لأن الإرادة تختلف قوةً وضعفًا باختلاف درجة العلم ، إذ كانت ثمرة له

ويقول الغزالي بعد كلام طويل « فهكذا يجب أن تفهم تأثير الطاعات كلها ، إذ المطلوب منها تغيير القلوب ، وتبديل صفاتها فقط ، دون الجوارح ، فلا تظنن في وضع الجبهة على الأرض غرضاً من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض ، بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب . ومن وجد في قلبه رقة على يتيم ، فانه إذا مسح رأسه وقبله تأكدت الرقة في قلبه » ص ٢٨٤ ج ٤

الجبر والاختيار

وقد اختلف العلماء ، ولا يزالون مختلفين ، في حرية الإرادة فمنهم من يقول انها مجبورة ، ومنهم من يقول انها مختارة ، ومنهم من يحكم بأنها دائرة بين الجبر والاختيار وأنا أرجح الرأي الأخير ، لأن الواقع أن هناك مؤثرات تحمل الإرادة على الاتجاه إلى جهة معينة ، كالوراثة ، والصحة ، والبيئة ، والظروف الخاصة . والإرادة فيما عدا ذلك حرة مختارة

فالذي ورث عن أبيه أو أمه خلقاً من الأخلاق ، يسير مضطراً إلى ماوافق ذلك الخلق . والذي يحمله ضعف صحته على اللدد في الخسومة لا يستطيع اجتناب هذه الخصلة . والذي تقضى عليه البيئة التي يعيش فيها باحترام زى خاص ، يشعر بالاضطرار إلى التزيى بهذا الزى . فأنا أستطيع نزع العمامة لألبس الطربوش ، ولكنى لا أستطيع لبس القبعة ، لأنى مقهور على مسابرة الوسط الذي أعيش فيه ، وإن زعمت ثم زعمت أنى مختار . والذي يقهره ظرف من الظروف على إتيان جريمة من الجرائم غير مختار . وسيرقى القضاء يوماً فيحال الظروف التي وقعت فيها الجريمة ليتبين صحة المسئولية . فكثيراً ما يعاقب المجرم وهو غير مسئول

فاذا انتفت موانع الاختيار ، فالارادة حرة في الإقبال على الفعل ، أو الانصراف عنه . وفي هذه الحالة تصبح للخير قيمته ، وللشر قيمته ، ويصير الخيرُ جديراً بالثوبة لأنه أحسن وهو مختار ، والشرير خليقاً بالعقوبة لأنه أساء وهو مختار . أما المضطر الى فعل الخير أو الشر لسبب من الأسباب فهو فيما أرى غير أهل للشواب والعقاب

والغزالي لايقول بحرية الارادة حرة مطلقة ، ولا بعجزها المعجز المطلق . ويقول « بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعاً .

وخلق الاختيار والمختار جميعاً ، فأما القدرة فوصف للعبد وخلق للرب ،
وأما الحركة فخلق للرب ، ووصف للعبد وكسب له ، فانها خلقت مقدورة
بقدرته هي كسب وصفة . وكانت الحركة نسبة إلى صفة أخرى تسمى قدرة
فتسمى باعتبار تلك النسبة كسباً . وكيف تكون جبراً محضاً وهو بالضرورة
يدرك التفرقة بين الحركة المقدورة والرعدة الضرورية؟ أو كيف يكون
خلقاً للعبد وهو لا يحيط علماً بتفاصيل أجزاء الحركات المكتسبة
وأعدادها؟ وإذا بطل الطرفان لم يبق إلا الاقتصاد في الاعتقاد ، وهو أنها
مقدورة بقدره الله تعالى اختراعاً ، وبقدره العبد على وجه آخر من
التعلق يعبر عنه بالاكتساب (ص ١٢٠ ج ١ إحياء

والواقع أن رأى الغزالي هذا لا يفصح عن قيمة ما في أعمال
المرء من الاختيار ، فهي في رأيه ليست جبراً لأنها تفتقر عن
الرعدة ، وهي ليست اختياراً لأن المرء لا يحيط بتفاصيل ما للحركاته
من الأجزاء . مع أن الاختيار لا يتوقف إثباته على معرفة
الأجزاء والإعداد ، لأن العمل الاختياري قد تكون له لوازم
ضرورية ، لا يتنبه لها المرء ، ولا تكون غفلته عنها قاذحة في
اختياره

ويقرر الغزالي مع هذا (أن فعل العبد وإن كان كسباً ، لا يخرج
عن كونه مراداً لله سبحانه ، فلا يجري في الملك والمللكوت طرفة عين ،
ولا لفتة خاطر ، ولا لفتة ناظر ، إلا بقضاء الله وقدرته ، وبارادته ومشيتته ،
ومنه الشر والخير ، والنفع والضرر ، والاسلام والكفر ، والعرف والتكر ،

والفوز والخسر، والغواية والرشد، والطاعة والعصيان، والشرك
والإيمان) ص ١٢٠ ج ١

وأنا لأفهم ما هو هذا الكسب الذي يُقره أهل السنة،
ويتابعهم الغزالي في إقراره. فهم لا يقولون بأن العبد مضطر،
والا كانوا جبرية، والجبرية في رأيهم خاطئون. ولا يقولون بأنه
مختار، والا كانوا معتزلة، وهم قد سلقوا المعتزلة بالسنة حداد.
فلم يبق إلا ان العبد لاهو حر ولا هو مختار، وانما هو مكتسب:
وهذا الكسب أيضاً مراد الله. إذن فما الذي بقي للعبد المسكين:
الحق أن هذه وسوسة أوقعهم فيها الخلاف!

وأساس هذه الوسوسة أنهم يحسبون حرية الإرادة خروجاً
على الله في ملكوته، والغزالي يضرب المثل بزعم الضيعة يستنكف
أن يكون لأحد العمال رأى معه، وما كان أغناه عن ضرب هذه
الأمثال!

إن حرية الإرادة الانسانية لا تضر الله شيئاً، فال بال أهل
السنة يابون إلا أن تكون طرفة العين، وهي حركة طبيعية،
أرأى لإرادة الله؟

ولا قيمة لما يجيب به المعتسفون من أن اختراع الله للقدرة
كافٍ في إقرار الكسب للمرء، فانه لا خلاف في أن الله واهب

القُدْرَ ، ولكن ليس معنى ذلك أنه يسيرها أنى شاء ، ومتى شاء ،
والا كان التكليف ضربا من العبث ، ولو كره المتكلفون . فلم يبق
الا أن الارادة حرة ، وذلك هو ما وضع الله من قانون ، فلا
يبتسوا بما تقول !

على ان العهد قريب بما قال الغزالي في تربية الارادة ، فاذا
كان ما أريده هو ما يريد الله ، فأى الأرادتين تربى ؟ إن هذا إلا
تناقض

ونعود فنذكر انه قرر في مكان آخر من الإحياء (أن النية
غير داخلة تحت الاختيار) وقد عرفت انه يريد بالنية الارادة ،
وأن رأيه وسط بين الجبر والاختيار ، أفلا يكون متناقضاً في
حكمه : نارة بان النية حرة ، ونارة بانها مجبورة ؟

الحقيقة أن الارادة التي يقرر الغزالي أنها غير مختارة ليست
هي الارادة بمعنى القصد ، وإنما ذلك ما يسمى ارادة صادقة ، وهي
التي يعقبها التنفيذ . فن الجائز أن أقصد الى أى عمل في أى وقت ،
ولكن ليس في مقدورى أن أرغب رغبة صادقة في كل ما يعنى
لى من الأعمال ، في جميع الأحيان . وفي ذلك يقول الغزالي
« فقد تيسر في بعض الأوقات ، وقد تتعذر في بعضها . نعم من كان
الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه في أكثر الأحوال إحضار النية
للخيرات ، فان قلبه مائل بالجملة الى أصل الخير فينبعث الى التفاصيل

غالبا ، ومن مال قلبه الى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك . بل لا يتيسر له في الفرائض الا بمجهود جهيد ، وغايته أن يتذكر عذاب النار أو نعيم الجنة ، فرمما تنبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونبته «
وخلاصة رأى الغزالي أن المرء حرق في الاقبال على ماشاء من الأعمال ، وان كان في اقباله انما ينفذ ارادة الله ، ولكنه ليس صادق النية في كل حين ، وانما تصدق النية بالترغيب في الجنة والتخويف من النار

ولا يفوتنا أن ننبه على ما دعا اليه في تربية الخلق من مخالطة الأختيار، فان في ذلك اعترافا ضمنيا بتأثير الوسط في الارادة الانسانية ، وتقله إياها من حال إلى حال . وهذا نوع من الجبر ، ولكنه جبر معقول

الفصل الثالث

الضمير

هو صوت ينبعث من أعماق الصدور ، أمراً بالخير ، أو ناهياً عن الشر ، وان لم ترج مثوبه ، أو تخش عقوبة
والغزالي كما رأيت لا يرى شيئاً حسناً لذاته ، أو قبيحاً لذاته ، فالشرع هو المكيف للأعمال حسناً وقبيحاً ، فلا مجال بالطبع لأن

يفرد باباً للضمير ، إذ كان التكليف إنما ينزل من السماء . والضمائر التي ترد في كلامه إنما يريد بها مكنونات الصدور ، وهي والسرائر من باب واحد . والانسان فيما يرى ليس مسئولاً عن مراقبة ضميره ، إذ هو لا يعرف الضمير . وإنما يسأل عن مراقبة ربه ، وخشيته ، في السر والعلانية . فليس هناك جارحة باطنية تدرك الخير والشر ، وان لم تتعرض لهما الشرائع ، وإنما هناك رب يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور ، والمرء عن خشيته مسئول غير أنه لا يصح لنا أن ننسى أن هناك أسباباً لنشوء الضمير ، فالفلسفة توجد لدارسها نوعاً من الشعور بالمسئولية ازاء بعض الجوانب ، والأخلاق توجد للباحث فيها نوعاً من إدراك الواجب ، والشرعية كذلك تورث المتدين بها نوعاً من الوجدان ولا نبعد عن الصواب إذا قررنا أن الغزالي يؤمن بالنوع الأخير من الضمير ، وإن لم ينوه به ، ولم يختصه بالبيان . واليك قوله في ص ١٥ ج ١ من الاحياء (ومنها أن يكون اعتماده في علومه على بصيرته ، وإدراكه بصفاء قلبه ، لاعلى الصحف والكتب ولا على تقليد ما يسمعه من غيره) وقد ردّ في كتبه هذا الحديث (الأثم ما حاك في صدرك ، وإن أفنوك وأفتوك) وليس ذلك إلا إشادة بهذه الحاسة الباطنية التي يفرغ المرء اليها عندما يلتبس

عليه وجه الصواب . إلا أنه يجب أن نعرف أن نص الشريعة
من كتاب أو سنة هو عنده فوق الفتوى وفوق الضمير .

والحق أن الضمير لا وجود له في ذاته ، حتى تؤاخذ الغزالي
بإغفاله ، وإنما ينشأ من الشرائع الوضعية ، والسماوية . حتى إنك
لتجد لكل شعب ضمائر تخصه بالذات ، حسبما توحى التقاليد .
فمثلا جريمة السرقة كانت فضيلة عند بعض الشعوب ، وكان من
تنقصه فيها المهارة عرضة لاحتقار الرأي العام ، ولذع الضمير !!
ونهب مال الغريب لا حرج فيه عند فريق من القبائل البربرية ،
فن الواضح أنهم لا يقاسون عندهم تأنيب الضمير . بل الشخص
الواحد يختلف ضميره باختلاف سنه ، فيكون ضميره في سن
العشرين ، أضعف أو أقوى منه في سن الثلاثين ، حسبما توجب
الظروف . ومن هنا صح لشاعر أن يقول :

يقولون هل بعد الثلاثين ملعب * فقلت وهل قبل الثلاثين ملعب؟
كما صح لغيره أن يقول :

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه * فلما علاه قال للباطل ابعدي
وعندي أن فكرة الضمير إذا صح أن تكون عامة ، فيجب
أن تقصر على المنافع البشرية . على معنى أن الضمير هو الحاسة
التي تتألم لما يتوجع له الإنسان من حيث هو إنسان ، بغض النظر

عن دينه ، ووطنه ، ومذهبه . فان للانسانية وشائج لا ينال منها
اختلاف المذاهب ، ولا تبين اللغات ، ولا تباعد الأقطار

الفصل الرابع

الأغراض والنتائج

هل يكون العمل خيراً باعتبار نتيجته ، أو باعتبار المقصود
منه ؟ وبعبارة أوضح : هل يكون خيراً لأنى أردت به الخير ،
أو لأنه أنتج الخير ، وإن لم أرد ذلك ؟

ويظهر أنه لاستخلاص رأى الغزالي فى الجواب على هذا
السؤال ، ينبغى أن نسايره فى الأعمال المختلفة ، لنعرف رأيه فى كل
نوع منها على انفراد

وقد رأيناه يقسم أعمال الإنسان إلى طاعات ومعاصى
ومباحات . أما الطاعات فلا تكون خيراً إلا بالنية ، وهى الغرض
فى التعبير الحديث . ويقول فى ذلك (إن العمل تابع للباعث عليه
فيكتسب الحكم منه . ولذلك قيل : إنما الأعمال بالنيات . لأنها
تابعة لاحكم لها فى نفسها وإنما الحكم للمتبوع) وهو يستنتج بناءً
على هذا الأساس أنه لاقيمة للصوم إذا أراد الصائم الانتفاع
بالحجية ، ولا للعتق إذا أراد السيد أن يتخلص من مؤنة عبده ،

ولا للحج إذا أراد المرء أن يصح مزاجه بالحركة والانتقال ، ولا للغزو إذا أحب الشخص أن يتعلم أسباب الحروب : لأن النية لا تصح عند الغزالي إلا إذا خلصت من الشوائب ، وتقرَّب العبد بها إلى الله . ولا مانع عنده من وجود باعث آخر ، ويسميه الباعث النفسى ، على شرط أن يكون أضعف من الباعث الأسمى . فإن كان مساوياً له ، صار العمل لاله ولا عليه ، كما يقول . وإن كان أقوى منه فهو مضر ومفرض للعقاب

والغزالي ينصح بالتدبر قبل الشروع فى الطاعة ليعرف المرء أى الباعثين أقوى : باعث النفس أو باعث القربة ، وأى النصيبين أوفى : نصيب الله أم نصيب الشيطان . ولكنه يقول : « ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه ، إذ المقصود أن لا يفوت الاخلاص . ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والاخلاص جميعاً »

ويلاحظ أن فى هذا تناقضاً مع حكمه على العمل الذى غلب فيه الباعث النفسى بأنه مضر ومفرض للعقاب ، والعمل الذى يضمر ويفضى للعقاب ، لا يكون تركه منتهى بغية الشيطان ، فكان على الغزالي أن يفرق بين العمل فى ذاته وبين غرض العامل منه ، لأن العمل الطيب غير ضار فى ذاته ، وإن ساء الغرض منه .

والمفروض أننا نتكلم عن أعمال هي في نظر الشرع طاعات ، وهي في ذاتها خير ونافعة ، فكيف تنقلب بسبب النية ضارة ؟ ولم يفرق الغزالي بين الأعمال الاجتماعية والأعمال الفردية فمن الواضح أن بعض الأعمال يرجع إلى فائدة المرء وحده كالعبادات وبعضها يرجع نفعه إلى جمهور الناس . وما أحسب الغزالي ينهى عن الأعمال الاجتماعية ، مهتاساً المقصد ، إذ لا أقل من أن تكون تمريناً للنفس على عمل الخير . وقد صرح في غير موطن بأن التخلق مفض إلى الخلق . ومتى كان العمل نافعاً للناس ، فالدعوة إليه واجبة ؛ والعامل حُر في الاستفادة من حسن نيته إن شاء . وأما المعاصي فهي شر على كل حال . والغزالي هنا يقدر النتائج ، فمن عمل شراً عن جهل فهو آثم ، ولا عذر له من جهله لأن الجاهل غير معذور إلا إذا كان قريب عهد بالاسلام ، وهذا عذر محدود . وقد علمت أنه يرى أن المعصية شر لأنها ضارة ورأيت كذلك أن فاعل المعصية آثم وإن لم يعلم وجه إثمه ، فتحتم أن تكون العبرة هنا بالنتائج لا الأغراض ، بخلاف الطاعات فقد تنقلب معاصي صرفة إذا خبيثت النية ، كمن يتعلم العلم ليستميل الناس

الفصل الخامس

الوسائل والغايات

إذا كانت الغاية شريفة ، فلا يجب فيما يرى الغزالي أن تكون الوسيلة دائماً شريفة ، فالغاية عنده قد تبرر الوسيلة . وقد أوضح هذا حين تكلم عن المواطن التي يجوز فيها الكذب فقال :

« الكلام وسيلة الى المقاصد ، فكل مقصود محمود يمكن الوصول اليه بالصدق والكذب جميعاً ، فالكذب فيه حرام إن أمكن التوصل اليه بالصدق . وإن أمكن التوصل اليه بالكذب دون الصدق ، فالكذب فيه مباح ، إن كان تحصيل ذلك القصد مباحاً ، وواجب ان كان المقصود واجباً . وكما أن عصمة دم المسلم واجبه ، فمهما كان في الصدق سفك دم امرئ مسلم قد اختفى من ظالم ، فالكذب فيه واجب . ومهما كان لا يتم مقصود الحرب ، أو صلاح ذات البين ، أو استمالة قلب المجنى عليه ، إلا بالكذب فالكذب مباح ^(١) » وبعد أن بين الحالات الثلاث التي يجوز فيها الكذب كما نص الحديث ، وهي الصلح والحرب ومحادثة المرأة ، قال :

« فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء ، وفي معناها ماعداها اذا ارتبط به غرض مقصود صحيح له أو لغيره ^(٢) » ثم ضرب لذلك الأمثال الآتية :

(١) س ١٣٩ ج ٣ - إنباء (٢) ١٤١ ج ٣

(١) ان يأخذه ظالم ويسأله عن ماله . فله أن ينكره
(٢) ان يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة ارتكبتها بينه وبين الله .
فله أن ينكر ذلك ، إذ للرجل أن يحفظ دمه ، وماله وعرضه ، بلسانه ،
وان كان كاذبا

(٣) أن يُسأل عن سر أخيه ، فله أن ينكره
(٤) أن يصلح بين الضرائر من نسائه ، بأن يظهر لكل واحدة أنها
أحب إليه

وقد تنبه الغزالي إلى خطر هذا الباب ، فبين أن الكذب
لا ينبغي أن يقترف كلما كانت له فائدة ، بل يجب أن تكون فائدته
أقوى وأظهر من فائدة الصدق ، وإلا وجب أن يكون الرجل
من الصادقين. وانظر قوله « ولكن الحذف أن الكذب محظور ،
ولو صدق في هذه المواضع تولد منه محظور ، فينبغي أن يقابل أحدهما
بالآخر ، ويزن بالميزان القسط ، فاذا علم أن المحظور الذي يحصل
بالصدق أشد وقعاً في الشرع من الكذب ، فله الكذب . وان كان ذلك
المقصود أهون من مقصود الشرع ، فيجب الصدق . وقد يتقابل الأمران
بحيث يتردد فيهما ، وعند ذلك الميل الى الصدق أولى . لأن الكذب
يباح لضرورة ، ولحاجة مهمة . فان شك في كون الحاجة مهمة ،
فالأصل التحريم » ص ١٤١ ج ٣

غير أن هذه الحيلة لا تلزم الرجل فيما يرى الغزالي إلا إذا
كان يترك الكذب لغرض من أغراضه . أما إذا تعلق بغرض

غيره فلا تجوز المسامحة بحق الغير ، والاضرار به . وهذا من الغزالي
نظر بعيد

وقد استثنى من الكذب للمصاححة ، الكذب على رسول الله
بوضع الأحاديث في فضائل الأعمال ، وفي التشديد في المعاصي ،
فليس هذا من الاغراض التي تقاوم محذور الكذب على رسول
الله ، فان الكذب عليه من الكبائر التي لا يقاومها شيء

وضع القصص

وبهذه المناسبة ، نذكر أن الغزالي صرح في الجزء الأول من
الاحياء ص ٣٧ بأن (من الناس من يستجيز وضع الحكايات
المرغبة في الطاعات ، ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق إلى الحق)
وهو يرى ان (هذه من نزغات الشيطان ، فان في الصدق مندوحة
عن الكذب) وهذا منه إسراف . بل هو نفسه أول من يؤاخذ
على وضع القصص إن كان في وضعها مؤاخذة . ويكفي أن نعرف
أنه يذكر في كتبه من قصص الانبياء والصالحين ، ما لم يقم على
صحته أي دليل . والرواية الكاذبة ليست أقل خطراً من التأليف ؛
وكما جاز الكذب في سبيل الغاية ، كذلك تجوز في سبيلها
الغيبية . وقد صرح الغزالي يجواز الغيبة في المواطن الآتية :

- (١) التظلم . فان من ذكر قاضياً بالظلم ، والخيانة ، وأخذ الرشوة ، كان مغتتاباً عاصياً . أما المظلوم من جهة القاضي فله أن يتظلم الى السلطان وينسبه الى الظلم ، إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلا به . ولا أدري لم لا تُستباح أعراض الظالمين ؟
- (٢) الاستعانة على تغيير المكروه ، ورد العاصي الى منهج الطاعة
- (٣) الاستفتاء . كما يقول للمفتي : ظاهني أبي أو زوجي أو أخي ، وكيف طريقى الى الخلاص . والأسلم التعريض ، ولكن التعمين مباح بهذا العذر
- (٤) تحذير المسلم من الشر . فاذا رأيت فقيها يتردد الى مبتدع أو فاسق . وخفت أن تتعدى اليه بدعته وفسقه . فلك أن تكشف له بدعته وفسقه . متى كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة لا غير . واحذر أن يكون الحسد هو الباعث !
- (٥) ان يكون المغتاب مجاهراً بالفسق ، بحيث لا يستنكف من أن يذكر له ، ولا يكره أن يذكر به
- وهنا يحتاج الغزالي : فيبين أنه ليس لك أن تغتاب المجاهر بفسقه إلا بما يتجاهر به . فمن كان يتجاهر بشرب الخمر فليس لك أن تذكر زناه ، إذا كان يستره ، وهذا منه نظر دقيق

والغاية الشريفة ، تبيح النسيئة ، كما أباحت الكذب والغيبه .
فلانسان أن ينم ، إذا كان في النسيئة فائدة لمسلم ، أو دفع
لمعصية . كما اذا رأى من يتناول مال غيره ، فعليه أن يشهد به ،
دفعاً للجاني عن المعصية ، ورداً للحق المأخوذ ماله . والنسيئة في
هذا المثال اذا كانت ضراً في جانب الظالم ، فهي نفع في جانب المظلوم ،
وهو أولى بالإسعاف . بل دفع الظالم عن الظلم خير له في حاضره ،
وابعاد له عن الضر في مستقبله ، اذا كان مستعداً للافلاح عن الفساد



الباب السادس

في الاخلاق

تمهيد

كلمة أخلاق وجدت قبل الغزالي ، ففي الحديث بعثت لأتمم
مكارم الأخلاق . وقد عرف العرب فيما عرفوا عن اليونان كتابا
لأرسطو في الأخلاق . ووضع ابن مسكويه كتابا في صناعة
تهذيب الأخلاق ، ويوشك كتابه ذلك أن يكون كتابا في علم
الأخلاق ، على نحو ما كان يفهم اليونان ، ومن اقتنى أثرهم من
فلاسفة المسلمين

والذي يعينني الآن هو تحديد علم الأخلاق كما فهمه الغزالي .
وأقرر أني بعدمراجعة كتبه لم أجده يسير من تقدمه من مجدى
الفلسفة اليونانية . وإنما يفهم من علم الأخلاق شرح طرائق
السلوك . وفقاً لما سنته الشريعة السمحة ، ورسمه الصوفية ، ومن
نحانحوهم من الفقهاء . ولعلم الأخلاق فيما يريد أسماء متعددة :
فهو تارة يسميه علم طريق الآخرة ، وأخرى يسميه علم صفات
القلب ، وحينئذ يسميه أسرار معاملات الدين ، وربما سماه أخلاق

الأبرار، وهو اسم لبعض مؤلفاته . وأهم كتبه في الأخلاق نجده سماه إحياء علوم الدين . فعلم الأخلاق عنده هو تكييف النفس وردّها الى ما رسمته الشريعة وخطه رجال المكاشفة من علماء الاسلام ، ومن سبقهم من الأنبياء ، والصدّيقين ، والشهداء
وإذا كنا نجد ابن مسكويه مثلاً يستشهد كثيراً بكلام
ارسططاليس وجالينوس ، ويتحدث عن الرواقيين ، ومن اليهم
من الحكماء ، فانا نجد الغزالي يؤيد أبحاثه بكلام ابن آدم ،
والتستري ، والمحاسبي ، ومن اليهم من الصوفية ، وربما نقل ماروي
عن عيسى ، وموسى ، وداود ، ومن اليهم من الأنبياء

تعريف الخلق

نرى الغزالي في ص ٥٦ من الميزان ، يعرف الخلق الحسن
بانه إصلاح القوى الثلاث : قوة التفكير ، وقوة الشهوة ، وقوة
الغضب . ونراه في ص ٦٤ منه يعرف الخلق الحسن بفعل ما يكره
المرء . ويستشهد بالحديث (حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار
بالشهوات) وبالأية (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم
وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم) ونراه يقول في ص ٤٧
« وأما حسن الخلق فبأن يزيل جميع العادات السيئة التي عرف الشرع

تفاصيلها ويجعلها بحيث يبغضها فيتجنبها كما يتجنب المستقذرات ، وأن
يتعود العادات الحسنة ويشتاق اليها فيؤثرها ويتنعم بها »
وانما ذكرنا هذه التعاريف المهمة ، التي لا تغنى شيئاً في
التحديد ، لندل على ميل الغزالي الى الخطايات ، فقد لا تخلو منها
صفحة من كتبه في الأخلاق

ولكنه في ص ٥٦ ج ٣ إحياء عرف الخلق تعريفاً دقيقاً فقال
« الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة
ويسر من غير حاجة الى فكر وروية ، فان كانت الهيئة بحيث تصدر
عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً ، سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً ،
وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر
خلقاً سيئاً » ثم ذكر أن الخلق ليس هو فعل الجميل أو القبيح ،
ولا القدرة على الجميل أو القبيح ، ولا التمييز بين الجميل والقبيح .
وانما هو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن تصدر عنها
الإمساك والبذل . ثم قال : فالخلق اذن هو عبارة عن هيئة النفس
وصورتها الباطنة

إفصل الأول

تربية الخلق

ليس للغزالي رأى محدود في الفطرة البشرية : فهو تارة يراها
خالصة تصالح لكل شيء ، وتقبل كل صورة ، وتارة يراها أميل

إلى الخير منها إلى الشر . يدل على ذلك قوله « وإذا كانت النفس
بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه وإلى القبائح ، فكيف لا تستلذ الحق لو ردت
إليه ، والتزمت المواظبة عليه ؟ بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة
خارج عن الطبع ، يضاهي الميل إلى أكل الطين ، فقد يغلب على بعض
الناس ذلك بالعادة ، فأما ميله إلى الحكمة وحب الله تعالى ، ومعرفته ،
وعبادته ، فهو كالميل إلى الطعام والشراب : فإنه مقتضى طبع القلب ، لأنه
أمر رباني ، وميله إلى مقتضيات الشهوة غريب عن ذاته ، وعارض على
طبعه » ص ٦٣ ج ٣

وما نريد أن نناقش هذا الرأي بأكثر من أن نلفت النظر إلى
أن الميل إلى مقتضيات الشهوة لا يبعد كثيراً عن الميل إلى الطعام
والشراب ، فهو جزء من الفطرة البشرية ، كما أن الميل إلى الخير
جزء من الفطرة البشرية ، وإنما توجه النفس بمقتضى الظروف .
فكما أن المرء لا يشتهي في كل لحظة أن يأكل أو يشرب ، فهو
كذلك لا يشتهي في كل لحظة أن يكون خيراً أو شريفاً ، وإنما
يظهر ميله إلى الخير حين يوجد موجب الخير ، ويظهر ميله إلى
الشر حين يوجد موجب الشر . بل قد تقوى الموجبات حتى
ترد الرشيد غويّاً أو ترد الغوي رشيداً . ولو لاصلاح الفطرة للخير
والشر لما احتجنا إلى تربية الأخلاق

كيف برى الخلق؟

برى الغزالي أن من الناس من ولد حسن الخلق بفطرته ،
بحيث لا يحتاج إلى تعليم ، ولا إلى تأديب ، كعيسى بن مريم ،
ويحيى بن زكريا ، عليهما السلام ، وكذا سائر الأنبياء . ولا يبعد
فيما يرى أن يكون في الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكتساب ،
فرب صبي خُلِقَ صادق اللهجة سخياً جريئاً

وما أريد أن أناقش الغزالي في حكمه بأن الأنبياء لا يحتاجون
إلى التعليم والتأديب ، ويكفي أن أذكر أن عصمة الأنبياء —
في غير تبليغ الرسالة — كانت مما اختلف فيه العلماء ، وأن في القرآن
شواهد كثيرة على غفران ما تقدم وما تأخر للنبي من الذنوب

والطريق إلى تربية الخلق فيما يرى الغزالي هو التخلق :
أي حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب . فمن
أراد مثلاً أن يحصل لنفسه خلق الجود ، فعليه أن يتكلف فعل
الجود : وهو بذل المال ، حتى يصير ذلك طبعاً له

والغزالي يهتم كثيراً برياضة النفس على ما يرغب المرء فيه من
مكارم الأخلاق ، ويرى كسب الخلق بسبب التخلق من عجيب
العلاقة بين القلب والجوارح ، ويقول في ذلك :

« كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة . وكل فعل يجري على الجوارح فانه قد يرتفع منه أثر الى القلب . ويعرف ذلك بمثال : وهو أن من أراد أن يصير الخدق في الكتابة صفة نفسية له حتى يصير كاتباً بالطبع ، فلا طريق له إلا أن يتعاطى بجراحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الخدق ويواظب عليه مدة طويلة ، يحاكي الخط الحسن ، فيتشبه بالكاتب تكلفاً . ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة في نفسه ، فيصدر منه في الآخر الخط الحسن طبعاً ، كما كان يصدر منه في الابتداء تكلفاً . فكان الخط الحسن هو الذي جعل خطه حسناً . ولكن الأول بتكلف ، إلا أنه ارتفع منه أثر الى القلب . ثم انخفض من القلب الى الجارحة ، فصار يكتب الخط الحسن بالطبع . وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس ، فلا طريق له إلا أن يتعاطى أفعال الفقهاء ، وهو التكرار للفقهاء . حتى تنعطف منه على قلبه صفة الفقه ، فيصير فقيه النفس »

ومن هنا كان الغزالي يرى أن الكبيرة الواحدة لا توجب الشقاء المؤبد ، لأنها بدون التكرار لا تصبح صفة للنفس . ولا معنى للشقاء المؤبد إلا أن تصير إحدى الرذائل صفة نفسية لأحد الناس

الفصل الثاني

امطاه تغيير الخلق

لهذا الفصل علاقة ظاهرة بالفصل الذي قبله ، فان تربية الخلق معلقة على إزالة الخلق السيء . ويرى الغزالي أن تغيير الخلق ممكن ويقول في ذلك تعليقا على قوله عليه السلام : حسنوا أخلاقكم « لو لم يكن ممكنا لما أمر به ، ولو امتنع ذلك لبطلت الوصايا والمواعظ والترغيب والترهيب ، فان الأفعال نتائج الأخلاق ، كما أن الهوى الى أسفل نتيجة الثقل الطبيعي ، بل كيف ينكر تهذيب الانسان مع استيلاء عقله ، وتغيير خلق البهائم ممكن إذ ينتقل الصيد من التوحش الى التأنس ، والفرس من الجراح الى السلاسة »

ويظهر أن الغزالي شهد من يرى أن الخلق كالأخلق لا يمكن تغييره ، وإلا كان طمعا في تغيير خلق الله . وقد ذكر في ذلك أن خلق الله قسمان : قسم لافعل لنا فيه ، كالسما واللكواكب وقسم فيه قوة لقبول كمال بعده ، إذا وجد شرط التربية . وتربيته قد تتعلق بالاختيار ، فان النواة ليست بتفاح ولا نخل ، ولكنها قابلة بالقوة لأن تصير نخلا بالتربية ، وغير قابلة لأن تصير تفاحا ، وانما تصير نخلا إذا تعلق بها اختيار الآدمي في تربيتها

ويقول « فلذلك لو أردنا أن نقلع بالكلية الغضب والشهوة من أنفسنا ونحن في هذا العالم عجونا عنه ، ولكن لو أردنا قهرها وإسلاهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه »

أقسام الطبائع

وهو بعد ذلك يقسم الجبلات إلى سريعة القبول ، وبطيئة القبول ، باعتبار التقدم في الوجود ؛ ويقسم الناس في تغيير الخلق إلى أربع مراتب — الأولى : الانسان الغفل الذي لا يعرف الحق من الباطل والجميل من القبيح . وهو أقبل الأقسام للعلاج : فلا يحتاج إلا إلى مرشد وإلى باعث يحمله على الاتباع — الثانية : أن يكون قد عرف قبح القبيح ، ولكنه لم يتعود العمل الصالح . بل زين له سوء عمله ، يتعاطاه انقياداً لشهواته ، واعراضاً عن صواب رأيه ، فأمره أصعب من الأول ، إذ تضاعفت عاتيه . فيلزم (١) قلع مارسخ فيه من تعوّد الفساد (ب) و صرف النفس إلى ضده — الثالثة : أن يعتقد أن القبيح حق وجميل . ويرى الغزالي أن هذا لا يرجي صلاحه إلا على الندرة ، إذ تضاعفت عليه أسباب الضلال — الرابعة : أن يكون مع وقوع نشوئه على الاعتقاد الفاسد ، وتربيته على العمل به ، يرى فضله في كثرة الشر ، واستهلاك

النفوس ، ويتباهى بفساده ، ويراها مما يرفع قدره . قال الغزالي :
وهذا أصعب المراتب وفي مثله قيل : من التعذيب تهذيب الذئب
ليتأدب وغسل الأسود ليبييض . ثم قال : فالأول من هؤلاء
يقال له جاهل ، والثاني جاهل وضال ، والثالث جاهل وضال
وفاسق ، والرابع جاهل وضال وفاسق وشرير

ولا يفوتنا أن نقرر أن الغزالي لا يريد من تغيير الخلق إلا

قهره وإسلاسه ، وقد صرح بذلك في قوله :

« وظنت طائفة أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية
ومحوها ، وهيئات ! فإن الشهوة خلقت لفائدة . وهي ضرورية في الجبلة ،
فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الانسان ، ولو انقطعت شهوة الوقاع
لا تقطع النسل ، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الانسان عن نفسه
ما يهلكه وهلك . ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذي
يوصله الى الشهوة حتى يحمله ذلك على إمساك المال . وليس المطلوب إمارة
ذلك بالكلية ، بل المطلوب ردها الى الاعتدال الذي هو وسط بين
الافراط والتفريط . »

كيف يعرف المرء عيوب نفسه ؟

يرى الغزالي أن من كانت بصيرته نافذة لم تحف عليه عيوبه ،

فاذا عرف العيوب أمكنه العلاج .

وإذ كان أكثر الخلق جاهلين لعيوب أنفسهم ، حتى إن

أحدثم ليرى القذى في عين أخيه ، ولا يرى الجذع في عين نفسه ،
فقد وضع الغزالي أربع طرق لمعرفة عيوب النفس

الاول - أن يجلس المرء بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس
مطلع على خفايا الآفات ، ويحكمه في نفسه ، ويتبع إشارته في
مجاهدته

الثاني - أن يطالب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً فينصبه
رقيباً على نفسه ، ليلاحظ أحواله وأفعاله ، فما كره من أخلاقه ،
وأفعاله ، وعيوبه الباطنة ، والظاهرة ، نبهه اليه

الثالث - أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من أسنة أعدائه ،
فإن عين السخط تبدي المساوى . ولعل انتفاع الانسان بعدو
مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مدهن يخفي
عنه عيوبه

الرابع - أن يخاطب الناس ، فكل ما رآه مذموماً عند
الخلق أهم نفسه به . فإن الطباع متقاربة في اتباع الهوى ، وما
يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله ،
أو عن أعظم منه ، أو عن شيء منه . فليتفقد نفسه ويظورها عن
كل ما يذمه من غيره

علامات حسن الخلق

يتحاكم الغزالي في هذا الباب الى القرآن ، إذ أن الله تعالى ذكر في كتابه صفات المؤمنين والمنافقين ، وهي يجملتها ثمرة حسن الخلق ، وسوء الخلق . وبعد أن سرد جملة من الآيات قال « فمن أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات ، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق ، وفقد جميعها علامة سوء الخلق ، ووجود بعضها دون بعض ، يدل على البعض دون البعض . فليشتغل بتحصيل ما فقده ، وحفظ ما وجده » ص ٧٤ ج ٣

والظاهر أنه لا يكفي دائماً أن يتحاكم المرء الى القرآن ، فقد تكون هناك خلة واحدة تحتاج الى تحرير ، إذ لا يدري المرء أهو مخطئ في التخلق بها أم مصيب . وقد تنبه الغزالي إلى هذه النقطة في غير هذا الباب ، وهو يرى ان المطلوب في علاج البخل مثلاً هو (الاعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون على الوسط وفي غاية البعد عن الطرفين) ويقول « فان أردت أن تعرف الوسط فانظر الى الفعل الذي يوجب الخلق المحظور ، فان كان أسهل عليك وألذ من الذي يضاؤه ، فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له ، مثل أن يكون إمساك المال وجمعه ألذ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقه ، فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل ، فزد في المواظبة على البذل .

فان صار البذل على غير مستحق ألد عندك وأخف عليك من الامسك
بالحق فقد غلب عليك التبذير فارجع إلى المواظبة على الامسك . فلا تزال
تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتيسير الأفعال وتيسيرها حتى تنقطع
علاقة قلبك من الالتفات إلى المال ، فلا تميل إلى بذله ولا إلى إمساكه ،
بل يصير عندك كالماء ، فلا تطلب فيه إلا إمساكه لحاجة محتاج أو بذله
لحاجة محتاج . ولا يترجح عندك البذل على الامسك « (١)

وفي هذا مغالبة للطبيعة البشرية ، وما أحسب خلق الكرم
يتطلب أن يتساوى البذل والامسك ، وإنما يحاول الغزالي أن
يجعل الفضائل حركات فطرية للنفوس ، وهو أمل بعيد

الفصل الثالث

الطريق إلى تهذيب الافعال

يتخذ الغزالي البدن مثالا للنفس : فكما أن البدن إن كان
صحيحاً فشأن الطبيب تمهيد القانون لحفظ الصحة ، وإن كان
مريضاً فشأنه جلب الصحة إليه ، فكذلك النفس : إن كانت
زكية طاهرة مهذبة فينبغي أن تسعى لحفظها ، واكتساب زيادة
صفاتها . وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغي أن تسعى لجلب
ذلك إليها . وكما ان العلة المغيرة لا اعتدال البدن، الموجبة للمرض

لا تعالج إلا بضدها : فإن كانت من حرارة فبالبرودة ، وإن كانت من برودة فبالحرارة ، فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب ، علاجها بضدها : فيعالج مرض الجهل بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخي ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشتهي تكلفاً . وكما أنه لا بد من احتمال مرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتبهات لعلاج الابدان المريضة ، فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب ، بل أولى ، لأن مرض البدن يخلص المرء منه بالموت بخلاف مرض القلب فإنه يدوم بعد الموت أبد الآباد (؟) وكما أن كل مبرد لا يصلح لعدة سببها الحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص ، ويختلف ذلك بالشدة والضعف ، والدوام وعدمه ، وبالكثرة وبالقلّة ، ولا بد من معيار يعرف به مقدار النافع منه ، فإنه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد ، فكذلك النقائص التي تعالج بها الأخلاق لا بد لها من معيار . وكما أن معيار الدواء مأخوذ من معيار العلة حتى إن الطبيب لا يعالج ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة ، فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها ، وهي ضعيفة أم قوية ، فإذا عرف ذلك التفت إلى أحوال البدن ، وأحوال الزمان ، وصناعة المريض ، وسنه ، وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها ، فكذلك الذي يطب

نفوس المريدين ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص ، وطريق مخصوص ، ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم . وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم ، فكذلك المرشد لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكتهم وأمات قلوبهم . بل ينبغي أن ينظر في مرض المريد ، وفي حاله ، وسنه ، ومزاجه ، وما تحتمله نفسه من الرياضة ، ويبني على ذلك رياضته .

وهذه الطريقة تدل على بصر الغزالي بعلاج الأخلاق ، وتدل من جانب آخر على تقدم الطب في ذلك الزمان ^(١)

وقد فصل طرائق التهذيب باختلاف الطباع ، ووضع بجانب كل رذيلة علاجها الخاص . وقد علمنا من ذلك أنهم كانوا يعالجون الكبر إذ ذاك بالسؤال . وهذا فيما أرى استشفاء من داء بداء ، فقد يولد السؤال أمراضا في النفس تحتاج في اقتلاعها إلى مجاهدة وعناء . ولكن الصوفية يبيحون ما لا يباح !!

(١) انظر ص ٦٤ ، ٦٥ ج ٣ احياء . ص ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ من الميزان

الفصل الرابع

غاية الافضل

الخير هو ما تعتقد أنه خير ، والشر هو ما تعتقد انه شر .
والسبيل الى هذه العقيدة هو وزن العمل بميزان العقل والشرع .
ولكن ماهى الغاية من عمل الخير ؟ وما هو الغرض من تجنب
الشر ؟

غاية الأخلاق — فيما يرى الغزالي — هى السعادة الأخروية
وقد فصل هذا فى الفصل الأول من الميزان . ويقول فى ص ١١٧
من هذا الكتاب « إن السعادة الحقيقية هى الأخروية ، وما عداها
سميت سعادة ، إما مجازاً وإما غلطا ، كالسعادة الدينوية التى لاتعين على
الآخرة . وإما صدقا ، ولكن الاسم على الأخروية أصدق ، وذلك
كل ما يوصل الى السعادة الأخروية ويعين عليها . فان الموصل الى
الخير والسعادة ، قد يسمى خيراً وسعادة (! ؟)

وهذا يدل على أن الغزالي ليست له غاية اجتماعية : فالذى
يسعف مريضاً ، أو يعيث ملهوفاً ، أو يأسو جريحاً ، أو يواسى
فقيراً ، لايهمه شفاء المريض ، ولا إغاثة الملهوف ، ولا براء الجريح ،
ولا سدّ حاجة الفقير ، مادامت نيته قد خلصت فى عمله ، ووثق

بجزء الآخرة ؛ وكل سعادة ينتجها العمل الطيب في هذه الدنيا إنما هي عنده سعادة مجازية ، وواجب المرء أن يفهمها كذلك . وله أن يعدّها سعادة نسبية ، على معنى أن ما يوصل الى السعادة الآخروية قد يسمى خيراً وسعادة ؛! وقد نص في ص ١٣٦ من الميزان على أن من يتجنب الفحشاء محافظة على كرامته لا يسمى عفيفاً ، لأنه لم يقصد بعفته وجه الله ، فكل عمله تجارة ، وترك حظ لحظ بماثله ؛!

منافسة قصيرة

ونسأل الغزالي سؤالين اثنين :

أولاً — إذا أسعفت مريضاً وكان لا يهملك برؤه ، لأن سعادتك ليست نتيجة لسعائك في هذه الدنيا ، وإنما يهملك أن تصح نيتك فتثاب في أخراك ، ألا تكون تاجراً في غايتك الأخلاقية ؟

ثانياً — إذا تركت الزنا توفيراً لكرامتك أو لصحتك ، كيف لا تكون عفيفاً ؛ ولماذا طلبت العفة ، ودعا اليها الشرع ؟ أليس ذلك لأن فيها حفظاً للصحة ، وتوفيراً للكرامة ؛ وإذا كنت تتخذ العقل مقياساً للخير والشر ، نخبرني أيجد العقل

ما يحكم به على ضرر الزنا وأنه شر، أكثر من أنه مُؤدِّ بالصحة،
ذاهب بالكرامة؟

ونعود فنذكر ان الغزالي سخر ممن يرون السعادة الآخروية
في نعيم الجنة، وما فيها من الحور والولدان، وإن نطق بذلك
الكتاب، ورأى أن سعادة الآخرة هي رضا الله. أفلا يصح لنا
قياساً على هذا أن نعد الطمع في السعادة الآخروية عند إغائته
الملهوف، وإسعاف الجريح، يناق ما تسمو إليه الأخلاق، وأن
واجب الرجل الخبير أن يرى سعادته في سعادة من أغائته وواساه،
لا أن يلقى جزاءه على ذلك في الآخرة، وإن لم تشر أعماله في
الأولى؟

ولا يفوتنا أن نقرر أن فهم الغزالي للغاية الأخلاقية على
هذا النحو جعله يخطئ في فهم كثير من أسرار الشريعة، ففريضة
الحج مثلاً يحسبها الغزالي نوعاً من الرياضة الروحية، فتراه يملأ
باب الحج من كتاب الإحياء بالأدعية والأوراد، حتى لتجد
لكل خطوة يخطوها الحاج دعاءً خاصاً بها، وحتى لتحسبه غفل
عن قوله تعالى (ليشهدوا منافع لهم) إذ تراه يستكثر أن يحج
المرء مثلاً لينتفع بموسم التجارة؛

ونظرة صغيرة إلى حرص الشريعة على وحدة المسلمين،

ترينا السر في فرض الحج على من استطاع اليه سبيلا؛ فالتجارة التي تنبه اليها الغزالي ثم استنكرها، ليست شيئاً بجانب ما يستفيده المسلمون حين يتلاقى حُجاجهم، وينفضُ كل منهم أخبار قومه ليعرفوا ما يحيط بهم من المشاكل الدولية، وليستعدوا الدرء ما قد يحيط ببعض ثغورهم من خطر. ولكن الغزالي يرى العمل كله في العبادة المجردة، ويرى الجزاء أيضاً عبادة مجردة، وكثيراً ما نص الصوفية على أن لذائد الجنة ليست مادية، ولكنها تسبيح وتقديس وتهليل؟!

الفصل الخامس

هل نور الأضواء؟

قرر الغزالي حين تكلم في التربية أن قلب الطفل «جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة. وهو قابل لكل ما ينقش عليه، ومائل إلى كل ما يمال به اليه. فان عود الخير وعلمه نشأ عليه، وسعد في الدنيا والآخرة. وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك» ص ٧٧ ج ٣

وهذا يدل على أن الغزالي يرى أن الفطرة الإنسانية قابلة لكل شيء، وأنه ليس لها قبل التربية أي لون. فالخير إذن يكتسب

بالتربية . والشريكتسب بالتربية . وليس للانسان بفطرته ميل خاص : لا الى الشر ، ولا الى الخير . وإنما يسعدأ ويشقى بما يقدم إليه أبواه ومعلموه

ويؤيد هذا قوله في تهذيب الأخلاق « وكأ أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال ، وإنما تعترى المعدة المضرة بموارض الأغذية والأهوية والأحوال ، فكذلك كل مولود يولد معتدلاً صحیح الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه : أى بالاعتیاد والتعليم تكسب الرذائل . وكأ أن البدن فى الابتداء لا يخلق كاملاً ، وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية والغذاء ، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال ، وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم » ص ٦٤ ج ٣

ولسكننا نجد الغزالى يقرر فى ص ١٢٧ من الميزان ، أن النسب الدينى أمانة الديانة وحسن الخلق ، لأن العرق نزع . ونجده كذلك يحض فى تربية الطفل على أن تكون المرضع امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال « فان اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه ، فاذا وقع عليه نشوء الصبي العجنت طينته من الخبث ، فيميل طبعه الى ما يناسب الخبائث » ص ٧٧ ج ٣

وهذا صريح فى الحكم بوراة الأخلاق ، إذ لا يمكن أن تعتبر الرضاة نوعاً من الأدب والتدريب ، إذ كانت تسبق

الادراك والتمييز . يضاف إلى هذا أنه يقرر أن الطفل قديشاهد عليه الميل إلى الحياء ، وأنه يجب استغلال هذه الغريزة فيه . ومن الواضح أنه لو كانت الفِطْرَ جميعاً خالصة من كل الميول ، لكان واجباً أن يغرس الحياء في الطفل بالتربية والرياضة ، لا أن ينمى ، إذ لا ينمى غير الموجود

ومما تقدم نرى للغزالي رأيين مختلفين في وراثته الاخلاق . فهو حين يقرر أن قلب الطفل جوهره ساذجة خالية من كل نقش ، وقابلة لكل صورة ، يحكم بأن الأخلاق لا تورث . وحين يدعو إلى أن لا ترضع الطفل امرأة غير متدينة يحكم بأنها تورث ؛ فهل يمكن رفع ما بين هذين الأمرين من ظاهر الخلاف ؟

نحبر هذا البحث

الواقع أن الغزالي لم يعن بهذا البحث ، لذلك كان كلامه فيه متناقضاً وغير محدود . ولو أنه عنى به عناية خاصة لبيّن لنا أن الأخلاق تورث ، وأن هذه الوراثة لا تمنع من قبول الطفل لكل صورة . فالفطرة البشرية صالحة لكل غرس ، لأن الأخلاق التي يرثها الطفل من أبويه تولد معه ضعيفة ميسورة الاقتلاع ، بل الكهول يقدرّون على استئصال رذائلهم بالرياضة والمجاهدة ،

والطباع التي يرثها المرء من أبويه لاتعاوده إلا عند خمود مزاياه
التي كسبها بنصح أساتذته ، أو تأثير بيئة صالحة ساقته إليها الأقدار
اذن لاتناقض في كلام الغزالي إلا من حيث الظاهر . فهو
يقول بوراثنة الأخلاق ، في ثنايا آرائه المبعثرة هنا وهناك ، وإن
كان يجعل للتربية السلطان الأكبر في تكوين النفوس



الباب السابع

في الفضائل

نتكلم في هذا الباب عن تحديد الفضيلة، وبيان أمهات الفضائل وما لها من الفروع، ثم نذكر طائفة من الفضائل التي عنى بدرسها الغزالي: كالصدق، والصبر، والتوكل، والتمول، وما إلى ذلك مما تدور عليه حياة الافراد، وينبنى عليه الاجتماع، ليرى القارئ ما يسمو إليه في تصوّر المثل الاعلى للحياة

تحرير الفضيلة

لا يفرق الغزالي بين كلمة فضيلة، وكلمة خلق، فهما عنده عبارة عن هيئة النفس، وصورتها الباطنة وأساس الفضيلة فيما يرى يرجع بعضه إلى ما أخذ عن ارسطو وبعضه إلى ما أخذ عن أفلاطون. فهو يأخذ عن ارسطو نظرية (التوسط) التي يسميها الاعتدال، فقوة الغضب مثلاً إن مالت عن الاعتدال، إلى طرف الزيادة، سميت تهوراً؛ وإن مالت إلى الضعف سميت جبناً، فأما إن ظلت وسطاً بين الزيادة والنقصان فهي الشجاعة. فالحمود هو الوسط، وهو الفضيلة، والطرفان رذيلتان، كما يقول

ولا يحمد الغزالي على هذه النظرية حتى يعترض عليه بأن من الفضائل مالا وسط له ، بل يقرر أن العدل ليس له طرفان : زيادة ونقص ، بل له ضد واحد ، ومقابل واحد : هو الجور ويأخذ عن أفلاطون نظرية المماثلة ، أى مشابهة الله ، فإن الله فيما يرى أفلاطون : هو الوحدة التى تجتمع فيها وتتصلح جميع كالات المخلوقات . والرجل الفاضل عند أفلاطون هو الذى ينظر إلى الله بلا انقطاع كما ينظر الفنان إلى الأتموزج . والغزالي يقرر أن المرء يقرب من الله بقدر ما يقرب من رسول الله . ومعنى ذلك أن الرسول جمع مكارم الأخلاق ، وقد حضنا على أن نتخلق بأخلاق الله ، ماعدا الكبرياء . فمشابهة الرسول واحتذاؤه عند الغزالي تماثل تماماً مشابهة الله عند أفلاطون

وأخذ أيضاً عن أفلاطون نظرية التوافق L.harmonie ويسمىها العدل . والتوافق عند أفلاطون هو تناسب القوى والملكات لتكمل فى المرء جوانبه الخلقية . وإليك ما يقول الغزالي فيما يشابه هذا المعنى « وكما أن حسن الصورة الظاهرة لا يتم مطلقاً بحسن العينين دون الأنف والفم والحد ، بل لابد من حسن الجميع ليم حسن الظاهر ، فكذلك فى الباطن أربعة أركان ، لابد من الحسن فى جميعها حتى يتم حسن الخلق . فاذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق ، وهى : قوة العلم ، وقوة الغضب ، وقوة

الشهود . وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث . أما قوة العلم خسنها
وصلاحها في أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب
في الأقوال ، وبين الحق والباطل في الاعتقادات ، وبين الجميل والقبيح
في الأفعال . فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة ، والحكمة
رأس الأخلاق الحسنة . وأما قوة الغضب خسنها في أن يصير انقباضها
وانبساطها في حدها تقتضيه الحكمة . وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها
في أن تكون تحت إشارة الحكمة ، أعني إشارة العقل والشرع »

ويجب أن نتنبه إلى هذه الكلمة الأخيرة ، وهي (إشارة
العقل والشرع) فإن الغزالي يدمج فيها التوافق والمماثلة معاً ، أما
المماثلة فهي في لفظ الشرع ، وقد وضع لهذا أخلاق الرسول ممثلة
في القرآن . وأما التوافق فهو في لفظ العقل ، إذ يرجع كل
الملكات إلى طاعته . وانظر قوله « فالعقل مثاله مثال الناصح المشير
وقوة العدل هي القدرة ، ومثالها مثال المنفذ الممضي . والغضب هو
الذي تنفذ فيه الإشارة ، ومثاله مثال كلب الصيد فإنه يحتاج إلى أن
يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الإشارة »

والأمر كذلك في قوة العلم وقوة الشهوة . وقد نص في الميزان
على أن العدل عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب
واستشهد بالقول المأثور : بالعدل قامت الأرض والسموات . وهذا
الترتيب الواجب خاضع للعقل بالطبع ، وهذا ما يراد بنظرية
التوافق

أمريات الفضائل

أصول الفضائل فيما يرى الغزالي أربعة : الحكمة والشجاعة والعفة والعدل . وقد نص على أنه يعني بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأحوال الاختيارية . ويعنى بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة . ويعنى بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها . ويعنى بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع

ولهذه الأصول فروع ، كما يرى الغزالي . فمن اعتدال قوة العقل يحصل : حسن التدبير ، وجودة الذهن ، وثقابة الرأي ، واصابة الظن ، والتفطن لدقائق الاعمال ، وخفايا آفات النفوس وأما خلق الشجاعة فيصدر عنه : الكرم ، والنجدة ، والشهامة ، وكسر النفس ، والاحتمال ، والحلم ، والثبات ، وكظم الغيظ ، والتودد .

وأما خلق العفة فيصدر عنه : السخاء ، والحياء ، والصبر ، والمسامحة ، والقناعة ، والورع ، واللطافة ، والمساعدة ، والظرف ، وقلة الطمع

وقد نص في الميزان على أن الحكمة فضيلة القوة العقلية ،
والشجاعة فضيلة القوة الغضبية ، والعفة فضيلة القوة الشهوانية ،
والعدل عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب (فليس
جزءاً من الفضائل ، بل هو عبارة عن جملة الفضائل^(١))
وقد لحظ الغزالي أن في هذه الفروع شيئاً من الغموض ،
فكتب في شرحها ثلاثة فصول مطولة في الميزان ، وبين معها
كذلك ما ينشأ من الإفراط والتفريط ، من أنواع الرذائل ،
وسرجع إليها في غير هذا الباب

الفضائل السلبية

في مقدورنا أن نقسم الفضائل الى إيجابية وسلبية : فالأمل
فضيلة إيجابية ، لأنه يحمل صاحبه على العمل في سبيل الحياة .
والزهد فضيلة سلبية ، لأنه يرضى صاحبه بما قد يكون عليه من
سوء الحال

وبعد أن نفهم هذا ننظر في الفضائل التي عُني بدرستها
الغزالي ، فنجدها في الأغلب فضائل سلبية : من ذلك فضيلة
الفقر ، وفضيلة الزهد ، وفضيلة التوكل ، وفضيلة الخوف ،
وفضيلة الخمول ، وفضيلة التواضع ، وفضيلة الجوع

ولم يُعْنِ الغزالي بشرح الفضائل الايجابية : كالشجاعة ،
والإقدام ، والحرص ، وما الى ذلك مما يحمل المرء على حفظ ما
يملك ، والسعى لنيل ما لا يجِد . فانه لا يكفي أن يسلم الرجل من
الآفات النفسية ، بل يجب أن يزود بكل مقومات الحياة . وخير
للمرء أن يوصم برذائل القوة من أن يتحلى بفضائل الضعف . فان
الضعف شر كله ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون

الفضائل الفردية:

ويمكننا أن نقسم الفضائل الى فردية واجتماعية . فالقناعة
فضيلة فردية ، لأنها تخص صاحبها بالذات . والأمانة فضيلة
اجتماعية ، لأن المرء يحتاج اليها حين يعامل الناس
والغزالي يُعْنِي في الأغلب بالفضائل الفردية ، حتى لتحسبه
يكتب مؤلفاته لأفراد يعيشون في عزلة وانفراد . فلو أنك أردت
أن تدخل في عالم السكون ، لوجدت لدى الغزالي من آداب الوحدة
والعزلة ما يقنعك ويريضيك . ولكنك لو أردت أن تدخل في عالم
السياسة ، لما وجدت لديه فكرة واحدة يمكن أن تكون نبراساً
يهتدى به السياسة من الوزراء والسفراء .

درجات الاخلاق

وبعد معرفة أمهات الفضائل وما لها من الفروع ، يخطر
بالبال هذا السؤال : هل يرى الغزالي أن في مقدور المرء أن يصل
الى أعلى درجات الأخلاق ؟

ونجيب بأنه يرى ذلك في مقدور المرء ، وانظر قوله
« وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق
ملكاً مطاعاً يرجع الخلق كلهم اليه ، ويقتدون به في جميع الأفعال . ومن
اتفق عن هذه الجملة كلها واتصف بأضدادها استحق أن يخرج من بين
البلاد والعباد »

والدرجة العليا عنده هي درجة النبوة ، والصوفية فيما يرى
يقربون من هذه الدرجة ، واليك ما يقول عنهم في كتابه المنقذ
من الضلال :

« لو جمعوا عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار
الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئاً من سيرتهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما
هو خير منه ، لم يجدوا اليه سبيلاً : فان جميع حركاتهم وسكناتهم ،
في ظاهرم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور
النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به »

وأظن أننا هدمنا هذا الحكم من أساسه بما أسلفنا من نقد
أحوال الصوفية ، فان ما استحسن الغزالي من أحوالهم لا يمكن

أن يكون مقتبساً من نور مشكاة النبوة ، وهل كانت النبوة يا هذا
وساوس وأضاليل ؟ تعالت النبوة عما تصفون !
أين مقياس العقل والشرع : هاتيه ، هاتيه : فهو وحده فصل
الخطاب :

الفصل الأول

فضيلة الصبر

ابتدأ الغزالي الكلام على هذه الفضيلة بقوله تعالى (رجال
صدقوا ما عهدوا الله عليه) وبقوله عليه السلام (ان الصدق
يهدى الى البر ، والبر يهدى الى الجنة ، وان الرجل ليصدق حتى
يكتب عند الله صديقاً . وان الكذب يهدى الى الفجور ،
والفجور يهدى الى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند
الله كذاباً) ثم قال : ويكفي في فضيلة الصدق أن الله تعالى وصف
الأنبياء به في معرض المدح والثناء فقال : واذكر في الكتاب
إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً . وقال : واذكر في الكتاب اسماعيل
إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً . قال : واذكر في الكتاب
إدريس انه كان صديقاً نبياً .

مراتب الصدق

للصدق فيما يرى الغزالي ستة معانٍ : صدق في القول ،
وصدق في النية والارادة ، وصدق في العزم ، وصدق في الوفاء
بالعزم ، وصدق في العمل ، وصدق في تحقيق مقامات الدين . فمن
اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صدِّيق ، ومن صدق في شيء
فهو صادق بالإضافة الى ما فيه صدقه

الاول صدق القول . وهو أشهر أنواع الصدق . ولا يجوز
العدول عنه إلا لمصلحة . كتأديب الصبيان والنساء ومن يجري
مجرام . وفي الحذر من الظَّامة ، وفي قتال الأعداء ، والاحتراز من
اطلاعهم على أسرار الملك . قال الغزالي « فمن اضطر الى شيء من ذلك
فصدقه فيه أن يكون نطقه لله فيما يأمره الحق به ، ويقتضيه الدين . فاذا
نطق به فهو صادق ، وإن كان كلامه مفهما غير ما هو عليه . لأن
الصدق ما أريد لذاته ، بل للدلالة على الحق والدعاء اليه . فلا ينظر الى
صورته ، بل الى معناه . نعم في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل الى
المعارض ما وجد اليها سبيلا . فقد كان رسول الله اذا توجه الى سفر
ورّى بغيره . كيلا ينتهي الخبر الى الأعداء فيقصد . وليس هذا من
الكذب في شيء . قال رسول الله : ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال
خيراً ونمى خيراً . ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع :
من أصلح بين اثنين . ومن كان له زوجتان . ومن كان في مصالح

الحرب . والصدق ههنا يتحول الى النية ، فلا يراعى فيه إلا صدق النية
وارادة الخير »

الثاني — صدق النية والارادة ، ويرجع ذلك الى الاخلاص
وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات الا الله

الثالث — صدق العزم . فان الانسان قد يُقدّم العزم على
العمل ، فيقول : إن رزقنى الله مالا تصدقت بجميعه ، أو بشرطه ،
فهذه العزيمة قد يصادفها في نفسه وهي جازمة صادقة ، وقد يكون
في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة ،
فالصدق هنا عبارة عن التمام والقوة

الرابع — صدق الوفاء بالعزم ، فان النفس قد تسخو بالعزم
في الحال ، إذ لاشقة في الوعد والعزم ، فاذا حقت الحقائق ،
وحصل التمكن ، وهاجت الشهوات ، انحلت العزيمة ، ولم يحصل
الوفاء بالعزم ، وهذا يضاد الصدق فيه

الخامس — صدق الأعمال ، وهو أن تكون أعمال المرء
الظاهرة ، صورة لحالته الباطنة . بخلاف أعمال الرياء

السادس — الصدق في مقامات الدين ، كالصدق في الخوف
والرجاء والزهد والرضى والتوكل والحب ، لأن لأمثال هذه
الأموار مبادئ يطلق بظهورها الاسم ، ثم لها حقائق ، والصادق
من نال تلك الحقائق . . . وفي هذا المعنى شيء من الغموض

افضل الثمانى

فضيلة الصبر

يرى سقراط أن الفضيلة أساسها العلم . فحتى علم الانسان
الخير فعله ، ومتى عرف الشر تركه . ويقرب رأى الغزالي من
هذا في أساس الصبر ، إلا أنه يشترط أن تصل المعرفة الى اليقين
حتى تثمر الصبر . واليك قوله في هذا المعنى « ترك الأعمال المشتهة
عمل يثمره حال يسمى الصبر ، وهو ثبات باعث الدين الذى هو فى مقابلة
باعث الشهوة . وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات
ومضادتها لأسباب السعادات فى الدنيا والآخرة . فاذا قوى يقينه ، أعنى
المعرفة التى تسمى إيمانا ، وهو اليقين بكون الشهوة عدواً قاطعاً لطريق
الله تعالى قوى باعث الدين ، واذا قوى ثباته تمت الأفعال على خلاف
ما تنتقاه الشهوة (١) » وقال فى موطن آخر « والمراد بالصبر العمل
بمقتضى اليقين ، إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة ، والطاعة نافعة ،
ولا يمكن ترك المعصية ، والمواظبة على الطاعة الا بالصبر ، وهو استعمال
باعث الدين فى قهر باعث الهوى (٢) » ويذكر إميل بوارك فى كتابه
cours élémentaires de philosophie ص ٣٤٣ أن العلم لا يكفي

أساساً للفضيلة . فعرفة الواجب لا تكفي للقيام به . بل لابد من حبه
وارادته ارادة حرة ثابتة . وهذا التقييد يساوى ما اشترط الغزالي
من اليقين ، لأن المرء متى تيقن نفع شيء أحبه ، أو كاد يحبه .
ويرى الدكتور منصور فهمي والاستاذ عبده خير الدين أن المعرفة
التي يراها سقراط أساس الفضيلة لابد أن تكون المعرفة الجازمة
التي تورث الارادة ثم التنفيذ . واذن فلا اعتراض على سقراط

أسماء الصبر

ويقرر الغزالي أن الصبر تختلف أسماؤه باختلاف ما يصبر
المرء عنه ، فهو جماع كثير من الفضائل ، أو هو نصف الايمان .
فان كان صبراً عن شهوة البطن والفرج سمي عفة . وان كان
في احتمال مكروه سمي صبراً ، وضده الجزع . وان كان في احتمال
الغنى سمي ضبط النفس ، وضده البطر . وان كان في الحرب سمي
شجاعة ، وضده الجبن . وان كان في كظم الغيظ والغضب سمي
حلماً ، وضده التذمر . وان كان في نائية مضجرة سمي سعة الصدر
وضده الضجر . وان كان في إخفاء كلام سمي كتمان السر . وإن
كان عن فضول العيش سمي زهداً ، وضده الحرص . وان كان
صبراً على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ، وضده الشره

درجات الصابرين

- وللإنسان بالنسبة للصبر ثلاثة أحوال
الاولى - أن يقهر داعي الهوى ، فلا تبقى له قوة المنازعة ،
ويتوصل الى هذه الحال بدوام الصبر
الثانية - أن تغلب دواعي الهوى وتسقط بالكلية منازعة
باعث الدين ، وهي أسوأ الأحوال
الثالثة - أن تكون الحرب سجالاتا بين الهدى والضلال

حكم الصبر

ويُقسّم الصبر باعتبار حكمه إلى فرض ونفل ومكروه ومحرم .
فالصبر عن المحظورات فرض ، وعن المكروهات نفل ، والصبر
على الأذى المحظور محظور ، كمن تقطع يده أو يد ولده فيسكت
ويصبر ، وكمن يقصد حرمة بشهوة محظورة فتهيج غيرته ، فيصبر
عن إظهار الغيرة ، ويسكت على مايجرى على أهله ، فهذا الصبر
محرم . والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة
في الشرع ، كنظر الأجنبي الى امرأته

ضرورة الصبر

ويرى الغزالي أن المرء محتاج إلى الصبر في كل حال : فهو يحتاج إليه في السراء ، كما يحتاج إليه في الضراء . بل هو إليه في السراء أحوج ، فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية . والصبر هنا يكون بأن يراعى المرء حقوق الله في ماله بالإنفاق ، وفي بدنه ببذل المعونة للخلق ، وفي لسانه ببذل الصدق

والطاعة تحتاج إلى صبر ، لأن النفس بطبعها تنفر من العبودية . وللصبر على الطاعة ثلاث أحوال ، الأولى قبل الطاعة ، وذلك تصحيح النية والإخلاص ، والصبر على شوائب الرياء ، والعزم على الإخلاص والوفاء . والثانية حالة العمل ، كي لا يفتر قبل الفراغ منه . والثالثة بعد انتهائه ، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به ، والنظر إليه بعين العُجب .

ويحتاج المرء إلى الصبر عن المعاصي ، وعلى الأخص التي صارت مألوفاً بالعادة ، إذ تنضاف العادة إلى الشهوة . ثم إن كانت المعصية مما يسهل فعله كان الصبر عنها أثقل على النفس : كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة ، والكذب ، والمراء ، والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً ، والمزح المؤذي للقلوب

والصبر على أذى الناس فضيلة ، وأعظم منه الصبر على أنواع
البلاء : كموت الأعزة ، وهلاك الأموال ، وزوال الصحة
ويرى الغزالي أن توجع القلب ، وبكاء العين ، لا ينافي الصبر ،
لأن ذلك مقتضى البشرية ، ولا يفارق الإنسان إلى الموت
والذي كفى جميع الشهوات واعتزل الناس ، لا يستغنى عن
الصبر على العزلة والانفراد ، ويريد الغزالي بهذا أن يؤكد احتياج
المرء إلى الصبر في جميع الأحوال والأفعال

تحصيل الصبر

ويمكن تحصيل الصبر بإضعاف باعث الشهوة ، وتقوية
باعث الدين . ويضعف باعث الشهوة بتقليل مادته من حيث النوع
والكثرة ، أو قطع أسبابه ، أو تسلية النفس بمباح من جنس
ما يشتهي . ويقوى باعث الدين بأمرين : الأول إطاعه في فوائده
المجاهدة ، بالتفكير في الأخبار الواردة عن الصبر وعواقبه .
والثاني أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى حتى يمرن
على جهاده ومقاومته

الفصل الثالث

فضيلة الخمول

الغزالي يسمي الخمول فضيلة ، ويحيل إلى أنه لأفضل فيه !!
ولكن تسمية الغزالي هذه تدلنا عن شيء خاص يوضح رأيه
في الأخلاق : ذلك أنه حين دعا إلى الخمول ، لم يدع إلى التجرد
من الخصال الذاتية التي توجب ذبوع الشهرة وبعد الصيت ؛
وقد خص الشهرة المذمومة بما يأتي من طريق التكلف . وهو
لا ينكر أن يشتهر المرء بعمله في غير جلبه ولا ضوضاء

وقد نبه بلطف إلى أن حسن السمعة قد يفسد المعامين بنوع
خاص ، فقد يعود المعلم على كثرة الطلبة ، فيفتر نشاطه حين
يقالون . وفي هذا المعنى يذكر عن أبي العالیه انه كان إذا جلس إليه
أكثر من ثلاثة قام . ولم ينس الغزالي أن التجمهر حول الأمراء
فتنة لهم ، وذلة لتابعيهم ، فذكر في هذا المعنى كلمة جامعة لعمر
ابن الخطاب

ويقول الغزالي : فان قلت فأى شهرة تزيد على شهرة الأنبياء
والخلفاء الراشدين وأئمة العلماء ، فكيف فاتهم فضيلة الخمول ؟ فاعلم

أن المذموم طلب الشهرة ، فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير
تكلف من العبد فليس بمذموم . نعم فيه فتنة على الضعفاء ، دون
الأقوياء ، وهم كالغريق الضعيف إذا كان معه جماعة من الغرقى فالأولى
به أن لا يعرفه أحد منهم ، فانهم يتعلقون به فيضعف عنهم ، فيهلك معهم .
وأما القوي فالأولى أن يعرفه الغرقى ليتعلقوا به فيحييهم ويناب على ذلك »
فالرجل الخبير فيما يرى الغزالي هو الذي لا يعرف غير الواجب
ولا يهمه أقبل الناس عليه ، أم أعرضوا عنه ، لأنه بالواجب
مشغول

الفصل الرابع

فضيلة التوكل

كتب الغزالي عن التوكل أربعاً وخمسين صفحة في الاحياء
وثلاث عشرة صفحة في كتاب الأربعين ، وسبعاً وعشرين صفحة
في منهاج العابدين . وهو يبالغ في المنهاج أكثر مما يفعل في الاربعين
والاحياء ، فان كلامه في الكتابين الأخيرين واحد ، وان اختلف
في الايجاز والاطناب ، وكثيراً ما يُحيل في الأربعين على الاحياء
وأول ما نلاحظه أن الغزالي اهتم بهذه الفضيلة ، حتى
احتاج إلى أن يعتذر عن تطويله في كتاب المنهاج ، إذ كان

التطويل يخالف شرط ذلك الكتاب . وهذا الاهتمام نفسه يوضح لنا جانباً من أهم الجوانب في فهمه للحياة

ونقرر منذ الآن أن ما كتبه عن التوكل صريح في الدعوة إلى الرهينة ، وقطع العلاقات مع الناس ، والتدرج على احتمال الظم والجوع ، والافتناع بأن الموت من جملة الارزاق !

ونحن نعلم أن العلماء يجب أن يضربوا الامثال بأنفسهم للناس كما فعل عمر حين خرج بعد الخلافة يتجر في الأسواق ، ولكن الغزالي يقول « فالاهتمام^(١) بالرزق قبيح بذوى الدين ، وهو بالعلماء أقيح ، لأن شرطهم القناعة . والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة إن كانوا معه ، إلا إذا أراد أن لا يأخذ من أيدي الناس ويأكل من كسبه ، فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذي سلوكه بظاهر العلم والعمل ، ولم يكن له سير بالباطن ، فان الكسب يمنع عن السير بالمكر الباطن ، فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرب الى الله تعالى بما يعطيه أولى ، فانه تفرغ لله عز وجل ، وإعانة للمعطي على نيل الثواب » ص ٢٨٦ ج ٤

(١) ناقشني الاستاذ محمد بك جاد المولى يوم الامتحان فيما أخذته على الغزالي من تقييحه الاهتمام بطلب الرزق ، وهو يرى أن « الاهتمام » هو القبيح ، فأما طلب الرزق فلا قبيح فيه . ولكن يلاحظ أن الغزالي قابل الاهتمام بالقناعة ، والقناعة في طلب الرزق ليست فضيلة ، بل الفضيلة هي الاهتمام بالرزق . ولازلت أرى أنه لامننى لأن يكون الاهتمام بالرزق قبيحاً بذوى الدين حتى يكون بالعلماء أقيح . ولكن عذر الغزالي أنه ينظر الى هذه المسألة نظرة صوفية كما قال فضيلة الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار

ولو أنه دعا الحكومات إلى الأخذ بيد العلماء ، وإغنائهم
عن السعى إلى الرزق ، لتتخصص جهودهم في نشر العلم ، لكان له
قسط من الصواب . أما زعمه أن الكسب يمنع من السير بالفكر
الباطن ، وأن الأولى للعالم أن يكتب بما يعطيه الناس ليعينهم
على نيل الثواب ، فهو رأى يهوى بصاحبه إلى الحضيض ، ولا
يتناسب مع مكانة العلماء

كراهة السؤال

ومع أن الغزالي يبيح للعالم السؤال ليعين المعطى على نيل
الثواب ، فإنا نجد في مكان آخر يقرر أن السؤال حرام في الأصل
وإنما يباح لضرورة ، أو حاجة قريبة من الضرورة ، لأن
في السؤال إظهار الشكوى من الله بإظهار الفقر ، ولأن السائل
يذل نفسه بسؤاله ، وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله ، ولأنه
يؤذي المستول : فقد لا تسمح نفسه بالبدل عن طيب قلب .
فإن بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ

ويمكن الحكم بأن الغزالي يحتاط أبلغ احتياط في إباحة
السؤال ، ولكن يبقى أنه من إهانة العلم والدين أن يقبل المرء
بكايته على العبادة أملاً في أن يطعمه سواه ، فإنه لا يعقل أن

تكون نوافل العبادات مما يترك في سبيله طالب المعاش ، حتى
يباح لأجلها السؤال^(١)

حكم الكسب

والغزالي مع هذا لا يرى الكسب منافياً للتوكل في كل
حال ، فمن الخطأ فيما يرى أن « يظن أن معنى التوكل ترك الكسب
بالبدن ، وترك التدبير بالقلب ، والسقوط على الارض كالخرقة الممقاة ،
وكاللحم على الوضغ ، وهذا ظن الجهال ، فإن ذلك حرام في الشرع ،
والشرع قد أنهى على المتوكلين ، فكيف ينال مقام من مقامات الدين
بمحظورات الدين ؟ » وقد بين أن الإنسان في سعيه إلى مقاصده
إما أن يكون جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب ، أو لحفظ
نافع هو موجود عنده كالادخار ، أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع

(١) قامت ضجة يوم الامتحان بسبب هذا الحكم ، وأنكر فضيلة الاستاذ
الشيخ عبد الحميد اللبان أن يكون الغزالي قال شيئاً من ذلك . وهذا يدل على أن الفطرة
الخالصة تستنكر السؤال .

وقد كتب فضيلة الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار بهامش النسخة التي كانت عنده
ما يأتي : كانت قدم المرى أرسخ في الزهد من قدم الغزالي . فقد كان متحققاً بالزهد
عملاً واشتهر ذلك عنه اشتهاً لاشبهه فيه . وقد قال :

الامر لله قد أصبحت في دعة أرضي القليل ولا أهم للفتوت
وشاهد خالقي أن الصلاة له أعز عندي من دري وإياقوتي
ومع هذا فرأيه في الزهد خير من رأى الغزالي ، لأنه كان مع إعجاباه بالقناعة
والزهد يعيب على القانع الزاهد ان يكون عيشه من فضلات أهل اليسار . ويقول
ويعجبنى دأب الدين ترهبوا سوى اكلهم كدالنفوس الشعائج

الصائل والسارق ، أو لإزالة ضار قد نزل به : كالتداوى من المرض .

والنافع باعتبار الأسباب التي يجلب بها ثلاث درجات :
مقطوع به . ومظنون ظناً يوثق به ، وموهوم وهما لا تثق النفس
به ثقة تامة ، ولا تطمئن إليه

والأولى كالأسباب التي ارتبطت بها المسببات بتقدير الله
ومشيئته ارتباطاً مطرداً لا يختلف ، كمن يرى الطعام موضوعاً
بين يديه وهو جائع ، ثم لا يمد إليه يده ، لأنه يرى السعى إلى
تناوله ومضغه تفويتاً للتوكل ، وهذا فيما يرى الغزالي جنون
« فانك إن انتظرت أن يخلق الله فيك شبعاً دون الخبز ، أو يخلق في الخبز
حركة اليك ، أو يسخر ملكاً ليضغه لك ويوصله إلى معدتك ، فقد
جهلت سنة الله . وكذلك لو لم تزرع الأرض وطمعت في أن يخلق الله
نباتاً من غير بذر ، أو تلد زوجتك من غير وقاع ، فكل ذلك جنون »
والتوكل في هذا المقام — كما نص الغزالي — لا يكون
بالعمل ، بل بالعلم ، ومعنى ذلك أنه لا يجوز لك ترك الأسباب ،
وإنما تعلم أن الله هو مسبب الأسباب

والثانية الأسباب التي ليست مُتَيَقِّنة ، ولكن الغالب أن
المسببات لا تحصل دونها ، وكان احتمال حصولها دونها بعيداً ،
كمن يترك الأمصار والقوافل ، ويسافر في البوادي التي يندر

أن يطرقها الناس ، ويكون سفره من غير زاد ، فهو ليس شرطاً
في التوكل ، بل استصحاب الزاد سنة الأولين ، ولا يزول
التوكل به

وقد أسرف الغزالي حين تحدث عن هذا الموقف في المنهاج ،
وانظر ماذا يقول : « فإن قلت: فهل تدخل البادية بلا زاد ؟ فأقول :
إن كان لك قوة قلب بالله تعالى وثقة بالغة بوعده الله سبحانه ، فادخل ،
وإلا كن كالعوام بعلاقتهم » ص ٨٢

ولو أننا رجعنا الى ما وضعه من آداب المسافر لعلمنا أنه
احتياط هناك ، فحث المسافر على أن يأخذ حاجته من الزاد ، ثم
أوصاه بأن يأخذ قدرًا يوسع به على رفقائه ، فكيف يصبح
المسافر بزاده في البادية من العوام ؟ ومن عسى أن يكون هؤلاء
العوام المؤدبون ؟

وقد توقع الغزالي أن يسأل عن حمل رسول الله وأصحابه
للزاد ، ولكنه تفضل فأجاب بأن ذلك مباح غير حرام ! ثم توقع
أن يسأل : هل ترك الزاد أولى أم أخذه ، لمن قوى يقينه ؟ وأجاب
في المنهاج بأن الترك أفضل ، وأنا لا أعلم لهذا الفضل أساساً غير
التنسك الذي ينكره العقل ، ويأباه الدين !

ولم يفث الغزالي أن يذكر أن هذه المجازفة قد تكون إلقاء
بالأيدي إلى التهلكة ، فأجاب بأن شرطها أولاً رياضة النفس
حتى تحتمل الجوع أسبوعاً أو ما يقاربه ، وثانياً أن يكون المتوكل
بحيث يقوى على التقوى بالحشيش ، وما يتفق من الأشياء
الخشيسة ، إذ لا يخلو الأمر من أن يجد آدمياً في بحر الأسبوع
أو ينتهي إلى محلة ، أو قرية ، أو إلى حشيش يجترى به ؛
وأحب أن يذكر القاري هذه الصورة الغريبة ، فإن الغزالي
يدعو إليها جمهور المسلمين !

وانظر كيف يقول : فإن قلت فما قولك في القعود في البلد بغير
كسب . أهو حرام أو مباح أو مندوب ؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام
لأن صاحب السياحة في البادية إذا لم يكن مهلكاً نفسه ، فهذا كيف
كان لم يكن مهلكاً نفسه حتى يكون فعله حراماً . بل لا يبعد أن يأتيه
الرزق من حيث لا يحتسب ، ولكن قد يتأخر عنه ، والصبر ممكن إلى
أن يتفق . ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد
إليه ففعله ذلك حرام . وإن فتح باب البيت وهو غير مشغول بعبادة ،
فالكسب والخروج أولى له . ولكن ليس فعله حراماً إلى أن يشرف
على الموت ، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب . وإن كان
مشغول القلب بالله غير مشرف إلى الناس ، ولا متطلع إلى من يدخل
من الباب فيأتيه برزقه ، بل تطلعه إلى فضل الله تعالى واشتغاله بالله
فهو أفضل »

وما أدري كيف يتفق هذا مع قوله في نفس الصفحة : فإذا
التباعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة ، وجهل بسنة الله تعالى ؟
إلا أن يكون السؤال من الأسباب ، وهو سبب مهين !
وأحب أيضاً أن يذكر القارئ هذا التناقض في الجمع بين
التوكل وبين السؤال !! وكيف تقوم لأمة قائمة وهي تربي على
هذه الأخلاق !!

ثم ما هو الفرق بين من يترك الطعام عند وجوده ، وبين
من يدخل البادية بلا زاد ؟ لا فرق إلا أن الثاني قد يجد من
يتصدق عليه ، أو يجد حشيشاً يقتات به ؛ ولو ذكر الغزالي أن
اليد العليا خير من اليد السفلى ، وأن الله كرم بني آدم وحملهم
في البر والبحر ورزقهم من الطيبات ، لما اختار لامرئ هذا الحظ
الخبيس ، ولما وضع هؤلاء المشردين ، في طبقة المتوكلين .

والدرجة الثالثة ملابسة الأسباب التي يتوهم إفضاؤها إلى
المسببات من غير ثقة ظاهرة ، كالذي يستقصى التدبيرات الدقيقة
في تفصيل الاكتساب ووجوهه . يقول الغزالي « وذلك يخرج
بالكلية عن درجات التوكل كلها ، وهو الذي فيه الناس كلهم ، أعنى
من يكتسب بالخيال الدقيقة اكتساباً مباحاً لمال مباح ،^(١)

وإذا كان الاحتيال لكسب المباح مما ينافى التوكل ، فقد
انهدم أعظم ركن في بناء الممالك والشعوب . والغزالي يردد النفرة
من الحيلة لكسب الرزق ، وقد لاحظنا ذلك عليه حين تكلم
عما يحمل بالتاجر من أن لا يكون أول داخل في السوق ولا
آخر خارج منه

ونرى الحاجة ماسة إلى أن ننبه إلى أن فهم التوكل بهذه
الصورة خطأ صراح ، وليس علينا من حرج إذا رأينا الغزالي
من الخاطئين ، وما نريد أن نزيد :

مقامات المتوكلين

والمتوكل مقامات ثلاث :

• الأول — مقام من يترك الزاد وهو يدور في البوادي ،
وانما كان هذا أفضل فيما يرى الغزالي لأن فيه تثبيتاً على الرضى
بالموت :

الثاني — مقام من يقعد في بيته أو في مسجد ، ولكنه
في القرى والأمصار . وهذا أضعف من الأول كما يقول

الثالث — من يخرج للكسب على الوجه الذي ارتضاه حين
تكلم عن آداب الكسب ، وهو أن لا يقصد به الاستكثار ،

ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته ، وعجيب والله أن يكون
الكسب أدنى درجات المتوكلين .

نوكل المعيل

غير أن الغزالي يخص تلك الحالة الشديدة بالمنفرد ، وقد
قدمنا أنه يرضى له الاقتناع بأن الموت من جملة الأرزاق
أما المعيل صاحب الأولاد فإنه لا يجوز له إلا المقام
الثالث، وهو توكل المكتسب ، كتوكل أبي بكر رضى الله عنه
اذ خرج للكسب « فأما دخول البرارى وترك العيال توكلا في حقهم ،
أو القعود عن الاهتمام بأمرهم توكلا في حقهم ، فهذا حرام . وقد يفضى
الى هلاكهم ، ويكون هو مؤاخذا بهم . بل التحقيق أنه لا فرق بينه
وبين عياله . فانه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة وعلى
الاعتداد بالموت على الجوع رزقا وغنيمة فى الآخرة فله أن يتوكل
فى حقهم » وهذه مجازفة من الغزالي : إذ يرضى أن يعود الرجل
أبناءه على الجوع ، وأن يمر بهم على الاعتداد بالموت جوعاً فى سبيل
الآخرة ، وقد يكونون لم يبلغوا سن التكليف

يقول الغزالي : وقد انكشف لك من هذا ان التوكل ليس انقطاعا
عن الأسباب ، بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة ، والرضى بالموت
إن تأخر الرزق نادراً ، وملازمة البلاد والأمصا وملازمة البوادي
التي لا تخلو عن الحشيش وما يجرى مجراه . فهذه كلها أسباب البقاء

ولكن مع نوع من الأذى... الخ ؟
ونكرر ملاحظناه من أن فهم التوكل بهذه الصورة خطأ
مبين ، فانه يجز القادر على الطلب الى الرضى بالسؤال ، وانتظار
المصادفات ، والترحيب بالموت ، مع أن قطع أسبابه من أول
ما يعنى به بُناة الأخلاق

الادخار

ورأى الغزالي في الادخار عجيب ، إذ أفضل الحالات عنده
لمن حصل على مال بإرث أو كسب أو أى سبب من الأسباب
أن يأخذ قدر حاجته في الوقت : فيأكل إن كان جائعاً ، ويلبس
إن كان عارياً ، ويشترى مسكناً مختصراً إن كان محتاجاً ، ويفرق
الباقى في الحال . ولا يأخذ ، ولا يدخر ، إلا بالقدر الذى يدرك
به من يستحقه ويحتاج إليه ، فيدخره على هذه النية :

والذى يدخر لسنة ليس من المتوكلين أصلاً كما يقول :

والذى يدخر لأربعين يوماً فما دونها يحرم من المقام المحمود
الموعود في الآخرة للمتوكلين

ونحب أن يتأمل القارئ هذا الرأى في الاقتصاد ، فقد
أكثر المؤرخون من لوم العرب على اهمال هذا العلم ، وعدوا
الجهل به سبباً لسقوط المملكة العربية ، مع أنها كانت تسيطر

على أخصب بلاد العالم كمصر والعراق . ولكن كيف يحترم هذا العلم في أمة يقول إمام الأئمة فيها: إن ادخار المال لأربعين يوماً يحرم المرء من المقام المحمود !؟

وقد تفضل الغزالي فأباح للمعيل أن يدخر قوت عياله لسنة !؟

وتفضل كذلك فأجاز للرجل أن يدخر الكوز وأثاث البيت !!

والفرق عنده بين الكوز وغيره ، أن سنة الله لم تجر بتكرار الأواني مع الحاجة إليها في كل وقت ، ولكن جرت سنته بتكرار الأرزاق في كل سنة . وكان عليه أن يعرف أن الرزق إنما يتجدد في كل سنة ، لمن يملك من المزارع والمتاجر ما يتجدد ريعه في كل سنة . فيأعجباً كيف يميز التوكل إتلاف رأس المال !

آداب المتوكلين

- وضع الغزالي الآداب الآتية للمتوكل حين يخرج من بيته :
- (١) ان يغلق الباب ، ولا يستقصى في أسباب الحفظ ، كالتماسه من الجيران الحفظ مع الغلق ، وجمعه أغلاقاً كثيرة !
 - (٢) أن لا يترك في البيت متاعاً يحرص عليه السراق !

(٣) ما يضطر الى تركه في البيت ، ينبغي أن ينوى عند خروجه الرضى بما يقضى الله فيه من تسليط سارق عليه !

(٤) إذا عاد فوجد المال مسروقاً فينبغي أن لا يحزن ، بل يفرح إذا أمكنه !

(٥) أن لا يدعو على السارق الذي ظلمه بالأخذ . فان فعل بطل توكله ، ودل على تأسفه على ما فات !

(٦) أن يقيم لأجل السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله ، ويشكر الله إذ جعله مظلوماً ولم يجعله ظالماً !

وما أدري ما الذي أنسى الغزالي أن يحض المتوكل على أن يترك باب البيت مفتوحاً ، وأن يعاق عليه لوحة مكتوباً فيها بخط واضح جميل : من أراد أن يأخذ شيئاً من هذا البيت فهو مغفور الذنوب ، بل مجزى بما مكن صاحبه من صنع المعروف !!

وليس من التوكل بالطبع أن يتعقب المرء الجناة ، لينالوا على يد الوالى جزاء ما قدمت أيديهم . بل التوكل هو أن لا يبالغ المرء في أسباب الحفظ ، وأن يوطن النفس على ما يسرق من من متاعه ، وأن لا يحزن بل يفرح حين يسرق ، وأن يغم لأن هذا السارق المسكين عصى الله وتعرض لعذابه ، وأن يشكر الله على أن جعله من المظلومين ، ولم يجعله من الظالمين .

وأظرف ما في هذا الباب دعوة الغزالي الى أن يجعل الرجل
ما سرق منه ذخيرة له في الآخرة ، وإن أعيد إليه فالأولى
أن لا يقبله :

توكل الخائف

يقرر الغزالي أن الضرر قد يعرض للخوف في النفس
والمال . أما في النفس فكالنوم في الأرض المسبعة ، أو في مجاري
السيول من الوادي ، أو تحت الجدار المائل ، أو السقف المنكسر ،
وكل ذلك فيما يرى منهى عنه ، لأنه تعريض للهلاك بلا فائدة
وجملة القول أن أسباب الخوف إما مقطوع بها أو مظنونة
أو موهومة ، وترك الموهوم هو شرط التوكل ، فالمبالغة في الاحتياط
تبعد المرء عن مقام المتوكلين (؟)

وهنا لا نرى بأساً من تحقيق مسألة أخطأ فيها الغزالي ،
فقد عدّ من الأسباب الموهومة الكى ، وذكر أن رسول الله لم
يصف المتوكلين إلا بترك الكى والرؤية والطيرة . ولو صح رأيه
فيما استشهد به ، لكان للرؤية والطيرة فائدة موهومة ، مع أنه
يستحيل أن يرى رسول الله قيمة لهذه الأسباب ، وإنما يريد أن
يضيف المكتوبين والمتطيرين والراقين الى جملة الموسوسين
ولو كان للكى فائدة موهومة لما عدّ تركه من التوكل ، وهو

يتعلق مباشرة بالصحة . وإنما نهى عنه الرسول لأن ضره كثير ،
ومحقق ، ونفعه قليل بل موهوم . وفوق هذا يجب أن نلاحظ أن
الأسباب الموهومة لم يكن تركها شرطاً في التوكل إلا لأن
في تركها تعويداً على المخاطرة ، وهي من صفات الأحياء ، فإذا
اختلفت الظروف ، وكانت رعاية الأسباب الموهومة نوعاً من
الحيطة ، فاني لا أفهم كيف تحرم المرء من المقام المحمود ؛
وإذا خاف الإنسان على ماله ، فله أن يعلق يته ، وأن يعقل
بعيره ، لأن هذه أسباب عرفت بسنة الله إما قطعاً وإما ظناً ،
فلا ينقض بها التوكل ، كما لا ينقض بدفع العقارب والحيات
والسباع ، لأن الصبر على هذه جنون

توكل المريض

يقسم الغزالي الأسباب المزيلة للمرض إلى مقطوع به ،
ومظنون ، وموهوم ، ويقرر أن ترك المقطوع به ليس من التوكل
بل تركه حرام عند خوف الموت . وكان عليه أن يتنبه إلى أن
المرض متى وجد ، فالموت مخوف في كل حال ، لأن المرض طفولة
وحدائة وفتوة ، فإن ترك وهو ناشئ أمسى وهو قوى متين ،
بل يجب حرب جرائم المرض ، لأنها تبيض وتفرخ ، ثم تصبح
أعداء ألداء . فأما الموهوم فشرط التوكل تركه . وقد بينا ما يختلف

عليه هذه الحال . وأما المظنون كالفصد والحجامة وشرب الدواء المسهل ، وما إلى ذلك من الأسباب الظاهرة عند الأطباء ، فليس تركه من التوكل ، كما أن تركه ليس محظوراً كالمقطوع به ، بل قد يكون أفضل من فعله في بعض الأحوال وفي بعض الأشخاص . وهذا ما لا نوافق عليه الغزالي ، لأننا لا نفهم كيف يكون الحرص على الصحة مما يفضل اغفاله في بعض الأحيان

وإلى القارىء الأحوال التي يحمد فيها عنده ترك التداوى :

(١) أى يكون المريض من المكشفين ، وقد كوشف بأن أجله انتهى ، وأن الدواء لا ينفعه (!)

(٢) أن يكون المريض مشغولاً بحاله وبخوف عاقبته

(٣) أن تكون العلة مزمنة ، والدواء الذى يؤمر به موهوم

النتفع بالنسبة لعلته

(٤) أن يقصد بترك التداوى استبقاء المرض لينال أجر

الصابرين ، أو ليمرن نفسه على الصبر الجميل !

(٥) أن يكون قد سبق له كثير من الذنوب ، ويرى المرض

تكفيراً إذا طال ؛ وكان قد عجز عن التكفير !

(٦) أن يستشعر في نفسه مبادئ البطر والطغيان بطول مدة

الصحة ، فيترك التداوى خوفاً من أن يعاجله زوال المرض ،

فتعاوده الغفلة والبطر والطغيان :

ويحسن أن نلفت النظر الى أن هذه أسباب ضعيفة ، لا تقتضى ترك الدواء ؛ وهى فى الوقت نفسه تدل على مبلغ حرص الغزالى على نزعة الصوفية ، فمن الواضح أن إثارة المرض فى سبيل الفرار من آفات العافية ، إنما هو عمل سلبى قليل الغناء . وماذا يضرنا لو حاربنا المرض ، ثم رجعنا بعد ذلك إلى حرب ما للصحة من الآفات ، لنخرج رجالا صحاح الجوارح والقلوب ؟

والغزالى فوق ما سلف يفضل كتمان المرض ، ولا يجيز اظهاره إلا فى الأحوال الآتية :

(١) أن يكون الغرض التداوى ، فيذكر المرض للطبيب ، لافى معرض الشكاية ، بل فى معرض الحكاية

(٢) أن يوصف المرض لمن يرجى منه الدعوة الى الصبر

(٣) أن يقصد باظهار المرض اظهار العجز والافتقار الى الله

قال الغزالى « فهذه النيات يرخص فى ذكر المرض ، وإنما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية والشكوى من الله حرام . ويعبر الاظهار شكاية بقريئة السخط واظهار الكراهة لفعل الله . فان خلا عن قريئة السخط وعن النيات التى ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن يحكم فيه بأن الأولى تركه . لأنه ربما يوهم الشكاية ؛ ولأنه ربما يكون فيه تصنع

ومزيد في الوصف على الموجود من العلة . ومن ترك التداوى توكلًا فلا وجه في حقه للاظهار ، لأن الاستراحة الى الدواء أفضل من الاستراحة الى الافشاء »

وهذه الكلمة الأخيرة غاية في الحكمة والسداد

ملاحظات ثلاث

الأولى

جاء في ص ٢٩٢ ج ٤ إحياء مآنه « فان قلت فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ؟ فأقول : المتوكل لا يخلو بيته عن متاع كقصعة يأكل منها وكوز يشرب منه وإناء يتوضأ منه وجراب يحفظ به زاده ، وعصا يدفع بها عدوه ، وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت . وقد يدخل في يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجا فيصرفه اليه فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلا لتوكله . وليس من شرط التوكل اخراج الكوز الذي يشرب منه والجراب الذي فيه زاده ، وإنما ذلك في الماء كقول وفي كل مال زائد على قدر الضرورة . لأن سنة الله جارية بوصول الخير الى الفقراء والمتوكلين في زوايا المساجد . وما جرت السنة بتفريق الكيزان والأمتعة في كل يوم وفي كل أسبوع »

وهذه الفقرة تدل واضح الدلالة على أن التوكل هذا نزعة صوفية ، وقد وضع الغزالي مقياساً لتقدير الأعمال هو العقل والشرع ، وما أحسبه يستطيع أن يثبت أن آية « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » خاصة بهذا الصنف من الناس ، بل التوكل

المأمور به في القرآن هو الاعتماد على الله مع مباشرة الأسباب
والإيمان بأنه لا يضيع أجر العاملين

الثانية

جاء في المنهاج ص ٨٠ ما نصه « فان قيل هل يلزم العبد طلب الرزق
بحال بما ؟ فاعلم أن الرزق المضمون الذي هو الغذاء والقوام لا يمكننا
طلبه إذ هو شيء من فعل الله سبحانه للعبد كالحياة والموت لا يقدر العبد
على تحصيله ولا على دفعه (؟ !) » فان قيل : لكن لهذا الرزق المضمون
أسباب : فهل يلزمنا طلب الأسباب ؟ قيل له لا يلزمك ، إذ لا حاجة
للعبد إليه إذ الله سبحانه يفعل بسبب وبغير سبب ، فمن أين يلزمنا طلب السبب
ثم ان الله تعالى ضمن لك ضمناً مطلقاً من غير شرط الطلب والكسب ،
قال الله تعالى « وما من دابة في الأرض الا على الله رزقها » ثم كيف يصح
أن يأمر العبد بطلب ما لا يعرف مكانه فيطلبه ، والواحد منا لا يعرف
سبب الرزق يتناوله من أين يحصل له ، فلا يصح تكليفه . فتأمل »
وقد تأملنا كثيراً ، فلم نر هذه الحجج إلا خيلاً في خيال :

الثالثة

أراد الغزالي أن يحض على التوكل فأمر بملاحظة الجنين
كيف وصلت سرته بسرة الأم لينتهي إليه الغذاء لما كان عاجزاً
عن الحركة والاضطراب ، فلما انفصل سلبط الله على الأم الحب لترضعه
وهي راغمة ، وأدرّ له اللبن اللطيف ، إذ كان مزاجه لا يحتمل
الغذاء الكثيف . وانتقل الغزالي من هذا إلى بيان أن الكبير

قد كثرت أسباب الرفق به ، فبعد أن كان المشفق واحداً هو الام
أو الأب ، أصبح أهل البلد كافةً يشفقون عليه . ثم أخذ يبين
كيف ينتفع اليتيم بشفقة المساكين ، إلى آخر ما قال
وهذه الحجة على الغزالي لاله ، فانه إذا كان الله وصل سره
الجنين بسره أمه لضعفه عن الحركة ، وأدرّ عليه اللبن لعجزه عن
المضغ ، وسلط على أمه الحب لعجزه عن السعى ، فلماذا منحه
القوة إذن ، إذا كان لم يشأ أن يستغنى بها عن الناس ؟
فأما مقاله من أن كل واحد من أهل البلد إذا أحس بمحتاج
تألم قلبه ، ورق عليه ، وانبعثت له داعية إلى إزالة حاجته ، فهي
أمنية شعرية ، وليته ذكر أن العرب هموا بترك دينهم ليخلصوا
من الزكاة !

افضل النحس

فضيلة الافروس

ابتدأ الغزالي كلامه عن هذه الفضيلة بقوله تعالى (وما
أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) ثم ذكر جملة من الاحاديث
والأخبار . ثم قرر بعد ذلك أن كل حظ من حظوظ الدنيا استريح
إليه النفس ، ويميل إليه القلب ، قلّ أم كثير ، إذا تطرق إلى

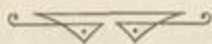
العمل تكدر به صفوه ، وزال به إخلاصه . ثم بين أنه قلما يخلو
فعل من أفعال المرء وعبادة من عباداته ، عن حظوظ وأغراض
عاجلة . وأن العمل الخالص هو الذى لا باعث عليه إلا طلب
القرب من الله

ومقياس الاخلاص فيما يرى الغزالي هو أن يشعر المرء بارتياح
حين يجد غيره يعمل عملا كان يريد أن يقوم به . نعرف هذا
من قوله :

« وأشد الخلق تعرضا لهذه الفتنة هم العلماء . فان الباعث للأكثرين
على نشر العلم لذة الاستيلاء ، والفرح بالاتباع . والشيطان يلدس عليهم
ذلك ويقول : غرضكم نشر دين الله ، والنضال عن الشرع الذى شرعه
رسول الله . وترى الواعظ يمن على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه
للسلاطين . ويفرح بقبول الناس قوله ، وإقبالهم عليه ، وهو يدعى أنه
يفرح بما يسر له من نصرة الدين . ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن
منه وعظا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساء ذلك وغمه ، ولو كان
باعثه الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه هذا المهم بغيره . ثم الشيطان مع
ذلك لا يخليه ويقول : انما غمك لا تقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه
الناس الى غيرك . إذ لو اتعضوا بقولك لكانت أنت المثاب ، واغتمامك
لقوات الثواب محمود . ولا يدري المسكين أن انقياده للحق وتسليمه
الامر أفضل وأجزل ثوابا وأعود عليه فى الآخرة »

وقد انحصر الاخلاص عنده فى الأمور الدينية ، لغلبة هذه
الأمور عليه ، ولو كان الغزالي من الذين باشروا الحركات العامة ،

ووقفوا على الشئون الاجتماعية ، لذكر لنا ضرباً من الاخلاص
في نهوض الأفراد بأهمهم . وبين لنا كيف يتطرق الغرض إلى
الأعمال الاجتماعية ، وكيف تشقى الشعوب بأصحاب الأغراض ،
فليس الاخلاص وقفاً على الصلاة والزكاة والحج والصيام ، بل
الاخلاص فيما بين الرجل وبين أمته ، أوجب من الاخلاص فيما بينه
وبين ربه ، لأنه حين يحرم الاخلاص في العبادة لا يضر الله
شيئاً ، فإن الله غنى عن العالمين . ولكنه حين يحرم الاخلاص فيما
يعمل لأمته ، يُشقى بسوء غرضه ملايين من النفوس ، ثم يصبح
وهو منبوذ مهين . ولكن أكثر الناس لا يعلمون ؛



الباب الثامن

في

نوفى الرذائل

تمهيد

لم يضع الغزالي للمرذيلة تعريفاً يخصصها بالذات ، وإنما هي عنده إفراط في الفضيلة أو تفريط . وهو يرى أن الإفراط في قوة العلم ينشأ عنه المكر والحقد والخداع والدهاء ، وأن التفريط فيها يصدر عنه البله ، والغفارة ، والحمق ، والجنون . وينشأ من الإفراط في الشجاعة التهور وما إليه من الجسارة ، والتبجح ، والاستشاطعة والتكبر ، والعجب ، والبذخ . ويصدر من التفريط فيها الجبن ، والهلع ، والمهانة ، وصغر النفس ، والنكول . وأما الرذائل الصادرة من الإفراط أو التفريط في العفة ، فهي : الشره ، وكلال الشهوة ، والوقاحة ، والتخنث ، والتبذير ، والتقتير ، والرياء ، والتهتك والمجانة ، والعبث والشكاسة ، والملق والحسد والشماتة الخ . وألاحظ أن كلامه في هذا الباب غير واضح ، وقد لاحظ هو ذلك ، فأخذ يشرح أمثال الرذائل الآتية : الاستشاطعة ،

الانفراك ، التخلس ، البذالة ، الشكاسة ، الكزازة ، التحاشي ،
النكول ، الغارة ، الخ
والأمر كذلك في الفضائل المتفرعة عن أمهات الأخلاق
وينبغي أن لا ننسى أن الغزالي يوصي دائماً بقلع الخلال الرديئة
وغرس مكارم الأخلاق ، ويسمى هذا بالتخلية ، والتحلية ، أي
إخلاء القلب من الشهوات ، ثم تحليته بكرام النزعات
وإذ كنا يننا رأيه في جملة من الفضائل الضرورية للأفراد ،
فإننا إذا كرون كذلك رأيه في طائفة من العيوب والذائل الكثيرة
الوجود ، ليتضح ما يتصوره من المثل الأعلى للحياة

الفصل الأول

رنيلة الغضب

الغضب قوة تتوجه عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل
وقوعها ، وإلى التشفى والانتقام بعد وقوعها . وهو فيما يرى
الغزالي ثلاث درجات : التفريط ، والإفراط ، والاعتدال
أما التفريط ففقد هذه القوة ، أو ضعفها . وهو مذموم
إذ من ثمراته قلة الانفة مما يؤنف منه ، كالتعرض للحرم والزوجة

والأمة، واحتمال الذل من الأخساء، وصغر النفس
وأما الإفراط فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن
العقل والدين، فلا تبقى للمرء بصيرة، ولا نظر، ولا فكرة،
ولا اختيار

وأما الاعتدال فهو المحمود، وهو غضب ينتظر إشارة
العقل والدين: فينبعث حيث تجب الحمية، وينطفئ حيث يحسن الحلم
قال الغزالي « فمن مال غضبه الى الفتور حتى أحس من نفسه بضعف
الغيرة، وخسة النفس في احتمال الدال والضم في غير محله فينبغي أن
يعالج نفسه حتى يقوى غضبه. ومن مال غضبه الى الإفراط حتى جره
الى التهور واقتحام الفواحش فينبغي أن يعالج نفسه ليغض من سوره
الغضب ويقف على الوسط الحق بين الطرفين (١) »

أسباب

وأسباب الغضب فيما يرى الغزالي ترجع إلى ثلاثة أقسام:
الأول — ما هو ضرورة في حق الكافة كالفوت، والملبس
والمسكن، وصحة البدن. وهذه ضرورات لا يخلو الانسان من
كراهة زوالها، ومن الغيظ على من يتعرض لها
الثاني — ما ليس ضروريا لأحد من الخلق كالجاه، والمال

(١) ١٦٩ ج ٣ احياء.

الكثير ، والغلمان ، والدواب . وقد صارت هذه الأشياء محبوبة
بالعادة ، والجهل بمقاصد الأمور

الثالث — ما يكون ضروريا في حق بعض الناس دون
البعض ، وهذا يختلف باختلاف الاشخاص

علم

وقد وضع الغزالي طريقة لاستئصال رذيلة الغضب ، كما
وضع طريقة لتسكينه حين يشور

أما الطريقة الأولى فهي استئصال الغضب باستئصال أسبابه
وإذ كانت الأسباب المهيجة له هي الزهو ، والعجب ، والمزاح ،
والهزل ، والهزء ، والتعيير ، والمارة ، والمضادة ، والقدر ، وشدة
الحرص على حصول المال ، والجاه ، فينبغي للخلوص من الغضب
إزالة هذه الأسباب ، وهي في أنفسها رذائل تحتاج إلى رياضة ،
ورياضتها الرجوع إلى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها ، وتنفر
عن قبجها ، ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة حتى
تصير بالعادة مألوفا هينة على النفس . فإذا امتحت عن النفس فقد
زكت وتطهرت من هذه الرذائل ، وتخلصت أيضاً من الغضب
الذي يصدر منها

أما علاج الغضب بعد هيجانه فيرجع إلى العلم والعمل . والعلم ستة أمور :

(١) أن يتفكر في الأخبار الواردة في كظم الغيظ ، والعفو ، والحلم ، والاحتمال

(٢) أن يخوف نفسه بعقاب الله ، فيذكر أن قدرة الله عليه أعظم من قدرته على من يريد أن يمضي فيه غضبه

(٣) أن يحذر نفسه عاقبة العداوة ، والانتقام ، وتشمير العدو لمقابلته ، والسعى في هدم أغراضه ، والشتم بمصائبه

(٤) أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب ، ومشابهة الغضب للكلب الضاري ، ومشابهة الحليم للأنبياء

(٥) أن يتفكر في السبب الذي يدعو إلى الانتقام ، ويمتنع من كظم الغيظ

(٦) أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشيء على وفق مراد الله لا على وفق مراده .

أما علاج الغضب بالعمل فهو أن تستعيز بالله من الشيطان الرجيم ، فإن لم ينفع ذلك ، فاجلس إن كنت قائماً ، واضطجع إن كنت جالساً ، واقرب من الأرض التي منها خلقت ؛ لتعرف ذل نفسك ، فإن لم ينفع ذلك فتوضأ ، أو اغتسل بالماء البارد

درء الشر بالشر

بعد أن بين الغزالي علاج الغضب ، وفضيلة الحلم ، وكظم الغيظ ، أخذ في بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام . وهو على الجملة لا يميز مقابلة الغيبة بالغيبة ، ولا مقابلة التجسس بالتجسس ، ولا السب بالسب ، وكذا سائر المعاصي . ويجوز أن ينتصر المظلوم لنفسه بالكلام في غير تلك المنكرات ، ولكن الأفضل تركه ، فإنه يجر إلى ما وراءه ، ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه . والسكوت عن الجواب لعله أيسر من الشروع في الجواب والوقوف على حد الشرع فيه .

ثم قسم الناس باعتبار الغضب الى أربعة أقسام : قسم سريع الوقود سريع الخمود ، وقسم بطيء الوقود بطيء الخمود ، وقسم سريع الوقود بطيء الخمود ، وهو شرّهم ، وقسم بطيء الوقود سريع الخمود . قال الغزالي وهو الأحمد مالم ينته الى فتور الحمية والغيرة .

وقد أوجب على صاحب السلطان أن لا يعاقب أحداً في حال غضبه لأنه ربما يتعدى الواجب ، ولأنه ربما يكون متغيظاً على المعاقب فيكون متشفياً لغيظه ومرحاً بنفسه من ألم الغيظ ،

فيكون صاحب حظ ، مع أن الواجب أن يكون انتقامه وانتصاره
لله تعالى لا لنفسه

ولا يفوتنا أن نذكر أن الغزالي كرر النصيح بتجنب من
من يتبجحون بتشفى الغيظ وطاعة الغضب ، ويسمون ذلك شجاعة
ورجولة . فان الفضل في الصفح الجميل

الفصل الثاني

رذيلة الحقد

هو فيما يرى الغزالي وليد الغضب ، فان الغضب إذا لزم
كظمه لعجز عن التشفى في الحال ، رجع إلى الباطن واحتقن فيه
فصار حقدًا ، ومعنى الحقد — كما نص على ذلك — أن يلزم المرء
قلبه استئصال المغضوب عليه ، والبغضة له ، والنفور منه ، وأن
يدوم ذلك ويبقى

وللحقد ما يأتي من النتائج :

(١) الحسد ، وهو أن يملك الحقد على أن تمنى زوال النعمة

عن عدوك ، فتغتم للنعمة تصيبه ، وتسر للمصيبة تنزل به

(٢) أن تزيد على إضرار الحسد في الباطن فتظهر الشماتة بما

أصابه من البلاء

(٣) أن تهجره وأصارمه وتنقطع عنه وإن طلبك وأقبل عليك

(٤) أن تعرض عنه استصغاراً له

(٥) أن تتكلم فيه بما لا يحل: من كذب، وغيبة، وإفشاء سر

وهتك ستر

(٦) أن تحاكيه استهزاءً به، وسخرية منه

(٧) أن تؤذيه بضرب أو شبهه مما يؤلم بدنه

(٨) أن تمنعه حقه: من قضاء دين، أو صلة رحم، أو رد مظالمه

قال الغزالي « وكل ذلك حرام . وأقل درجات الحقد أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة ، ولا تخرج بسبب الحقد الى ما يعصى به الله ، ولكن تستثقله في الباطن . ولا ينتهي قلبك عن بُغضه حتى تمتنع عما كنت تتطوع به من البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجاته ، أو الداء له ، والثناء عليه ، والتحريض على بره ومواساته . فهذا كله مما ينقص درجاتك في الدين ، وان كان لا يعرضك لعقاب^(١) »

وللحقود عند القدرة ثلاثة أحوال: الأولى استيفاء الحق

من غير زيادة ولا نقصان وهو العدل ، والثانية الاحسان بالعفو

والصلة وهو الفضل ، والثالثة الظلم ، وهو المنهى عنه

الفصل الثالث

رزيلة الحسد

هو احدى نتائج الحقد ، وله فيما يرى الغزالي أربع مراتب :
الأولى — أن يحب المرء زوال النعمة عن غيره ، وان كانت
لا تنتقل اليه ، وهذا غاية الخبث

الثانية — أن يحب زوالها إليه : لرغبته في مثل تلك النعمة ،
كأن يرى عند غيره امرأة جميلة ويجب أن تكون له ، فطلبه
تلك النعمة لا زوالها ، ومكروهه فقدتها لا تنعم غيره بها

الثالثة — أن لا يشتهي عينها لنفسه ، بل يشتهي مثلها ، فان
عجز عن مثلها أحب زوالها ، كي لا يظهر التفاوت بينهما

الرابعة — أن يشتهي لنفسه مثلها ، فإن لم تحصل فلا يحب زوالها
عنه ، وهذا الأخير هو المعفو عنه إن كان في الدنيا ، والمندوب
إليه إن كان في الدين

والرتبة الأولى مذمومة ، وتسمية الثانية حسداً تجوز ،
فإنما هي تمنى ما للغير ، وهو أيضاً مذموم لقوله تعالى (ولا تمنوا
ما فضل الله به بعضكم على بعض) والثالثة أخف من الأولى

أسباب وعلاجه

ويرى الغزالي أن أسباب الحسد ترجع إلى العداوة، والتعزز، والكبر، والعجب، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة، وحب الرياسة، وخبث النفس. وأكثر ما يكون الحسد بين الأمثال والأقران، والإخوة، وبنى العم، والأقارب، لأن كثرة الروابط تولد أسباب الحسد والبغضاء

وعلاج الحسد فيما يرى الغزالي ينحصر في تأديب النفس وتبصيرها بخطر هذه الرذيلة، فإن الحاسد إنما ينكر في غيره نعمة أنعم الله بها عليه، ومن واجب الرجل أن يشغل بنفسه، وأن يحفظ وقته فلا يضيعه فيما لا يفيده ولا يفيد، فليس أضيع من وقت يصرف في بغض نعمة لا يملك المرء زوالها عن سواه وقد قرر الغزالي أن الحسد يكاد يكون طبيعة في النفوس، وأن الأمل في السلامة منه بالكلية بعيد

الفصل الرابع

رذيلة العجب

للعالم بكمال نفسه في علم، أو عمل، أو مال، ثلاث حالات: الأولى - أن يكون خائفاً على زواله، ومشفقاً على تكدره،

أو سلبه من أصله ، وهذا ليس بمعجب
الثانية — أن لا يكون خائفاً من زواله ، ولكن يكون
فرحابه ، من حيث هو نعمة من الله ، لا من حيث إضافته إلى
نفسه ، وهذا أيضاً ليس بمعجب

الثالثة — أن يكون غير خائف عليه ، بل يكون فرحابه ،
مطمئناً إليه ، ويكون فرحه من حيث إنه كمال ونعمة ، وخير
ورفعة ، لا من حيث إنه عطية من الله ونعمة منه ، وهذا هو
العجب . فهو إذن استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان
إضافتها إلى المنعم . قال الغزالي : « فان انضاف إلى ذلك أن غلب على
نفسه أن له عند الله حقا ، وأنه منه بمكان ، حتى يتوقع بعمله كرامة
في الدنيا واستبعد أن يجرى عليه مكروها يزيد على استبعاده ما يجرى على
الفاسق سمي هذا إدلالاً بالعمل . . والادلال وراء العجب ، فلا مدل
إلا وهو معجب ، ورب معجب لا يدل ، إذ العجب يحصل بالاستعظام
ونسيان النعمة دون توقع جزاء ، والادلال لا يتم الا مع توقع جزاء .
والعجب والادلال من مقدمات الكبر وأسبابه (١) »

أسباب وعلاجه

وإليك ما يعجب به الناس مع وصف العلاج :
الأول — أن يعجب المرء بيده : في هيئته ، وصحته ، وقوته ،
وتناسب أشكاله ، وحسن صورته ، وجمال صوته .

وعلاجه أن ينظر في مصير الوجوه الجميلة ، والأبدان الناعمة ،
وكيف يعيث بها التراب

الثاني — البطش والقوة ، وعلاجه أن ينظر ما حل بقوم عاد
الثالث — العجب بالعقل ، والكياسة ، والتفطن لدقائق
الأُمور ، من مصالح الدنيا والدين . وآفة هذا الاستبداد بالرأى
وترك المشورة .

وعلاجه أن ينظر في مصير عقله لو أصيب بمرض في دماغه
الرابع — العجب بالنسب الشريف . وعلاجه أن يعلم أنه
مما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم ، وظن أنه يلحق بهم ،
فقد جهل

الخامس — العجب بنسب السلاطين الظلمة ، وأعوانهم ،
دون نسب العلم والدين .

وعلاجه أن يفكر في مخازيهم ، وفي مصيرهم يوم الحساب
السادس — العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم
والغلمان والعشيرة والأقارب والأُنصار والأَتباع . وعلاجه أن
يتفكر في ضعفه وضعفهم ، وأنهم كلهم عبيد عَجْزَة ، لا يملكون
لأنفسهم ضراً ولا نفعاً

السابع — العجب بالمال . وعلاجه أن يتفكر في آفات المال ،
وكثرة حقوقه ، وغوائله

الثامن - العجب بالرأى الخطأ ، كما قال تعالى : أفمن زين له
سوء عمله فرآه حسناً . قال الغزالي « وعلاج هذا العجب أشد من غيره ،
لأن صاحب الرأى الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه تركه ، ولا يعالج الداء
الذى لا يعرف ، والجهل داء لا يعرف ، فتعسرت مداواته جداً . . .
وإنما علاجه على الجملة أن يكون متبهما لرأيه أبداً لا يفتخر به إلا أن يشهد
له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقلى صحيح جامع لشروط الأدلة (١) »
وقد بين الغزالي فوق ما سلف أن العجب مع الله يدعو الى
نسيان الذنوب وإهمالها ، فبعض ذنوب المرء لا يذكرها ولا يتفقدتها
لظنه أنه مستغن عن تفقدتها فينساها . وما يتذكره منها يستصغره
ولا يستعظمه ، فلا يجتهد في تداركه وتلافيه ، بل يظن أنه يغفر له .
ومتى أُعجب المرء بأعماله عمى عن آفات أعماله . ومن لم يتفقد آفات أعماله
كان أكثر سعيه ضائعاً ، فإن الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة
نقية عن الشوائب قلما تنفع . وإنما يتفقد عمله من يغلب عليه
الخوف والاشفاق دون المعجب ، فإنه يفتخر بنفسه وبرأيه ، ويأمن
مكر الله وعذابه ، إذ يظن أنه قد استغنى وفاز ، وهذا هو الهلاك
الصريح الذى لا شبهة فيه . كما قال الغزالي

الفصل الخامس

رفيد الكبر

يقسم الغزالي الكبر : الى باطن وظاهر . فالباطن هو خلق في النفس . والظاهر هو أعمال تصدر من الجوارح . ويسمى الباطن الكبر ، والظاهر التكبر . والكبر فيما يرى ثمرة العجب . وينفصل عنه بأنه يتطلب متكبراً عليه ، بخلاف العجب ، فقد يعجب المرء بنفسه ، وماله ، وعمله ، ولو خلق وحده

والتكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام :

الاول - التكبر على الله وهو أخش أنواع الكبر ، ومثاله

ما كان من فرعون

الثاني - التكبر على الرسل ، ومثاله ما كان من قريش

وبني اسرائيل

الثالث - التكبر على العباد ، بأن يستعظم المرء نفسه ،

ويستحقر غيره

أسباب التكبر

وللتكبر سبعة أسباب :

الاول - العلم ، وما أسرع الكبر الى العلماء :

الثاني — العمل والعبادة . ولكن العلماء والعُبَاد في آفة
الكبر على ثلاث درجات : الأولى ، أن يكون الكبر مستقراً
في قلب المرء فيرى نفسه خيراً من غيره ، إلا أنه يجتهد ويتواضع
ويفعل فعل من يرى غيره خيراً من نفسه ، وهذا قد غرست
في نفسه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها . الثانية ، أن يظهر ذلك
على أفعاله بالترفع في المجالس والتقدم على الأقران واطهار الانكار
على من يقصّر في حقّه ، بتصغير خده وتقطيب جبينه . قال الغزالي
« وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب ، ولا في الوجه
حتى يعبس ، ولا في الخد حتى يسعر ، ولا في الرقبة حتى تغطأ ، ولا
في الذيل حتى يضم ، وإنما الورع في القلوب (١) »

الثالثة ، أن يظهر الكبر على لسانه حتى يدعو إلى الدعوى
والمفاخرة والمباهاة وتزكية النفس وحكاية الأحوال والمقامات

الثالث — التكبر بالحسب والنسب

الرابع — التفاخر بالجمال ، وأكثر ما يجري هذا بين النساء

الخامس — التكبر بالمال ، ويجري هذا بين الملوك في خزائنهم

وبين التجار في بضائعهم ، وبين الدهاقين في أراضيهم ، وبين

المتجملين في ملابسهم ، وخبولهم ، ومرآكبيهم

السادس — التكبر بالقوة وشدة البطش

السابع — التكبر بالأتباع والأَنْصار والتلامذة والغلمان
وبالعشيرة والأقارب ، ويجرى ذلك بين الملوك في المكاثرة بالجنود
وبين العلماء في المكاثرة بالمستفيدين

قال الغزالي « وبالجملة فكل ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كالأ
وإن لم يكن في نفسه كالأ يمكن أن يتكبر به (١) »

وعلامات التكبر — كما ذكر الغزالي — تظهر في شمائل
الرجل : كصعْر خده ، ونظره شزراً ، وإطرافه برأسه ، وفي
جلوسه متكئاً . وتظهر في مشيته ، وتبخيره ، وقيامه وقعوده ،
وحركاته وسكناته ، وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله
وإزالة الكبر — فيما يرى الغزالي — فرض عين ، وهو
لا يزول بمجرد التمني ، بل بالمعالجة ، واستعمال الأدوية القائمة له

علاجه

ولعلاجه طريقتان :

الأولى — قلع شجرته من مغرسها في القاب ، وذلك بمعرفة
المرء نفسه بالذلة ، وربّه بالعزة ، الى آخر ما قال الغزالي
الثانية — دفع عارض الكبر ، بدفع الأسباب الخاصة التي
يتكبر بها الإنسان على غيره ، وأنت لا تزال قريباً من تلك

الأسباب السبعة التي توجب التكبر فيما يراه ، وقد وضع لكل سبب علاجاً خاصاً ، غير أنه لا يفترق كثيراً عما لخصناه له من علاج العجب ، فلنكتف به ، فإن أسباب هاتين الرذيلتين تكاد تكون واحدة ، وإن كانت الثانية نتيجة الأولى

الفصل السادس

آفات اللسان

وقد رأى الغزالي أن اللسان ثير العثرات ، ولا بد للمرء من ضبطه ، فبسط القول في آفاته ، وكتب في ذلك نحو خمسين صفحة ، يتن فيها حدود تلك الآفات ، وأسبابها ، وغوائلها ، وطريق الاحتراز عنها

وقد مهد لآفات اللسان بكلمة مطولة حض فيها على الصمت ، ثم قال في تبرير ما دعا إليه من الإخلاد إلى السكوت « فان قلت : فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه ؛ فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ ، والكذب ، والغيبة ، والتميمة ، والرياء ، والنفاق ، والفحش ، والمراء ، وتزكية النفس ، والخوض في الباطل ، والخصومة ، والفضول ، والتحريف ، والزيادة ، والنقصان ، وايداء الخلق ، وهتك العورات

فهذه آفات كثيرة ، وهي سبّاقة إلى اللسان ، لا تثقل عليه ، ولها

حلاوة في القلب ، وعليها بواعث من الطبع ، ومن الشيطان . والخائض فيها قاما يقدر أن يمسك اللسان ، فيطلقه بما يجب ، ويمسكه ويكفه عما لا يجب ، فان ذلك من غوامض العلم »

ثم خشي أن يرميه القارئ بالامراف فقال « ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر : وهو أن الكلام أربعة أقسام : قسم هو ضرر محض ، وقسم هو تنفع محض ، وقسم فيه ضرر ومنفعة ، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة . أما الذي هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تنفي بالضرر . وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول ، والاشتغال به تضييع زمان ، وهو عين الخسران

فلم يبق إلا القسم الرابع ، فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام . وبقى ربع ، وهذا الربع فيه خطر إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء ، والتصنع ، والغيبة ، وزكية النفس ، وفضول الكلام ، امتزاجاً يخفى دركه ، فيكون الانسان به مخاطراً ^(١) »

وهذا من الغزالي إغراق في حب السلامة . ونحن ذاكرون خلاصة هذه الآفات ، لنعرف رأيه في طبائع الأفراد

الكلام فيما لا يعنى

أما الآفة الأولى : فهي الكلام فيما لا يعنى ، وحدّه — كما قال الغزالي — أن تتكلم بكل ما لو سكنت عنه لم تأثم ، ولم تستضر به في حال ، أو مآل . ومن أمثله فيما يرى أن يذكر المرء أسفاره وما رأى فيها من جبال وأنهار ، وما وقع له فيها من الوقائع

وما استحسنه من الأُطعمة والثياب ، وما تعجب منه من مشايخ
البلاد وحوادثهم .

ولم يتنبه الغزالي لخطر هذا المثال : فان الكلام عن الأسفار
والرحلات من الأمور ذوات البال ، والتحدث عن طبائع البلاد
وأخلاق الناس من المستحسنات . ونحن مدينون بما نعلم من
عادات الأمم وأخلاقها إلى هؤلاء الذين يتحدثون بما لا يعنيههم ،
فيقصون علينا ما رأوا في أسفارهم من الجبال ، والأنهار ، والأطعمة
والثياب ، وان عد الغزالي حديثهم ولو احترزوا تضيقاً للزمان .

ومما أصاب في عده مما لا يعنى أن ترى انساناً في الطريق
فتقول من أين ؟ فربما يمنعه مانع من ذكره ، فإن ذكر تأذى به
واستحيا ، وإن لم يصدق وقع في الكذب ، وكنت السبب فيه .
وكذلك سؤالك امراً عن المعاصي ، وعن كل ما يخفيه ويستحي منه ،
وسؤالك عما حدث به غيرك

والباعث على هذه الآفة — فيما يرى — هو الحرص على
معرفة ما لا حاجة به إليه ، أو المباشرة بالكلام على سبيل التودد ،
أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها

وأما علاج ذلك فهو أن يعلم أن الموت بين يديه ، وأنه
مستول عن كل كلمة ، وأن أنفاسه رأس ماله ، وأن لسانه شبكة

يقدر على أن يقتنص بها الحور العين ، فإهماله ذلك وتضييعه
خسران مبين

يقول الغزالي « هذا علاجه من حيث العلم ، وأما من حيث العمل
فالعزلة ، وأن يضع حصاة في فيه ، وأن يلزم نفسه السكوت عن بعض
ما يعنيه، حتى يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه ^(١) » (!؟)

فضول الكلام

أما الآفة الثانية فهي فضول الكلام . وهو يتناول الخوض
فيما لا يعنى، والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة . فإن من يعنيه أمر
يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ، ويمكنه أن يجسمه ويقرره
ويكرره . قال الغزالي « ومهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر
كلمتين ، فالثانية فضول وهو مذموم وإن لم يكن فيه اثم ولا ضرر ^(٢) »
وسبب هذه الآفة وعلاجها مماثلان لسبب وعلاج الكلام
فيما لا يعنى

الخوض في الباطل

وأما الآفة الثالثة فهي الخوض في الباطل . وعد الغزالي منه
حكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ، ومقامات الفساق ، وتنم
الأغنياء ، وتجبر الملوك ، ومراسمهم المذمومة ، وأحوالهم المكروهة

(١) ١٢١ ج ٣ — إحياء (٢) ١٢١

وقرر أن مثل هذا لا يحل الخوض فيه وهو حرام ، بخلاف الكلام فيما لا يعنى أو أكثر مما يعنى فهو ترك الأولى . ويدخل الغزالي في هذا الباب الخوض في حكاية البدع والمذاهب الفاسدة ، وحكاية ماجرى من قتال الصحابة على وجه يوم الطعن في بعضهم . ثم قال « وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفنيها فلذلك لا يخلص منها إلا بالاختصار على ما يعنى من مهمات الدين والدنيا (١) »

المراء والمجوال

أما الآفة الرابعة فهي المراء والجدال . والمراء كما حده الغزالي « هو كل اعتراض على كلام الغير باظهار خلل فيه . إما في اللفظ ، وإما في المعنى ، وإما في قصد المتكلم »
وترك المراء فيما يرى يكون بترك الإنكار والاعتراض ، فكل كلام سمعه المرء صدق به إن كان حقاً ، وسكت عنه إن كان باطلاً أو كذباً . ولم يكن متعلقاً بأمور الدين . وليس له أن يطعن في كلام غيره باظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللغة ، أو من جهة النظم والترتيب ، أو من جهة المعنى ، أو من جهة القصد : كأن يقول هذا كلام حق ، ولكن ليس قصدك منه الحق ، وإنما أنت فيه صاحب غرض . يقول الغزالي « وهذا الجنس إن جرى في مسألة علمية ربما خص باسم الجدال . وهو

أيضاً مذموم ، بل الواجب السكوت أو السؤال في معرض الاستفادة
لأعلى وجه العناد . أو التلطف في التعريف لافي معرض الطعن «
» وأما المجادلة فعبارة عن قصد إخم الغير ، وتمجيزه ، وتنقيصه
بالقدح في كلامه ، ونسبته إلى القصور والجهل فيه «

والباعث على المرء والجدال فيما يرى الغزالي هو الترفع باظهار
العلم والفضل ، والهجوم على الغير باظهار نقصه ، وهما شهوتان
باطنتان للنفس يرجعان إلى السبعية والكبرياء

وأما العلاج فيكون بكسر الكبر الباعث له على إظهار
فضله ، والسبعية الباعثة له على تنقيص غيره (والسبعية في عبارات
المتقدمين هي القوة الوجدانية المشتركة بين الانسان وبين كبار
الحيوانات : فالانتقام قوة سبعية لأنه من صفات الجمل ، والعفة
عن أكل ما يكسب الغير قوة سبعية لأنه من صفات الأسد ،
إذ لا يأكل غير فريسته)

الخصومة

أما الآفة الخامسة فهي الخصومة . وهي لجأ في الكلام
ليستوفى به مال أو مقصود . قال الغزالي « فان قلت : فاذا كان
للانسان حق فلا بد له من الخصومة في طلبه أو في حفظه ، مهاظلمه ظالم ،
فكيف يكون حكمه ، وكيف تدم خصومته ؟ فاعلم أن هذا الدم يتناول
الذي يخاصم بالباطل والذي يخاصم بغير علم ، ويتناول الذي يزج

بالخصومة كلمات مؤذية لا يحتاج إليها في نصره الحجة وإظهار الحق .
ويتناول الذي يحمله على الخصومة محض العناد لقمه الخصم وكسره ...
فاما الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لد وإسراف وزيادة
لجأ على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس بحرام ،
ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلاً »

وقديين الغزالي كيف توغر الخصومة الصدر ، وتهيج الغضب
حتى ينسى المتنازع فيه ، ويبقى الحقد بين المتخاصمين : فيفرح كل
واحد بمساءة صاحبه ، ويحزن بمسرتة ، ويطاقق اللسان في عرضه .
فن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات

التعمر في الكلام

الآفة السادسة هي التعمر في الكلام بالتشديق ، وتكاف
السجع والفصاحة ، والتصنع فيه بالتشبيهات والمقدمات ، وما جرت
به عادة المتفاسحين

والغزالي يفرق بين من يلقى خطبة ، وبين من يتكلم كلاماً
عادياً ، ولا حرج على الخطيب فيما يرى الغزالي أن يلجأ إلى
المحسنات اللفظية ، في غير إفراط أو إغراب ، فإن المقصود من
الخطبة تحريك القلوب ، وتشويقها ، وقبضها ، وبسطها ، ولرشاقة
اللفظ في ذلك كله تأثير

أما المحاورات التي تجرى لقضاء الحاجات، فالغزالي ينكر أن يكون فيها أي مظهر من مظاهر التكلف كالسجع أو غيره « بل ينبغي أن يقتصر المرء في كل شيء على مقصوده، ومقصود الكلام التفهيم للغرض، وما وراء ذلك تصنع مذموم »
والآفة الخلقية للتصنع فيما يرى الغزالي ترجع إلى الباعث عليه: وهو الرياء، وحب الظهور بالفصاحة، والتميز بالبراعة

الفحش

الآفة السابعة هي الفحش، وهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة. وهذه العبارات متفاوتة في الفحش، وبعضها أخش من بعض، وربما اختلف ذلك بعادة البلاد. وقد ذكر الغزالي من ذلك ما يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به، والعيوب التي يستحيا منها كالبرص والقراع والبواسير، ثم حض على استعمال الكناية في مثل تلك المواطن

والباعث على الفحش فيما يرى: إما قصد الإيذاء، وإما الاعتقاد الحاصل من مخالطة الفساق، وأهل الخبث واللؤم
وقد عد الغزالي الفحش والسب والبذاء آفة واحدة، وأضاف إليها (البيان) الوارد في حديث (البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق) وفسر هذا البيان بكشف ما لا يجوز كشفه، أو المبالغة

في الإيضاح حتى ينتهي إلى حد التكلف. أو البيان في أمور الدين ، وفي صفات الله أمام العوام ، إذ قد يثور من غاية البيان فيها شكوك ووساوس

اللعن

أما الآفة الثامنة فهي اللعن ، لحيوان أو انسان أو جناد ، وكل ذلك مذموم

وللغزالي في هذا الباب نظر دقيق : فهو لا يجيز أن تقول في رجل حي من اليهود مثلاً لعنه الله ، كما تقول لعن الله أبا جهل وفرعون ، فإنه ربما يسلم فيموت مقرباً عند الله ، ولا يجيز أن يلعن المبتدع لأن معرفة البدعة غامضة « ومن بان لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه ان لم يكن فيه أذى لمسلم ، فان كان لم يجز . ولا يجوز لعن يزيد ، لأنه لا يجوز أن يقال إنه قتل الحسين أو أمر بقتله ما لم يثبت ذلك . فضلا عن اللعنة : إذ لا يجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق ، ولا يجوز أن يرمى مسلم بفسق وكفر من غير تحقيق » قال الغزالي « والمؤمن ليس بلعان ، فلا ينبغي أن يطلق اللسان باللعنة إلا على من مات على الكفر ، أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الأشخاص المعينين »

المزاح

الآفة التاسعة هي المزاح ، والمذموم منه فيما يرى الغزالي هو

الإفراط فيه ، أو المداومة عليه . فلك أن تمزح كما كان يمزح رسول الله : فلا تقول إلا حقاً ، ولا تؤذي قلباً ، ولا تفرط فيسقط وقارك

الاستهزاء

أما الآفة العاشرة فهي الاستهزاء . وحده كما قال الغزالي : « الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء »

وقد نص الغزالي على أن هذا إنما يحرم في حق من يتأذى به ، فأما من جعل نفسه مسخرة ، وربما فرح من أن يسخر به ، كانت السخرية في حقه من جملة المزاح فله حكمه ، لأن المحرم هو استصغار يتأذى به المستهزأ به ، لما فيه من التحقير

إفشاء السر

الآفة الحادية عشرة هي إفشاء السر ، وهو مذموم لما فيه من الإيذاء والتهاون في حق المعارف والأصدقاء ، يقول الغزالي : وهو حرام إذا كان فيه إضرار ، ولؤم ان لم يكن فيه إضرار وقد عد من حقوق الأخ على أخيه في كتاب الصحبة : « أن يسكت عن إفشاء سره الذي استودعه ، وله أن ينكره وإن كان كاذباً ، فليس الصدق واجباً في كل مقام ، فانه كما يجوز للرجل أن يخفي

عيوب نفسه وأسراره وان احتاج إلى الكذب ، فله أن يفعل ذلك في حق أخيه . فان أخاه نازل منزلته ، وهما كشخص واحد لا يختلفان إلا بالبدن »

الوعد الطائب

الآفة الثانية عشرة هي الوعد الكاذب ، وقد بين الغزالي أن ذلك يكون بالوعد على نية الخلف ، أو ترك الوفاء من غير عذر ، ولا جناح على من عزم على الوفاء فعن له عذر فثمنه

الكذب في القول واليمين

الآفة الثالثة عشرة هي الكذب في القول واليمين . وقد نص الغزالي على « أن الكذب ليس حراماً لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره ، فان أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلاً ، وقد يتعلق به ضرر غيره . ورب جهل فيه منفعة ومصالحة . فالكذب المحصل لذلك الجهل يكون مأذوناً فيه وربما كان واجباً » وقد بينا المواطن التي أباح الغزالي فيها الكذب حين تكلمنا عن رأيه في الوسائل والغايات

الغيبية

الآفة الرابعة عشرة هي الغيبية . وحدتها « أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه ، سواء ذكرته بنقص في بدنه ، أو نسيه ، أو في خلقه ، أو في فعله ، أو في قوله ، أو في دينه ، أو في دنياه ، حتى في ثوبه وداره ودابته »

وقد نص على أن التصريح ليس شرطاً في تحقق الغيبة ، بل
تكفي الإشارة ، والايحاء . والغمز ، والهمز ، والكتابة ، والحركة ،
وكل ما يفهم منه المقصود

وللغيبة أسباب نذكر منها الأربعة الآتية :

(١) موافقة الأقران ، ومجاملة الرفقاء ، ومساعدتهم على

الكلام

(٢) ارادة التصنع ، والمباهاة ، كأن يرفع المرء نفسه

بتنقيص غيره

(٣) اللعب ، والهزل ، والمطايبة ، وتزجية الوقت بذكر

عيوب الناس

(٤) البراءة مما ينسب المرء إليه بتنقيص من يفعله

وقد تنبه الغزالي الى ما يقع فيه علماء الدين ، فقد ينكرون

المنكر ، ويقعون في صاحبه ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ،
مع أنه يكفيهم أن يشخصوا المنكرات ، بلا تعرض للأشخاص ،

وقد يفضيئون لله حين يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر ،

ولكنهم يذكرون أشخاصا بالسوء ، فيحبطون ما يعملون

والغزالي يصف لعلاج الغيبة قراءة الآثار والأحاديث

الواردة في هذه الآفة . وقد عد سوء الظن غيبة القلب ونهى

عنه ، ثم ذكر المواطن التي تجوز فيها الغيبة ، وقد فصلناها أيضا
في الوسائل والغايات ، كما بينا رأيه في كفارة الغيبة في الخروج
من المظالم

النميمة

الآفة الخامسة عشرة هي النميمة . وهي كما يقول الغزالي
« كشف ما يُكره كشفه ، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه ،
أو كرهه ثالث . وسواء كان الكشف بالقول ، أو بالكتابة ، أو بالرمز ،
أو بالإيماء . وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء
كان ذلك عيباً ونقصاً في المنقول عنه أو لم يكن ^(١) »
ولم يقتصر الغزالي على تقييح النميمة ، وعدها من آفات

اللسان ، بل وضع للرجل آداباً خاصة إزاء النمام . وهي :

(١) أن لا يصدقه ، لأن النمام فاسق ، وهو مردود الشهادة

(٢) أن ينهأ عن ذلك ، وينصح له ، ويقبح عليه فعله

(٣) أن يبغضه في الله ، فإنه يبغض عند الله

(٤) أن لا يظن بأخيه الغائب السوء ، فإن بعض الظن إثم

(٥) أن لا يحمل ما حكى له على التجسس ، والبحث لأجل

التحقق

(٦) وأن لا يحكى النميمة ، وإلا رضى لنفسه ما نهى النمام عنه

قال الغزالي « والسعاية هي النيمة ، إلا أنها اذا كانت الى من يخاف جانبه سميت سعاية » ثم نقل قول مصعب بن الزبير (نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية ، لأن السعاية دلالة والقبول إجازة ، وليس من دل على شيء فأخبر به كمن قبله وأجازه ، فاتقوا الساعي ، فلو كان صادقاً في قوله لكان لثيماً في صدقه ، حيث لم يحفظ الحرمة ، ولم يستر العورة^(١) ولا شك في أن الغزالي يرتضى حكم مصعب في قبول السعاية ، لأنه لم يعقب عليه ، ولم يذكر من أقوال السالف ما ينتقضه . والسعاية والنيمة شيء واحد ، أو كأنهما شيء واحد ، فمن الواجب أن تكون آداب المرء واحدة إزاء النمامين والسعاة ، وهو ما نحسبه رأى الغزالي وان لم يصرح به

وفي الوسائل والغايات تجد ما يجوز من النيمة فيما يرى

الغزالي

كلام ذي اللسانين

الآفة السادسة عشرة هي كلام ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعادين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه وهو فيما يرى الغزالي نفاق « ولو دخل الرجل على متعادين وجامل كل واحد منهما وكان صادقاً لم يكن ذا لسانين ولم يكن منافقاً ، فإن الواحد قد يصادق متعادين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهي إلى حد الأخوة ، إذ لو تحققت الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء . نعم لو نقل كلام كل واحد منهما الى الآخر

فهو ذو لسانين وهو شر من النخيمة ، اذ يصير تماماً بأن ينقل من أحد الجانبين فقط ، فاذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام . وان لم ينقل كلاماً ، ولكن حسّن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعادة لصاحبه فهذا ذو لسانين . وكذلك اذا أتى على أحدهما واذا خرج من عنده ذمه فهو ذو لسانين . بل ينبغي أن يسكت ، أو يثنى على المحق من المتعادين في غيبته وفي حضوره ، وبين يدي عدوه . . . ولا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كلام باطل ، فان فعل ذلك فهو منافق ، بل ينبغي أن ينكر ، فان لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه (١)»

المدح

الآفة السابعة عشرة هي المدح ، وهو منهي عنه في بعض المواضع ، وفي بعضها لا بأس به ، بل ربما كان مندوباً إليه ، وقد بين الغزالي أن لهذه الرذيلة أربع آفات في حق المادح ، واثنتين في حق المدوح ، أما آفات في حق المادح فهي :

(١) أنه قد يفرط فينتهي به الإفراط إلى الكذب

(٢) وقد يدخله الرياء ، فانه بالمدح مُظهر للحب ، وقد لا يكون مضمراً له ، ولا معتقداً لجميع ما يقوله ، فيصير به مرائياً منافقاً

(٣) وقد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه

ويرى الغزالي أن هذه الآفة تنطرق إلى المدح بالأوصاف المطلقة التي تعرف بالأدلة : كقولك انه متق ، وورع ، وزاهد ، وخير ، وما يجري مجراه

(٤) وقد يفرح المدوح ، وهو ظالم أو فاسق ، وذلك

غير جائز

أما آفاتهما في حق المدوح فهي :

- ١ — أن المدح قد يحدث فيه كبراً وإعجاباً وهما مهلكان
- ٢ — وأنه إذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتن ، ورضى عن

نفسه ، فقل جده

وبعد أن بين الغزالي آفات المدح ، دعا المدوح إلى أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر ، والعجب ، وآفة الفتور ، بأن يتأمل مافي خطر الخاتمة ، ودقائق الرياء ، وآفات الأعمال ، فإنه يعرف من نفسه مالا يعرفه المادح ، ولو انكشفت له جميع أسرارها ، وما يجري على خواطره ، لكف المادح عن مدحه ، وحضه كذلك على أن يظهر كراهة المدح بإذلال المادح

الفقرة

الآفة الثامنة عشرة هي الغفلة عن دقائق الخطأ في خوى الكلام ، لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته ، ويرتبط بأمور الدين

ومن الأمثلة التي ذكرها الغزالي أنه لا يصح أن تقول
عبدى وأمتى ، لأننا جميعاً عبيد الله ، ونساؤنا جميعاً إماء الله ، بل
تقول غلامى وجارىتى الخ

السؤال عن صفات الله

الآفة التاسعة عشرة هي سؤال العوام عن صفات الله تعالى
وعن كلامه ، وعن الحروف ، وأنها قديمة أو محدثة . يقول الغزالي :
« وكل كبيرة يرتكبها العاصي فهي أسلم له من أن يتكلم في العلم ، لاسيما
فيما يتعلق بالله وصفاته ، وإنما شأن العوام الاشتغال بالعبادات ، والايان
بما ورد به القرآن ، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث . وسؤالهم
عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم يستحقون به المقت من الله
عز وجل ، ويتعرضون لخطر الكفر ، وهو كسؤال ساسة الدواب عن
أسرار الملوك ، وهو موجب للعقوبة (١) »

الفناء

الآفة العشرون هي الفناء ، وتجد تفصيلها في البحث عن رأيه
في الفنون .

وإنه ليخيل إلى المرء أن الغزالي بالغ في آفات اللسان ،
ولكن هذه المبالغة ليست إلا نوعاً من الاحتياط ، وهي ليست
كبيرة على من يطمع في مكارم الأخلاق

الفصل السابع

رذيلة الرياء

إنك لترحم الغزالي حين تقرأ ما كتبه عن الرياء ، فانك تتصوره رجلاً كاد يُجَنِّ من غلبة الجهال في عصره . ويكفي أن نلخص آراءه في هذا الباب لئرى كيف كان الرجل يمتق الرياء ، ويبغض من أعماق صدره أعمال المرائين

فما يمتقته الغزالي أن يظهر المسلم النحول والصفار ، ليدل بالنحول على قلة الأكل ، وبالصفار على سهر الليل . يقول الغزالي « ويقرب من هذا خفض الصوت ، وإغارة العينين ، وذبول الشفتين ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم ، وأن وقار الشرع هو الذى خفض صوته ، وضعف الجوع هو الذى أضعف من قوته »

ومن الرياء تشعيث الشعر ، وحلق الشارب ، وإطراق الرأس فى المشى ، والهدوء فى الحركة ، وإبقاء أثر السجود على الوجه ، وغاظ الثياب ، وتشميرها إلى قريب من الساق ، وتقصير الأكمم وترك تنظيف الثوب ، والتطويل فى الركوع والسجود الخ

ولم يغفل الغزالي عن الشئون الاجتماعية وهو يتكلم فى الرياء فقد بين أن من الناس من يظهر التقوى والورع والامتناع عن

أكل الشبهات ، ليعرف بالأمانة فيؤتَى القضاء ، أو الأوقاف ،
أو الوصايا ، أو مال الأيتام ، فيأخذها . أو يسلم إليه تفرقة الزكاة
أو الصدقات ليستأثر بما قدر عليه منها . أو يودع الودائع فيأخذها
ويجدها . أو أسلم إليه الأموال التي تنفق في طريق الحج
فيخزل بعضها أو كلها الخ

وللغزالي في هذا الباب نظر بعيد : فهو يعين العيوب
الاجتماعية ، ويشرح عيوب العلماء والزهاد . ويظهر أن الناس
لعهده كانوا يتخذون دين الله سُلماً لأغراضهم الخبيثة : من الفسق
والفجور ، ونهب الأموال

وأكرر ما قلته من أن الغزالي لا يفضح إلا حين يحارب
رذيلة يراها بعينه ، فكلامه في ذلك صورة لعصره ، وليس أثراً
لمطالعته في الكتب القديمة التي تصف عيوب الناس . وفي مقدور
الباحث أن يستخرج من كتاب الاحياء صورة واضحة للعلماء
والزهاد في عهد الغزالي . ولا أقول الحكماء والأمرء ، لأنه تكلم
عن الحكومة لعهده بضعف وفتور ، ولم يقارن السلاطين
شيئاً من لسانه الحديد !!

الباب التاسع

في

العلوم والفنون والتربية

نذكر في هذا الباب خلاصة آراء الغزالي في العلم والعمل والفرق بين علم الدنيا وعلم الآخرة ، وكيف يفهم علم الفقه ، وعلم التوحيد ، ثم نذكر بالإيجاز فهمه للفنون الجميلة ، ثم نبين المنهج الذي وضعه لتربية الأطفال ، وما يراه من آداب المعلمين والمتعلمين وكيف أهمل تربية البنات .

الفصل الأول

العلوم

تكلم الغزالي عن العلم والعمل ، وأيهما أفضل للمريد ، في مواطن كثيرة من مؤلفاته في الأخلاق وقد لاحظت أنه لم يكن مؤحداً للرأى في هذا البحث ، فتارة يُقدم العلم على العمل ، وأخرى يقدم العمل على العلم . ويخيل إلى أن نزعتة الصوفية كانت سبب هذا التردد ، بل

وأحسب أيضاً أنه كان يدارى أهل عصره ، ويسايرهم في كثير من الشئون . فقد أراه يهيم بالكشف عن المقصود من العلم المفضل عن العمل ثم يتراجع . ولو جرؤ قليلاً لبين لنا أن العلم النافع لا يقتصر على معرفة العبادات ، وما إليها من دقائق التصوف والتوحيد ، بل هنالك البحث في طبائع الأشياء ، والتنقيب عن السر في أن الله سخر لنا ما في الأرض جميعاً

غير أنه لم يكذب ذكر قوله عليه السلام : فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر ، حتى اندفع يقول « ذلك العلم المقدم على العمل لا يخلو : إما أن يكون هو العلم بكيفية العمل ، وهو الفقه وعلم العبادات ، وإما أن يكون علماً سواه . وباطل أن يكون الأول لوجهين : أحدهما أنه فضل العالم على العابد ، والعابد هو الذي له العلم بالعبادة ، وإلا فهو عايب فاسق ، والثاني أن العلم بالعمل لا يكون أشرف من العمل ، لأن العلم بالعمل لا يراد لنفسه ، وإنما يراد للعمل ، وما يراد لغيره يستحيل أن يكون أشرف منه »

وكان المظنون بعد هذه المقدمة أن يعطى العلوم ما تستحق من التفضيل . ولكنه قسمها إلى قسمين : عملي ونظري . أما العملي فقد قدم أنه ليس أفضل من العمل ، وأما النظري فقد زينه جميعه ، ولم يستبق منه إلا ما يرجع « إلى العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وملكوت السموات والأرض ومعجائب النفوس الانسانية والحيوانية من حيث إنها مرتبطة بقدرة الله عز وجل لا من حيث ذواتها »

مناقشة قصيرة

من هنا يتبين أن واجب العابد لا يخرج عن العبادة والتفكير في المعبود ، وما إلى ذلك من معرفة الملائكة والكتب والرسل .
وملكوت السموات والأرض إلى آخر مقال
ونسأل الغزالي : ما رأيه إذا توقف فهم الكتب السماوية على إدراك روح التشريع ، بفهم أصول القوانين ؟
وما رأيه إذا توقف فهم « عجائب النفوس الانسانية والحيوانية » على علم النفس ، وعلم وظائف الأعضاء ؟
وما رأيه إذا اقتضت معرفة الرسل درس التاريخ القديم والحديث ، لفهم ما قد يضطر إليه المشرعون من الرسل والانبياء في مختلف العصور ؟
وما رأيه إذا توقف إدراك ما في الكتب السماوية من سياسة الناس على علم الاجتماع ؟
لم ينكر الغزالي أهمية العلوم العقلية ، والنقلية ؛ ولكنه جعل بعضها وسيلة للعلوم النظرية ، والوسيلة بالطبع دون الغاية في الرتبة . وجعل بعضها علوما عملية ، وهي أيضا وسيلة للعمل ، فلا يعقل أن تكون أشرف منه !

فلم يبق من العلم المقدم على العمل إلا العلم بالله وملائكته
ورسله واليوم الآخر؛ وهو في ذاته علم شريف
ولكني أحب أن أضع هذا السؤال: أيكون من يشغل
نفسه بهذا النوع من المعرفة أفضل أمام العقل والشرع ممن أفنى
عمره في درس الطب حتى استطاع أن يعرف كيف تُغزى الديدان
التي تحدث البول الدموي، والتي تهلك في كل عام ما يعد بالملايين؟
وهل يقدم محي الدين بن عربي يوم القيامة، على من يقضى حياته
لا في التفكير في ملكوت الله، بل في غزو السل والسرطان؟

الشك طريق البقين

وبمناسبة العلم نثبت قول الغزالي في نهاية الميزان « ولو لم يكن
في مجاري هذه الكلمات إلا ما يشكك في اعتقادك الموروث لتنتدب
للطلب، فناهيك به نفعاً. إذ الشكوك هي الموصلة للحق، فمن لم يشك
لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال »
غير أن الغزالي لم يبين لنا مصير المرء إذا بقي في شكه، ولم
يهتد إلى اليقين. وما نحسب عصر الغزالي كان يسمح له بتحرير
هذه المسألة، وإن كانت غاية في الوضوح. فتي كان المرء حراً
في أن لا يثق بعقيدة قديمة مهما أجمع عليها الناس لاحتمال أن
تكون باطلة، فهو بالضرورة غير مسئول عن الوصول إلى

نتيجة معينة ، وإنما يسأل عن اعتقاد ما أدّاه إليه الدليل
ولا يفوتنا أن نلفت النظر إلى أن الغزالي نبه في عدة
مواطن من كتبه إلى أنه يجب على المعلم أن يتجنب كل ما يثير
الشك في نفوس الضعفاء ، وحض المرشد على الاقتصار مع العامة
على المتداول المألوف . ومعنى هذا أن الشك وإن كان سبيل
اليقين ، إلا أنه لا يستعمل إلا بمقدار . وهذا المنهج يبين لنا أن
الغزالي يحرص على وحدة الهيئة الاجتماعية ، وينفر من كل ما يقربها
من الانحلال . فللعلماء أن يشكّوا وأن يختلفوا ، ولكن عليهم
أن يجنبوا العامة مواطن الشك والخلاف ، ومن هنا نفهم كيف
يرى أن الاجابة على بعض الأسئلة حرام . وسنعود إلى هذا
البحث عند الموازنة بينه وبين الفلاسفة المحدثين

علم الفقه

وقد بلغ من إغراب الغزالي في التصوف أن جعل الفقه من
علوم الدنيا ، وألحق الفقهاء بعلماء الدنيا . وأنت تعلم قيمة الدنيا عنده؛
ولكن أليس الفقه هو معرفة القوانين التي يُسّاس بها
الناس؟ ليكن كذلك ؛ إذ ما قيمة هؤلاء الناس؟ أليس الله أخرج
آدم من التراب ، وأخرج ذريته من سلالة من طين ، ومن ماء

دافق ، فأخرجهم من الأَصلاب إلى الأرحام ، ومنها إلى الدنيا
ثم إلى القبر ، ثم إلى العرض ، ثم إلى الجنة أو النار ؟ وإذ كان هذا
مبدأهم ، وهذه غايتهم ، وكانت الدنيا زادهم ، فاقيمة الفقه ، وما
هي أقدار الفقهاء ؟ أليسوا يفصلون في خصومات لو عدلنا
ما احتجنا إلى أن يفصلوا فيها ، ولما كان لهم قيمة في هذا الوجود ؟
هذا هو منطق الغزالي !

والحمد لله الذي رحم الشرق وأهله من علم الفقه ، ومن عليهم
بالقوانين الأجنبية التي يقدم إليها أصحابها آيات التقديس ، عند
الشروق وعند الغروب !

الفقه لا قيمة له في نظر الغزالي ، لأنه يتعلق بسياسة هؤلاء
الناس المناكيد ، الذين اضطرونا بشرهم إلى الفقه والفقهاء ، والذين
لوعدلوا لما احتجنا إلى قاض ولا إلى فقيه :

صدقتم يا مولانا الأستاذ ؛ ولكن اسمح لنا بأن نذكرك
بأن النبي كان فقيهاً ، وكانت شريعته فقهاً ، وهل الفقه شيء آخر
غير قواعد الفصل في الخصومات ؟

وهل بلغ من هوان الدنيا عندك أن تحتقر لأجلها الفقه
والتشريع ؟

أتركوا الدنيا لأصحابها يا جماعة الصوفية ؛ أتركوا الدنيا

للمسلمين ، فان الله لم يبعث محمداً إلا ليمكن للمؤمنين في الأرض
ويجعلهم أئمة ، ويجعلهم الوارثين

علم التوحيد

وأما التوحيد فهو عند الغزالي وقف في جوهره على علماء
المكاشفة

وما هو علم المكاشفة ؟

هو علم لا نعرفه ، ولكن يقال إن سوء اخاتمة مُعَدِّ لمن
ليس له منه نصيب !!

ويقال إن أدنى نصيب من هذا العلم هو التصديق به ،
وتسليمه لأهله ؛ ويقال كذلك إن أقل عقوبة من ينكره أن
لا يذوق منه شيئاً :

وما هي غاية هذا العلم ؟

غايته أن تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله وبصفاته الباقيات
التامات !

وأنا لا أدري سبب هذه الشهوة الغريبة التي تحمل علماء
الدين على البحث عن ذات الله وصفاته ، ولا أعلم كيف عميت
قلوبهم حتى اندفعوا يذكرون عن ذات الله وصفاته ما يجب أن
يتورع عنه المؤمنون !

يطمع الغزالي في معرفة ذات الله معرفة حقيقية ، وهذا والله عين الجهل ، ونفس الضلال ؛ ويطمع كذلك في معرفة صفاته التامات ، وهو الذي بلغ به الإدب مع الأشاعرة والمعتزلة إلى الاختلاف في صفات الله ، وفي كلامه ، وفي أفعاله ، وفي رؤيته بالأبصار يوم القيامة ، إلى غير ذلك من المباحث التي لا يقدم عليها غير عُنى القلوب ؛

والظاهر أن الغزالي ومن على شاكلته لم يشهدوا المعركة القائمة بين الهدى والضلال ، ولم يروا يوماً واحداً كيف تتصاول العقول ؛ فإن البحث عن ذات الله وصفاته حمق وسفه ، وإنما سبيل المؤمنين أن يتأملوا ما يحيط بهم من جلال الوجود ، وأن يبحثوا في المراد من أن الله سخر لهم ما في الأرض جميعاً ، فإنه ليس للعاقل أن يترك الانتفاع بما تلمس يده ، وترى عينه ، ليغيب في مجاهل من الظنون ، يسميها سفهاً علم التوحيد

وما أسفت لشيء أسفى لأنحصار الأفكار الإسلامية « في معرفة معنى النبوة والنبي ومعنى الوحي ومعنى الشيطان ومعنى لفظ الملائكة والشياطين وكيفية معاداة الشياطين للإنسان ، وكيفية ظهور المملك للأنبيا ، وكيفية وصول الوحي إليهم ، والمعرفة بملكوت السموات والأرض ، ومعرفة القلب وكيفية تصادم الملائكة والشياطين ومعرفة الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان ، ومعرفة الآخرة والجنة

والنار وعذاب القبر والصراط والميزان والحساب ، ومعنى لقاء الله
والنظر إلى وجهه ، ومعنى القرب منه والنزول في جواره ، ومعنى
حصول السعادة بمرافقة الملائكة الأعلى ، ومعنى تفاوت درجات أهل
الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الدرى في جوف
السماء »

فان هذه في الأصل أكثرها رموز^١ ظنها المسلمون حقائق ،
فوضعوا لها ضرباً من التفسير والتأويل

والذى يطالع الكتب القديمة يرى جمهور الفقهاء أعلم بخريطة
الآخرة منهم بخريطة الدنيا : فهم يعرفون من أنهار الجنة
مالا يعرفون من أنهار هذا العالم ، ويعلمون من أبواب جهنم
مالا يعلمون من أسباب انحطاط الأمم وضعف الشعوب ،
ويدركون من نعيم الآخرة مالا يدركون من معنى الملك والقوة
في هذا الوجود . وفي مقدور المرء أن يجد مئات الكتب في وصف
الحشر والنشر ، ولا يجد كتاباً واحداً في تحديد المراد من الخلافة
الإسلامية ، التى قامت بسببها آلاف الفتن ، ومئات الحروب
والغزالي من الذين ساعدوا على بقاء هذه العماية ، فقد وضع
الكتب المطولة في كيفية العزلة ، ولما أراد أن ينقد الشئون
الاجتماعية ، وضع كتابه التبر المسبوك في نصيحة المملوك ، فكان آية
في السخف والاضطراب

والى من تقاضى هؤلاء العلماء ؟

تقاضيههم الى القرآن : ففيه الدعوة الى الملك ، والى أن تكون
العزة لله ولرسوله وللمؤمنين . وهل الأخلاق شئ آخر غير
حرب الذلة والقلّة : فى الأفراد ، والجماعات ، والشعوب ؟
تقول هذا ونطالب كل مسلم بالحدز البالغ عند مطالعة كتب
المتقدمين ، فإن أكثرهم لم يعرف السياسة ، ولا شئون الاجتماع .
وإلا فأين غرر المؤلفات فى الأمور السياسية والاجتماعية ؟ وأين
البصر النافذ الى أعماق الحياة الدولية ؟ بل وأين الخبرة بالسريرة
الانسانية ، التى حسبوها لا تعدو طلاب الجنة من الزهاد ،
والعباد ، من كل راضٍ بالفقر ، قانعٍ بالسؤال ؟

الفصل الثانى

الفنونه

أباح الغزالى أن يُحِبَّ المرءَ الجماله ، فكان ذلك منه اعترافاً
بالحاسة الفنية ، التى يدرك بها الأديب ، والفنّان ، والفيلسوف ،
ما فى العالم من دقائق الجمال
وتجد فى حقوق الأخوة من هذا الكتاب أن الغزالى

ضرب المثل بالنظر الى الفواكه ، والأنوار ، والأزهار ، والتفاح
المشرب بالجمرة ، والى الماء الجارى والخضرة . ومعنى هذا أن
الإنسان متى جاز له ، وبعبارة أدق ، متى أمكن له أن يحب
هذه الأشياء بلا نية سيئة ، فقد يمكن له أن يحب الرجل الجميل
بلا غرض خبيث

وشاهدنا في هذه الفكرة ، هو أن الغزالي يؤمن بأن
للروح شيئاً من السلطان ، وله بعض الحقوق . فانه متى جاز أن
يحب الرجل لجماله ، والجمال في الرجال كثير ، فقد أصبح للروح
الحق في أن يتمتع بكل جميل ، متى استطاع أن يتحلى بالعفاف .
وهذا فيما أرى اعتراف من الغزالي بضرورة وجود الفنون الجميلة
لتمتع بها الأرواح ، كما يجب أن تملأ الخزائن والأسواق ، لتجد
الأجسام ما تحتاجه من الغذاء

ويحسن أن نذكر ما لاحظناه على الغزالي حين تكلم عن
التشريح : فقد قرر أنه يسير بفريق من العلماء إلى أن النفس تموت ؛
فإننا سألناه : هل يقضى ذلك بتحريم التشريح ؟ وبالطبع ليس عند
الغزالي جواب على هذا السؤال :

وكذلك نسأله الآن : يجوز أن يحب الشخص الجميل ،
ولكننا لاحظنا أن مثل هذا الحب قد يجر الى الفسوق . فهل

يحرم لذلك حب كل شخص جميل ؛ وليس للغزالي أيضاً على هذا السؤال جواب :

وانما قدمنا هذه الكلمة أمام رأيه عن الفنون الجميلة ، ليعرف القارئ أنه لم يذكر أصلاً من أصول الأخلاق يبرر رأيه في الفنون فقد أتى عليها جميعاً بالنقد والتجريح ، وإن لم ينكر (أن لله سرّاً في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح) وأحسب أنه لو تروى قليلاً لعرف أن لله سرّاً فيما تحدث الفنون ، من أنواع الفتون

الشعر

رأى الغزالي في الشعر رأى عجيب ، فهو يرى أن مقصوده المدح والذم والتشبيب . وعلى فرض أن الشعر لا يقصد منه غير ذلك فهو مقصود حميد ، وإن قبح في بعض الأحوال وقد رأى الغزالي نفسه أمام أمر واقع : وهو أن الشعر أنشد بين يدي رسول الله ، ولكنه اعتذر عن هذا بأن المبالغات التي وردت في ذلك الشعر ، لم يقصد بها الكذب ، وإنما هي من صنعة الشعر ، فلا يقصد بها اعتقاد الصورة التي وضعها الشعراء .

ولا أدل على هوان الشعر في نظر الغزالي من قوله

« وأما الشعر فكلام حسنه حسن ، وقبيحه قبيح ، إلا أن التجرد
له مذموم » ص ١٣١ ج ٣

والتجرد للشعر هو صنعة الشاعر الفنان ، الذي يريد أن يمثل
عصره ، وقطره ، في صحيفة التاريخ . ومتى كان من المذموم أن
يتجرد المرء للشعر ، فعنى ذلك أن الشعر لا يصح أن تخصص له
حياة فرد من الأفراد . وإن جاز للناس أن ينشدوا أو ينشئوا
ما حسن منه ، لانه ككل كلام : حسنه حسن ، وقبيحه قبيح !!
ولا يفوتنا أن نلفت النظر إلى أن الأحاديث التي رواها
الغزالي في ذم الشعر اقتضتها ظروف خاصة ، بدليل ما روى
الغزالي نفسه ، مما يناقضها كل المناقضة ، فكان عليه أن يراعى
تلك الظروف

الموسيقى

تكلم الغزالي عن الموسيقى باحتياط يدل على مبلغ رأيه في هذا
الفن الجميل ، وهو يقسم الأصوات الموزونة باعتبار مخارجها إلى
ثلاثة : ما يخرج من جواد : كصوت المزامير ، والأوتار ، وضرب
القضيب ، والطبل وغيره . وما يخرج من حنجرة حيوان ، وذلك
الحيوان إما انسان ، أو غيره : كصوت العنادل ، والقمارى ،
وذوات السجع من الطيور . ثم يحكم بأن سماع هذه الأصوات

يستحيل أن يحرم لكونها طيبة أو موزونة ، إذ لا ذاهب إلى تحريم صوت العنديل ، وسائر الطيور ، ولا فرق بين حنجرة وحنجرة ، ولا بين جماد وحيوان ، فينبغي أن يقاس على صوت العنديل الأصوات الخارجة من سائر الأجسام باختيار الآدمي كالذي يخرج من حلقه ، أو من القضيب والطحل والدف

إلى هنا لا تجد شيئاً يفض من الموسيقى باعتبار أنها فن جميل ، ولكنك تجده يقول بعد ذلك « ولا يستثنى من هذا إلا الملامى والأوتار والمزامير التي ورد الشرع بالمنع منها ، لا لذتها ، إذ لو كان للذة تقيس عليها كل ما يلتذ به الإنسان ، وإنما حرمت لعل ثلاث : إحداها أنها تدعو إلى شرب الخمر ، فإن اللذة الحاصلة بها إنما تتم بالخمر ، ومثل هذه العلة حرم قليل الخمر . الثانية أنها في حق قريب العهد بشرب الخمر تذكر بمجالس الأُنس بالشرب ، فهي سبب التذُّكر ، والتذُّكر سبب انبعاث الشوق ، وانبعاث الشوق إذا قوى فهو سبب الإقدام . والثالثة الاجتماع عليها ، وهو من عادة أهل الفسق » ونجده بعد هذه الفقرة ينص على تحريم المزمارة العراقية ، والأوتار كلها ، كالعود والصنج والرباب والبربط^(١) وكل ما يذكر بالخمر ، ومجالس الخمر ، فأما ما عدا ذلك فهو على الإباحة ، قياساً على أصوات الطيور

وما يزيد أن تناقش هذا الرأي ، ولا أن نبحث في الأساس

(١) البربط كجعفر هو العود معرب بربط : أي صدر الأوز لأنه يشبهه

الذي وضع عليه ، ولكن ننبه على أن فيه دلالة على دفته في وقاية
الجهة الخلقية ، وحرصه على أن يظل المرء بعيداً عن مثار الشهوات
ونضيف إلى ما سلف من رأيه في الموسيقى ، أنه عدّ بيع
الملاهي من المنكرات التي يجب كسرها ، حين تكلم عن منكرات
الأسواق ، وعد من منكرات الضيافة سماع الأوتار وسماع
القيان ، وعد إعطاء المال للمطرب إسرافاً يجب على المحتسب
إنكاره ، ولم يعين مهنة المطرب ، فصالح لأن يطلق على المعنى
والموسيقار . ونص في ص ٣٢٧ ج ٣ إحياء على أن أصوات المزامير
والأوتار اذا ارتفعت في دار بحيث جاوزت الحيطان ، فلمن سمعها
دخول الدار وكسر الملاهي ، ونص كذلك على أن للمرء الحق
في أن يكسر العود إذا رأى شخصاً يحمله
ومما سلف نعلم أنه لا يحرم الموسيقى مرة واحدة ، ولكننا
نعرف كذلك أنه لا يقيم لها وزناً باعتبار أنها فن جميل ، فن الواضح
أن لكل فن سيئات وحسنات ، وأن السيئات لا تقل قيمة
في نظر الفنان عن الحسنات ، إذ كان جمال الفنون يرجع أكثره
إلى ما تحدث في عشاقها من الجرأة على المألوف ، وهو ما يخافه
الغزالي ويتوقاه

وهذا الذي يوجب كسر العود ، لا يبيح فيما نظن أن تبني

دار للموسيقى ، وأن يختار للتعلم فيها حسان الاصوات ، وصباح
الوجوه !

ولا تنس أنه لم يحرم الأوتار والمزامير إلا لأنها تذكر
بمجالس الخمر ، فلنذكر أنه يحرم من أجل الخمر هذه اللذة الروحية
البديعة . فهي عنده أم الخبائث ، وأصل المنكرات

الغناء

لم يفرد الغزالي باباً للموسيقى ، ولا للغناء ، وإنما أخذ رأيه
في هذين الفنين مما جاء في كتاب السماع والوجد ، وهو الكتاب
الثامن من ربيع العادات من كتب الاحياء

وأول ما يلفت النظر إلى رأيه في الغناء ، موافقته للشافعي
في أن الرجل الذي يتخذ الغناء صناعة لا تجوز شهادته ، لأن الغناء
فيما يرون من اللهو المكروه ، الذي يشبه الباطل ، ومن اتخذ
صناعة كان منسوباً إلى السفاهة ، وسقوط المروءة :

ومتى كان الغزالي يرى أن محترف الغناء مردود الشهادة ،
فانه لا يرى للغناء قيمة ، وما ظنك بفن يهبط بصاحبه إلى الحضيض ،
ويسقط عدالته بين الناس !

ونحن متى ذكرنا كلمة فن ، فانا نذكر بجانبها ما يجب على
الأفراد والحكومات من تشجيعه ، لأن الفن ليس ضرباً من

اللهو المسكروه ، وإنما هو لهو مفروض ، محتاجه الأرواح والأجسام ، فيما محتاجه من صنوف الغذاء ، وليس محترف الغناء هو المردود الشهادة فقط فيما يرى الغزالي ، بل المغرم بالسمع والمفرط فيه هو أيضا سفيه ، ترد شهادته ، لأن المواظبة على اللهو جنابة !

والفن — كما تعلم — لا حياة له إلا بوجود الهواة ، فلن يحسن الغناء إلا إذا وجد هواة الإنشاد والسمع ، ومتى كان الأكثر من الإنشاد ، والافراط في السماع ، جنابة ، وكان من واجب كل فرد أن يحارب هذه الجنابة ما استطاع ، فقد أصبح ما نسميه فن الغناء ، عرضة للانقراض ، ولا عبرة بما يقوله الغزالي من إباحته إذا لم يوجد موجب التحريم ، فحسب الفن ضياعا أن تقول إنه مباح !

غناء المرأة والامرء المجهل

ولا يجوز الغزالي أن يسمع الغناء من امرأة لا يحل النظر إليها ، وتخشى الفتنة من سماعها ، وفي معناها الصبي الأمر الذي تخشى فتنته

وقد توقع الغزالي أن يسأل سائل : هل ذلك حرام في كل

حال ، حسماً للباب ، أولاً يحرم إلا حيث تخاف الفتنة في حق
من يخاف العنت ؛ وأجاب بأن هذه المسألة يتجاوزها أصلان :
أحدهما أن الخلوة بالأجنبية ، والنظر إلى وجهها حرام ، سواء
خيفت الفتنة أو لم تخف ، لأنها مظنة الفتنة على الجملة . والثاني أن
النظر إلى الصبيان مباح ما لم تخف الفتنة ، فلا يلحق الصبيان
بالنساء في عموم الحسم ، بل يتبع فيه الحال ، وصوت المرأة دائر
بين هذين الأصلين . فإن قسناه على النظر إليها وجب حسم
الباب ، وهو قياس قريب ، ولكن بينهما فرق ، إذ الشهوة تدعو
إلى النظر في أول هيجانها ، ولا تدعو إلى سماع الصوت ، وليس
تحريك النظر لشهوة الماسة كتتحريك السماع ، بل هو أشد ،
وصوت المرأة في غير الغناء ليس بعورة ، ولكن للغناء مزيد أثر
في تحريك الشهوة ، فقياس هذا على النظر إلى الصبيان أولى
لأنهم لم يؤرموا بالاحتجاب ، كما لم تؤمر النساء بستر الأصوات ،
فينبغي أن يتبع مثار الفتن ويقصر التحريم عليه ^(١)

موضوع الغناء

ولا مانع فيما يرى الغزالي من أن يكون في الغناء تشبيب
بوصف الحدود ، والأصداع ، وحسن القد ، والقامة ، وسائر

(١) انظر ص ٢٨٠ ج ٢ إجاباً

أوصاف النساء ، بشرط أن لا يكون في امرأة معينة ، فانه لا يجوز وصف المرأة بين يدي الرجال ، وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة معينة إلا أن تكون زوجته أو جاريتها ، فان نزله على أجنبية فهو من العصاة . ويحرم على من كان في غيرة الشباب أن يستمع ، إذا كانت الشهوة غالبية عليه ، سواء غلب على قلبه حب شخص معين أو لم يغلب (٤)

ما يباح من الغناء

- وإليك جملة ما يباح فيه الغناء كما يرى الغزالي :
- (١) غناء الحجيج ، إذ يدورون في البلاد بالطبل والشاهين والغناء
 - (٢) ما يعتاده الغزاة لتحريض الناس على الغزو
 - (٣) الزجريات التي يستعملها الشجعان في وقت اللقاء . وهذا مباح في كل قتال مباح ، ومنذوب في كل قتال منذوب ، ومحظور في قتال المسلمين وأهل الذمة .
 - (٤) أصوات النياحة في البكاء على الخطايا والذنوب
 - (٥) السماع في أوقات السرور المباح ، كالغناء في أيام العيد ، وفي العرس ، وفي وقت الوليمة والعقيقة ، وعند ولادة المولود ، وعند ختانه ، وعند حفظه القرآن ، وعند قدوم الغائب
 - (٦) سماع العشاق ، تحريكاً للشوق ، وتهيباً للعشق ، وتسلياً

للنفس . وهذا حلال إن كان المشتاق إليه ممن يباح وصاله ،
كمن يعشق زوجته ، أو سُرِّيَّته ، فيصغى إلى غنائها لتضاعف
لذته ، وكذلك إن غضبت منه جاريتها ، أو حيل بينه وبينها بسبب
من الأسباب ، فله أن يحرك بالسمع شوقه ، وأن يستثير به رجاء
لذة الوصال . فإن باعها أو طلقها حرم عليه ذلك بعده ، إذ لا يجوز
تحريك الشوق حيث لا يجوز تحقيقه بالوصال واللقاء

(٧) سماع من أحب الله وعشقه واشتاق إلى لقاءه ، فلا ينظر
إلى شيء إلا رآه فيه . وقد أطل الغزالي في هذه النقطة ، ثم قرر أن
إطلاق العشق على حب غير الله مجاز لا حقيقة ، لأن كل محبوب
سواه يتصور له نظير ، إما في الوجود وإما في الإمكان ، أما
جمال الله فلا ثاني له ، لا في الإمكان ، ولا في الوجود (؟)

أداب السماع

لا يعتد الغزالي بسماع من يطرب للغناء بمجرد الطبع ،
ولا حظ له في السماع إلا استلذاذ الألبان ، والنغمات ، إذ كان
هذا الذوق لا يتطلب لوجوده غير الحياة ، فلكل حيوان نوع
تلذذ بالأصوات الطيبة . ويسخر الغزالي ممن ينزلون المسموع على
حسب شهواتهم ، ومقتضى أحوالهم ، ويرى حالتهم هذه أخس
من أن تفرد بالبيان

ويعتدّ فقط بمن ينزل ما يسمعه على أحوال نفسه في معاملته
لله ، أو من عزب عن فهم ما سوى الله حتى عزب عن نفسه ،
وأحوالها ، ومعاملاتها ، وكان كالمدهوش الغائص في عين الشهود ،
الذي يضاهي حال النسوة اللاتي قطعن أيديهن في مشاهدة
جمال يوسف عليه السلام (؟!)

وإذا سمع أحد هؤلاء «الموقنين» ذكر عتاب أو خطاب ، أو
قبول أو رد ، أو وصل أو هجر ، أو قرب أو بعد ، أو تلهف على
فائت ، أو تعطش إلى منتظر ، أو شوق إلى ورد ، أو طمع أو
يأس ، أو وحشة أو أنس ، أو وفاء بالوعد ، أو نقض للعهد ،
أو خوف من فراق ، أو فرح بوصول ، أو ذكر ملاحظة الحبيب ،
ومدافعة الرقيب ، إلى غير ذلك مما تشتمل عليه الأشعار ، فلا بد
أن يوافق بعضها حالا في نفسه ، فيورى زناد قلبه
ولهؤلاء وضع الغزالي الآداب الآتية

- (١) مراعاة الزمان ، والمكان ، والإخوان : فليس له أن
يسمع وقت شغل القلب ، ولا في شارع مطروق ، أو موضع
كريبه ، أو مع قوم من أهل الدنيا يحتاج إلى مراقبتهم ، ومراعاتهم
- (٢) أن يكون مصغيا إلى ما يقول القائل ، حاضر القلب ،
قليل الالتفات إلى الجوانب ، متحرزا عن النظر إلى وجوه

المستمعيز ، وما يظهر عليهم من أحوال الوجد ، مشتغلا بنفسه ،
ومراعاة قلبه

(٣) أن لا يقوم ، ولا يرفع صوته بالبكاء ، وهو يقدر على
ضبط نفسه . ولكن إن رقص أو تباكى بغير قصد الرياء فهو مباح
(٤) موافقة القيام في القيام ، إذا قام واحد منهم في وجد
صادق من غير رياء وتكاف ، أو قام باختياره من غير وجد ،
وقامت له الجماعة ، فلا بد من الموافقة ، رعاية لأدب الصحبة

وهناك أدب خامس وضعه الغزالي خاصا بالشيخ المرشد ،
وهو ملاحظة المريدين ، فينبغي أن لا يسمع في حضورهم ، إذا كان
فيهم من لم يدرك من الطريق الا الأعمال الظاهرة ، ولم يكن له
ذوق السماع ، أو رزق ذوق السماع ، ولكن فيه بقية من الحظوظ
والالتفات الى الشهوات ، والصفات البشرية ، أو كسرت شهوته ،
وأمنت غائلته ، وانفتحت بصيرته ، واستولى على قلبه حب الله ،
ولكنه لم يحكم ظاهر العلم ، ولم يعرف أسماء الله وصفاته ، وما
يجوز عليه وما يستحيل

الرقص

وقد رأينا الغزالي يبيح الرقص ، ولكن أى رقص ؟ هو
مايجرى في مجالس الغناء الذى قصد به الحث على العمل للأخرة ،

وما نحسبه يمنع أن يرقص الرجل في مجلس تغنيه فيه امرأته أو جاريتها. وعلى كل حال فلنسجل هنا أن الرقص والغناء يجب فيما يرى الغزالي أن يكونا بعيدين كل البعد عن مثار الشهوات. وما نريد أن تفصل أثر هذا التحرُّج في حياة الأمم، وإنما ننبه فقط على أن الغزالي يضع حول الشهوة أسواراً من حديد، ولا تُخرج الاخلاق عنده إلا رجالاً مملوئين بالحيلة، قد بغضت اليهم بسمات الحياة، وقاما ينجح هؤلاء في ميدان الحياة، لأن التنسك باب الخمود

النفس والتصوير

أراد الغزالي أن يذم (الطب، والحساب، واللغة، والشعر، والنحو، وفصل الخصومات، وطرق المجادلات) بسبب ما تورث من الكبر، فلم يزد على أن قال (وهذه بأن تسمى صناعات أولى من تسمى علوماً^(١))

إذن الصناعات دون العلوم، وإنما كان الطب والحساب الخ من الصناعات؛ لأن العلم فيما يرى الغزالي هو ما يوصل إلى الآخرة، وما يخص الدنيا فهو صناعة. وقد نص على أن من الصناعات ما هي مهمة، ومنها ما يستغنى عنها لرجوعها إلى طلب التمتع والترين في الدنيا) من أجل ذلك حض المسلم على أن يشتغل بصناعة مهمة،

ليكون بقيامه بها كافيًا عن المسامين مهمًا في الدين . ثم قال
« وليجتنب صناعة النقش والصبغة ، وتشبيد البنيان بالجص ،
وجميع ما تزخرف به الدنيا ، فكل ذلك كرهه ذوو الدين ^(١) »
وقد عدّ يبيع أشكال الحيوانات المصورة في أيام العيد لأجل
الاطفال منكرًا يجب إزالته « والصور التي تكون على باب الحمام أو
داخل الحمام يجب إزالتها على كل من يدخله ان قدر ، فان كان الموضع
مرتفعًا لا تصل إليه يده فلا يجوز له الدخول الا لضرورة ، وليعدل الى
حمام آخر ، فان مشاهدة المنكر غير جائزة . ويكفيه أن يشوه وجهها
ويبطل به صورتها ^(٢) »

« ولا يمنع من صور الأشجار وسائر النقوش سوى صورة
الحيوان . . . وأما الصور التي على التمارق ، والزرايب المفروشة ، فليس
منكرًا . وكذا على الاطباق والقصاع ، لا الأواني المتخذة على شكل
الصور ، فقد تكون رءوس بعض الجمامر على شكل طير فذلك حرام
يجب كسر مقدار الصورة منه (؟) »

على أن كلمة الغزالي لم تكن واحدة فيما يخص البناء والزخرفة ،
فقد رأيت كيف بين أن تشبيد البنيان ، وكل ما تزخرف به الدنيا ،
كرهه ذوو الدين ، ومع هذا قال بعد « وفعل ذلك ممن له مال كثير

(١) ٧٩ ج ٢ (٢) وضع فضيلة الاستاذ الشيخ النجار بهامش نسخته ما يأتي :
لعل الشيخ محمد صائم الدهر الذي شوه وجه أبي الهول وغيره من الصور وجعل أكبرهمه
ذلك قد سرى اليه هذا الفكر من إحياء الغزالي وقد رأيت في بلبك صورًا في الرواق
المحمول على الأعمدة وهي مشوهة ، وقيل لنا إنها شوهت من أيام دخول العرب ذلك
البلد . وشاهدت كذلك صورة البعل وهو معبود أهل ذلك البلد قديمًا مشوهة ، وهو
وجه انسان بصورة أسد

ليس بحرام ، لأن التزيين من الأغراض الصحيحة . ولم تزل المساجد
تزين وتنقش أبوابها وسقوفها مع أن نقش الباب والسقف لا فائدة
فيه الا مجرد الزينة فكذا الدور «
وإذا كان التزيين من الأغراض الصحيحة ، فكيف تكون
صناعته غير مهمة (١)؟

مهرصة هذا البحث

ونرى مما سلف أن النقش مكروه ، وأنه لا يجوز تصوير
الحيوان ، ولا حرج في استعمال التمارق والزرابي المصورة ، بصورة
الحيوانات طبعاً ، لأنها موضوع الاستثناء . ويظهر أنها استثنت
لأن الصور فيها ستصير ممتحنة بالاستعمال ، وعلى الأخص الاطباق
والقصاع . وهو يتبع في هذا الرأي جمهور الفقهاء ، إذ يرون
التصوير داعياً الى الوثنية . وقد نهوا عما يذكر بعبادة الأوثان
ولا يفوتنا في ختام هذا الباب أن ننبه إجمالاً على أن الغزالي
لم يعن بتربية الأذواق ، وهذه الآراء التي قدمناها له في الفنون
الجميلة تدل على إهماله هذا الجانب من بناء الأخلاق
ومما يلاحظ أنه يغشي بعض النظرات الدقيقة في كتبه

(١) كما ترى بالرجل ينظر الى الشيء . نظرة علمية فيقفى بعدم الضرر فيه إذا كان على حد الاعتدال
وينظر اليه نظرة صوفية فيكرهه . وهذا منشأ الاضطراب الظاهري لأن الكلام في موضوعين
عبد الوهاب النجار

بأخبار وأقاصيص تحمل القارئ حملاً على ازدراد الزهادة ،
والإخلاق إلى الخمول . وأكرر ما قلته غير مرة من أن في هذا
الشطط شيئاً من الحق ، وهو الحرص البالغ على السلامة ، والنفرة
المطلقة من مواطن الشبهات . ولهذا القصد محاسن ، وفيه كذلك
كثير من العيوب

الفصل الثالث

تربية الأطفال

يسمى الغزالي رياضة الصبيان ، وكانت كلمة صبي في التعابير
القديمة تقابل كلمة طفل في التعبير الحديث ، وكذلك كلمة صبية
تقابل كلمة طفلة أو فتاة ، فكانوا يقولون دخلت عليه صبية حسناء
كما نقول فتاة حسناء

وقد سبقت كلمتنا في وراثة الأخلاق عن فطرة الأطفال ،
فلا نعود إليها الآن ، وإنما نذكر المنهج الذي وضعه الغزالي لتربية
الطفل ، وهو تفصيل لما أجملناه في واجبات الآباء
فيجب على الوالد فيما يرى :

(١) أن يؤدب ابنه ، ويهذبه ، ويعلمه محاسن الأخلاق ،
ويحفظه من قرناء السوء

(٢) وأن لا يحب إليه الزينة ، وأسباب الرفاهية ، لئلا يتعود
التنعم : فيعسر تقويمه بعد ذلك

(٣) وإذا رأى فيه مخائل التمييز ، وبوادر الحياء ، فليعلم أن
عقله مشرق ، وأن تنمية هذه الباكورة من عزم الأمور ،
وأحسن ما تنمي به أن تسعان في تأديبه وتهذيبه

(٤) وليعلم أن أول ما يغلب على الطفل شره الطعام ، فينبغي
أن يؤدب في ذلك ، وأن يُعوّد أخذ الطعام بيمينه ، والبدء
باسم الله ، والأخذ مما يليه ، وعدم السبق إلى الطعام ، وعدم
تحديق النظر إليه ، وإلى من يأكل معه ، والتمهل في الأكل
وإجادة المضغ ، وعدم الموالاة بين اللقم ، والحذر من تلطيخ اليد
والثوب ، وتعوّد الخبز القفّار في بعض الأوقات ، حتى لا يرى
الأدم حتماً^(١)

(٥) وينبغي أن يُقبّح عنده كثرة الأكل ، بدم الطفل الشره
ومدح المتأدب القليل الأكل ، وأن يحب إليه الإيثار بالطعام
وقلة المبالاة به ، والقناعة بأي طعام كان

(٦) وأن يحب إليه الأبيض من الثياب ، دون الملون ، وأن

(١) الخبز القفّار هو الذي لا أدم فيه

يُفهمه أن تلوين الثياب ليس عادة الرجال ، وإنما هو عادة النساء
والمخنثين ، وأن يحفظه من مخالطة الأطفال الذين عودوا بالتنعم
ولبس الثياب الفاخرة ، ومن مخالطة كل من يسمع منه ما يرغب
في ذلك

(٧) وإذا ظهر من الطفل فعل محمود ، فينبغي أن يجازى عليه
بما يفرح به ، وأن يمدح أمام الناس ، فإن أساء مرة فيجمل بالوالد
أن يتغافل عنه ، ولا يكشفه ، ولا سيما إذا تستر الطفل واجتهد
في الإخفاء ، فإن مكاشفته قد تزيد جسارة وعدم مبالاة . فإن
عاد فليعاتب سرا ، وليُحذّر عواقب الافتصاح ، وليكن العتب
قليلًا لئلا يهون على الطفل وقع الملام ، وسماع التأنيب ،
وركوب القبيح

(٨) وينبغي أن يمنع من النوم نهاراً ، فإن ذلك يورث الكسل
ولا يمنع منه ليلاً ، ولكن يمنع الفراش الوثير ، لتصلب أعضائه
ويعود خشونة الفراش

(٩) ويجب أن يمنع من كل ما يفعله خفية ، فإنه لا يخفى إلا
ما يعتقد أنه قبيح

(١٠) وليعود المشي في بعض النهار ، لتحبب إليه الحركة
والرياضة

- (١١) ولينع من كشف أطرافه
- (١٢) وينبغي أن ينع من الافتخار على أقرانه بشيء مما يملكه والداه ، أو بشيء من مطامعه وملابسه ، أو لوحه ودواته ، بل يُعوّد التواضع ، وطيب الحديث
- (١٣) ويجب أن يُعلم أن الرفعة في الإعطاء لافي الأخذ وأن الأخذ لثوم ، وخسة ، ودناءة ، إن كان غنياً ، وذلة ، ومهانة ، إن كان فقيراً : فلا يصح أن يأخذ شيئاً من الاطفال
- (١٤) وينبغي أن يعوّد أن لا يبصق في مجلسه ، ولا يمتخط ، ولا ينتاب بحضرة غيره ، ولا يستدبر سواه ، ولا يضع رجلا على رجل ، ولا يضع كفه تحت ذقنه ، ولا يسند رأسه بساعده ويعلم كيفية الجلوس ، ويمنع كثرة الكلام
- (١٥) ويجب أن يُنع القسم ، صادقاً كان أو كاذباً ، لئلا يعتاد ذلك
- (١٦) وليعوّد أن لا يتكلم إلا مجيباً ، وبقدر السؤال ، وأن يحسن الاستماع إذا تكلم غيره ممن هو أكبر منه سناً ، وأن يقوم لمن فوقه ، ويفسح له المكان
- (١٧) ويجب أن ينع من لغو الكلام ، ومن اللعن ، والسب
- (١٨) وليعوّد الصبر إذا ضربه المعلم ، فلا يكثر الصراخ ،

ولا يستشفع بأحد ، وليذكر له أن الصبر دأب الشجعان والرجال
وأن كثرة الصراخ دأب الممالك والنساء

(١٩) وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من المكتب
باللعب الجميل يستريح به ؛ فإن منع الصبي من اللعب يمت قلبه ،
ويحمد ذكاهه ، ويحمله على الاحتيال للخلاص من الكتاب

(٢٠) وينبغي أن يُعلم طاعة والديه ، ومعلمه ، ومؤديه ، وكل
من هو أكبر منه سنّاً من قريب وأجنبي

(٢١) وإذا بلغ سن التمييز ، فينبغي أن لا يسامح في ترك
الطهارة ، والصلاة ، ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان ، ويعلم
كل ما يحتاج إليه من أمور الشرع

(٢٢) وليخوف من السرقة ، وأكل الحرام ، ومن الخيانة ،
والكذب ، والفحش ، وكل ما يغاب على الأطفال

هذه خلاصة ما وضع الغزالي في التريية . وما أنكر أن فيها
شيئاً من التكرار . وأرى أنه في مثل هذه المواطن جميل

وإنما ألاحظ أنه لا معنى لأن تحبب إلى الطفل الثياب البيض
بنوع خاص . ويظهر أن هذه كانت سنة حسنة إذ ذاك^(١) . وألاحظ

(١) يرى الاستاذ عبده بك خير الدين أن لبس الثياب البيض فيه دعوة ضمنية إلى
النظافة . لأن الثوب الأبيض يعلن عن نفسه حين يحتاج إلى التطهير

كذلك أنه لا يصح أن يعلم الصبي أن هناك فتة مخنثة تميل إلى الملوّن من الثياب، فقد يحسن أن لا تُطرق آذان الصبي بمثل هذا الهُجْر ، بل يجب أن لا يعرف أن الطفل قد يتخلق بأخلاق النساء . ولا أفهم معنى لأن يدعى الطفل إلى عدم إرخاء يديه ، بل يضمهما إلى صدره حين يمشى ؛ ويضحكني أن ينصح الطفل بالصبر والاحتمال حين يضربه المعلم ، وكان أولى له أن ينهى عن هذه العادة الشنعاء ، التي لا تجمل بالمعلمين^(١)

ومن أدق ما تنبه له الغزالي تلميحه إلى أن يعلم الطفل أسرار البلوغ حين يصل إليه

والغزالي يسمي المدرسة بالمكتب والكتاب ، وليس له في هذا الباب غير برنامج ضئيل ، يمثل ما كان يفهم في عصره من المدارس الأولية والابتدائية . ويتلخص هذا البرنامج (في تعلم القرآن ، وأحاديث الأخيار ، وحكايات الأبرار) ولم تخطر له الرياضة ببال . ولم يتعرض للغة والأدب ، ولكنه نبه على أن الطفل يجب أن « يُحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله ويُحفظ من مخالطة

(١) وضع فضيلة الاستاذ الشيخ النجار بهامش النسخة التي كانت بيده ما يأتي : إن أطفال أهل السودان يفهم هذه العادة على أممها فأنهم يمودون عدم البكاء والصراخ مهما حل بالواحد منهم من الألم . ومن فعل ذلك عبر . بل كثيرا ما نجد الطفل يأخذ جمرة النار فيضمها على ساعده وينذهب إلى أمه ليربها صبره على بقاء النار تأكل في جسمه دون إظهار تألم قائلا : ابشرى بأُمى أنا أخو البنات

الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع ، فان ذلك يفرس
في نفوس الصبيان بذور الفساد »

والغزالي يُعَدُّ الطفل في الواقع لأن يكون جندياً في الحياة
إذ يحرم عليه كل مظاهر اللين . وإن كان لم يغفل عن غايته الاخلاقية
حين أوصى بأن يعلم أن الموت منتظر في كل ساعة ، وأن العاقل
من تزود من دنياه لأخراه . وأرى هذه الوصية خطيرة ،
إذ تضعف العزم في نفوس الأحياء ، ولا تترك للاسلام نفسه
جيشاً يُحفظ به ثغر ، أو يُفتح به قطر ، وما كان الاسلام إلا
دين الغزاة الفاتحين

تربية البنات

لم يتكلم الغزالي عن تربية البنات ، وكان عليه أن يهين
نصيهاً من عنايته . ولكن الرجل تأثر بعصره ، وبقومه ، فقد
كانت تربية البنات مما لا يهتم به الأولون

وسترى حين نتكلم عن حقوق المرأة أنه يحتم على الرجل
أن يعلم زوجه ، فان لم يعرف ناب عنها في سؤال العلماء ، ولكنك
سترى كذلك أن هذا العلم الواجب على الرجل لامراته لا يزيد
عن معرفة الفرائض من صلاة وصيام . ومعرفة الفرائض هذه
لاتفيد المرأة شيئاً في الحياة المنزلية ، وهي العبء الملقى على
عواتق النساء

الفصل الرابع

آداب المعلمين

قد رأيت المنهج الذي وضعه الغزالي لتربية الطفل ، ورأيت ما خطه لبرنامج التدريس في المكاتب الصغيرة ؛ والآن نقفك على رأيه في تربية الطلاب ، ونريد بهم من رأوا الاستزادة من العلم بعد انقضاء ذلك الأمد القصير ، الذي أُعِدَّ للأطفال والغزالي كان أستاذا في المدرسة النظامية ، وكان يختلف إلى درسه ثلثمائة من التلاميذ ، وكان له بالطبع زملاء ، وكان لهؤلاء الزملاء تلاميذ ، فن البعيد أن لا تكون هذه الحركة أهتمامه بالبحث في التعليم من حيث إنه مهنة ، وهو قد ابتلى بمهنة التعليم ؛ ولقد تكلم الغزالي عن التعليم ، وأطال في كتاب الأحياء ، وتكلم عنه في الاملاء على ما أشكل من الأحياء ، وذكر أنه (أفضل من سائر الحرف والصناعات) ويبرهن وجه هذه الأفضلية بالتفصيل

وكل ما تُقيد به هذه الحرفة فيما يرى أنه يجب أن يقصد بها وجه الله ، ويقول في ذلك (وإنما المعلم هو المفيد للحياة الأخرى

الدائمة ، أعنى معلم علوم الآخرة ، أو علوم الدنيا على قصد الآخرة ،
لأعلى قصد الدنيا . فأما التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك وإهلاك
نعوذ بالله منه ^(١)

وعلوم الدنيا هي في رأيه ما يشمل الطب والحساب والهندسة
وتقويم البلدان ، وعلى الجملة كل ما عدا العلم بالله وملائكته وكتبه
ورسله واليوم والآخرة . فالذي يعلم علوم الدنيا هذه هو بلاشك
محترف ، ويكفي أن يقصد بتعليمه الآخرة ، ليكون من الناجين
أضف إلى هذا ان الغزالي — لورعه — يشبه العلم بالمال ،
فكما أن لصاحب المال حال استفادة ، وحال ادخار ، وحال إنفاق
على نفسه ، وحال بذل لغيره ، وهو أشرف أحواله ، فكذلك
لصاحب العلم حال طلب ، وحال تحصيل ، وحال استبصار ، وحال
تبصير ، وهو أشرف الأحوال

والتبصير هو التعليم . والغزالي لا ينكر أن يكون المرء
معلما ، فقد كان من المعلمين ، وإنما يطالب المعلم بتعليم علوم
الآخرة ، أو علوم الدنيا على قصد الآخرة ، وسرى فيما يذكر
من آداب المعلم عدم أخذ الأجر ، ولكن هذا لا يقدح في نظره
إلى التعليم كهيئة ، فانه يكفيننا أن يدرك أن التعليم صناعة ، تشمل

الإجادة ، كما تحتمل القصور ، وأنه يجب على المعلم كيت وكيت ،
ليحسن أداء مهمته ، على وجه نافع مقبول
وقد وضع للمعلم الآداب الآتية :

(١) أن يشفق على المتعلمين ، ويجريهم مجرى بنيه . ويقول
الغزالي في توابع هذه البنوة : وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن
يتعابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها ، فكذلك حق تلامذة الرجل
الواحد ، التعاب والتواد

(٢) أن يقتدى بصاحب الشرع ، صلوات الله عليه وسلامه ،
فلا يطلب أجراً على إفادة العلم ، ولا يقصد به جزاء ولا شكورا
(٣) أن لا يدع من نصح المتعلم شيئاً ، وذلك بأن يمنعه من
التصدى لرتبة قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ
من العلم الجلي

(٤) أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق ، بطريق التلميح
والرحمة ، لا بطريق التوبيخ ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة ،
ويورث الجراءة على الهجوم باختلاف ، ويهيج الحرص على الإصرار
(٥) أن لا يقبِّح في نفس المتعلم العلوم التي وراء علمه : فليس
لمعلم اللغة أن يقبِّح في نفس المتعلم علم الفقه مثلاً ، بل ينبغي أن
يوسع عليه طريق التعليم في غيره . وإن كان متكفلاً بعدة علوم

فينبغي أن يراعى التدرج في ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة
(٦) أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه، ولا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله
(٧) أن يلقى للمتعلم القاصر الجليّ اللائق به، ولا يذكر له
أن وراء هذا الجليّ تدقيقاً يذخره عنه
(٨) أن يعمل بعامه : فلا يكذب قو له فعله . وهذا الأدب
الأخير غير خاص بالمعلمين ، ولكنهم أحوج الناس إليه ، وأولام
به ، إذ كانوا مرشدين ، ومن حسن السياسة على الاقل أن يعمل
المرشد بما يقول

(٩) أن يجمل نفسه كي يعظم في نفوس طلبته فلا يستصغروه
ولم يذكر الغزالي هذا في آداب المعلم . ولكن ذكره استطرادا
في باب النظافة حيث قال (كان رسول الله مأمورا بالدعوة ، وكان
من وظائفه أن يسعى في تعظيم أمر نفسه في قلوبهم كيلا تزدرية
نفوسهم . ويحسن صورته في أعينهم كيلا تستصغره عيونهم . وهذا
القصد واجب على كل عالم تصدى لدعوة الخلق الى الله : وهو
أن يرعى من ظاهره ما لا يوجب نفرة الناس عنه)

(١٠) أن ينظر في نية المتعلم : فان رآها حسنة علمه ، وإن
رآها سيئة أعرض عنه . فلا يجوز فيما يرى الغزالي أن نعلم من نرى
في أقواله ، أو أفعاله ، أو مطعمه ، أو ملبسه ، أو مسكنه ، ما يدل

على فساد نيته ، وسوء قصده . ولا يكفي فيما يرى الغزالي أن يقول المعلم : إنما أريد نشر العلم ، وللمتعلم بعد ذلك الخيار ، إن شاء أحسن وإن شاء أساء ، بل يشبهه بمن يهب سيفاً لقاطع الطريق ، ثم يقول : إنما أريد السخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة ، وأن أعينه على الجهاد ، فإن استعمل السيف في الأذى فهو وحده المسئول

وربما كان يحسن بالغزالي أن ينصح المعلم ببذل الجهد في غزو الغرائز السيئة التي يراها في تلميذه ، فأما الضنّ عليه بالعلم فهو فيما أرى هروب من الواجب ، وعمل سلبى لا يفيد

الفصل الخامس

آداب المتعلمين

وعلى المتعلم ما يأتي من الواجبات :

(١) أن يقدم طهارة النفس من رذائل الأخلاق ومذموم

الأوصاف

(٢) أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ، ويبعد عن الأهل

والوطن ، فإنه مما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق

(٣) أن يذعن لنصيحة المعلم إذعان المريض الجاهل للطبيب
المشفق الحاذق

(٤) أن يحترز في مبدأ أمره عن الإصغاء إلى اختلاف الناس
فإن ذلك يحير ذهنه ، ويفتر رأيه ، بل عليه أن يتقن أولاً طريقة
أستاذه ، ثم يصنى بعد ذلك إلى الشبه والمذاهب

(٥) أن لا يدع فناً من الفنون المحمودة إلا وينظر فيه نظراً
يطلع به على مقصده وغايته ، ثم إن ساعده العمر طلب التبصر
فيه ، وإلا اشتغل بالأتم واستوفاه ، وتطرف من البقية

(٦) أن لا يخوض في فن من الفنون دفعة ، بل يراعى الترتيب

(٧) أن لا يخوض في فن حتى يستوفى الفن الذي قبله ، فإن

العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض . وهذه
الطريقة فيما أرى إنما تصلح في الفنون التي كان يعرفها الغزالي
إذ ذلك ، فمن الواضح أن الفقه مثلاً طريق للأصول ، ولكن
هل يصح لدينا الآن أن المنطق طريق الحساب أو أن النحو
طريق الجغرافيا ووصف الشعوب؟

(٨) أن يعرف أن شرف العلم إنما يرجع إلى شرف الثمرة

أو قوة الدليل فعلم الدين فيما يرى الغزالي أشرف من علم الطب ،
لأن ثمرة الأول السعادة الأخروية ، وثمره الثاني السعادة الدنيوية

والآخرة خير من الأولى . وعلم الحساب أشرف من علم النجوم
لقوة أدلته . وعلم الطب أشرف من علم الحساب ، لأن الثمرة
أولى من قوة الدليل

وربما كان يحسن أن يتنبه الغزالي إلى أن للحساب ثمرة
لا تقل شأنًا عن وثاقة دليله، ولكن عذره أنه عاش في عصر قد
غاب عن إنسانه أنه خلق لتعمير الوجود



« مقلمة للغزالي موجودة بدار التحف العربية بالقاهرة »

الباب العاشر

في

الحقوق والواجبات

الحق هو مالك ، والواجب هو ما عليك . فتقول : من حق
أن أعلم ، ومن واجبي أن أعمل بما أعلم
ولكن الغزالي يضع كلمة حق ، موضع كلمة واجب . وربما
استغنى عنهما جميعاً بكلمة أدب

وقد فصل الغزالي حقوق المرء نحو نفسه ، ونحو ربه ، ونحو
أخيه ، ونحو جاره ، ونحو والديه ، ونحو أبنائه ، وبين آداب
التاجر ، والصانع ، والمسافر ، وكاد يستوعب مال المرء ، وما عليه
ونحن ذا كرون خلاصة تمثل وجهة نظره في الحقوق
والواجبات ، ليعرف القارئ اتجاه الفكر الاسلامي في ذلك الحين

١

واجب المرء نحو نفسه

يجب على المرء فيما يرى الغزالي أن يجتهد في أن لا يراه مولاه
حيث نهاه ، وأن لا يفقده حيث أمره ، ولن يقدر على ذلك إلا

بتوزيع أوقاته ، و ترتيب أوراده ، من صباحه إلى مساءه
ويحسن فيما يرى الغزالي أن يستيقظ المرء قبل طلوع الفجر ،
وأن يكون أول ما يجري على لسانه ذكر الله . وأن لا يترك
السواك : فإنه مطهرة للفم ، ومرضاة للرب ، ومسخطة للشيطان
ولا يفوتنا أن نقرر أن عناية الغزالي بالحث على ما ندعو
إليه الشريعة الإسلامية من الوضوء والغسل وما إليهما من أنواع
الطهارة ، إنما هو دعوة صريحة إلى الحياة . فإن الإسلام بفرضه
الوضوء عند كل صلاة ، والغسل عند الاحتلام والوقوع ، إنما
يرفع عن الناس آصار البطالة والخمول

ولا يعلم إلا الله ما كانت تصل إليه حالة الشرق لو لم ينتشر
فيه الإسلام ، فإنه يعرض على أهله مافات أكثرهم من سلامة
الذوق ، إذ لا يعرفون للنظافة قيمة ، ولا يقيمون للطهارة وزناً .
حتى لتجد من العلماء من ينص على أن نية النظافة تقلل من قيمة
الوضوء ، لأن الطهارة في نظرهم عبادة آليّة ، لا تتعلق بها
الأغراض ، وسبحان من وهب العقول !!

غير أننا لانوافق الغزالي فيما ذكر من آداب النوم ، إذ يحض
المرء على أن ينام على يمينه كما يضطجع الميت في لحده ، وأن يتذكر
أن النوم مثل الموت ، واليقظة مثل البعث ، ولعل الله يقبض

روحه في ليلته ، وأن ينام على طهارة ، وأن تكون وصيته مكتوبة تحت رأسه ، الخ

وما كنت لأوافق الغزالي على ذلك ، لأنه يجب إقصاء فكرة الموت عن الأحياء ، فإن التفكير في الموت مدعاة إلى الزهادة والجمود . وهو كذلك نقص في العزائم . وخمود في القرائح ، وهناك سبل أخرى غير الموت للحض على الطيبات ، فماذا لا تزين الخير للناس ، ببيان ما يفعل الخير في رفعة الأقدار ، وسمو النفوس ؟

وقد فصل الغزالي آداب المرء نحو نفسه في أكثر كتبه في الأخلاق . ولا عيب عليه غير الإفراط في تحقير الدنيا ، وهو عيب فظيع ، فإن الدنيا أجل وأعظم مما يتصور هو وأمثاله ممن يرون الموت من جملة الأرزاق !

وهل كان الله عابثاً يوم خلق هذه الدنيا الجميلة ، التي رميت عشاقها بالإثم والفسوق ؟

٢

واجب المرء نحو اخوانه في الدين

وضع الغزالي عدة آداب للرجل مع أخيه في الدين ، بعضها خاص بكيفية المعاملة ، والآخر خاص بتنقية النفس من الضغائن

وجزاء منها يتعلق بتربية المرء على كف الأذى وإسداء المعروف
ويخطر بالبال هذا السؤال: ألا يرى الغزالي وجوداً لغير
المسلم؟ وإلا فما رأيه في معاملة من ليسوا بمسلمين؟

وفي جواب هذا السؤال نذكر ما جاء في إحدى فتاويه^(١)
من أن الذي كالمسلم فيما يرجع إلى الإيذاء . لأن الشرع عصم
دمهم وأموالهم . فيفهم من هذا أن الذي والمسلم يعاملان معاملة
تكاد تكون واحدة ، وإن لم ينص على ذلك في الأحياء
وإلى القارئ خلاصة ما على المسلم لأخيه من الواجبات :

(١) أن لا يؤذى أحداً منهم بفعل أو قول

(٢) أن يتواضع لكل منهم ، ولا يتكبر عليه

(٣) أن لا يزيد في الهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام ، مهما

غضب عليه

(٤) أن يحسن إلى كل من قدر على الاحسان إليه منهم ،

بلا تمييز

(٥) أن لا يدخل على أحد منهم إلا بأذنه ، بل يستأذن ثلاثاً

فإن لم يؤذن له انصرف

(٦) أن يخالق الجميع بخلق حسن ، ويعامل كل امرئ بحسب

(١) انظر ص ١٥ ج ١ من شرح الزبيدي

طريقته : فانه إن أراد لقاء الجاهل بالعلم ، والأُمِّيَّ بالفقه ، والعبيَّ
بالبیان ، آذَى وتآذَى

- (٧) أن يوقر المشايخ ، ويرحم الصبيان
(٨) أن يكون مع الكفاة مستبشراً أطاق الوجه رقيقاً
(٩) أن لا يعد مسلماً بوعده إلا ووفى به
(١٠) أن ينصف الناس من نفسه ، فلا يعاملهم إلا كما يحب
أن يعاملوه

- (١١) أن يزيد في توقير من تدل هيئته وثيابه على علو منزلته
(١٢) أن يصلح ذات البير معها وجد إلى ذلك سبيلاً
(١٣) أن يستر عورات المسلمين كلهم . وقد اسندشهد الغزالي
بهذا الحديث البديع (يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الايمان
قلبه : لا تغتابوا الناس ولا تتبعوا عوراتهم ، فانه من يتبع عورة
أخيه المسلم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو كان
في جوف بيته)

- (١٤) أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له
عنده منزلة ، ويسعى في قضاء حاجته بما يقدر

- (١٥) أن يصون عرض أخيه المسلم ، ونفسه ، وماله ، عن
ظلم غيره ، مهما قدر . ويرد عنه ، ويتنازل دونه ، وينصره ، قياماً
بأخوة الإسلام

- (١٦) أن يتقى مواضع التهم ، صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن ، ولألسنتهم عن الغيبة
- (١٧) أن يجامل أخاه ويواسيه إذا بُلى بشراً
- (١٨) أن يجتنب مخالطة الأغنياء ، ويختلط بالفقراء والمساكين
- ويرى القارىء في هذه الحقوق شيئاً من التكرار . وهذا أيضاً يمثل وجهة الغزالي في الأخلاق : فهو كثير الحذر ، شديد الحيطه ، ولا يزال بالمعنى يردده في كتبه ، بل في الكتاب الواحد حتى يرسخ في نفس المستفيد .

٣

مقوق الجوار

ويرى الغزالي أن الجوار يقتضى حقاً وراء ما تقتضيه أخوة الاسلام ، فيستحق الجار المسلم ، ما يستحقه المسلم وزيادة ، ويروى قوله عليه السلام (الجيران ثلاثة : جار له حق واحد ، و جار له حقان ، و جار له ثلاثة حقوق . فالجار الذى له ثلاثة حقوق الجار المسلم ذو الرحم : فله حق الجوار ، وحق الاسلام ، وحق الرحم ؛ وأما الذى له حقان فالجار المسلم : له حق الجوار ، وحق الاسلام ؛ وأما الذى له حق واحد فالجار المشرك)

ويقول تعليقاً على هذا الحديث : فانظر كيف أثبت للمشرك

حقاً بمجرد الجوار :

وقد وضع للجار ما يأتي من الواجبات :

- (١) أن يبدأ جاره بالسلام
- (٢) وأن لا يطيل معه الكلام
- (٣) وأن لا يكثر عنه السؤال . ولا يتبعه النظر فيما يحمل إلى داره
- (٤) وأن يعود في المرض
- (٥) وأن يعزيه في المصيبة ، ويقم معه في العزاء
- (٦) وأن يهنئه في الفرح . ويظهر الشركة في السرور معه
- (٧) وأن يصفح عن زلاته ، ولا يسمع فيه كلاماً
- (٨) وأن لا يطلع من السطح على عوراته ، بل يستر ما ينكشف له
- (٩) وأن لا يضايقه بوضع الجذع على جداره
- (١٠) وأن لا يصب الماء في ميزابه ، ولا يطرح التراب في فنائه
- (١١) وأن لا يضيق طريقه إلى الدار

- (١٢) وأن ينعشه من صرعته إذا نابته نائبة
(١٣) وأن لا يغفل عن ملاحظة داره في غيبته
(١٤) وأن يفض بصره عن حرمة ، ولا يديم النظر إلى خادمته
(١٥) وأن يتأطف لولده في كلمته
(١٦) وأن يرشده إلى ما يجمله من أمر دينه ودنياه
يقول الغزالي : هذا الى جملة الحقوق التي ذكرناها للمسلمين ،
ولم يستثن المشرك في جملة هذه الحقوق ، وليكنك رأيت أنه
خص الذميين بهذه المساواة ، إذ كان ايداء الحربى عنده غير حرام



مفوق الأقارب

ثبت حق المشرك بالجوار . وكذلك يثبت حقه بالقرابة .
ويروى الغزالي في هذا أن أسماء بنت أبي بكر قالت : قدمت
على أمى ، فقلت يا رسول الله : إن أمى قدمت على وهى مشركة ،
أفأصلها ؟ قال نعم . وفى رواية أفأعطيها ؟ قال : نعم ، صليها
ومن الواضح أن القريب المسلم أو الجار يثبت له فوق حق
القرابة ما يثبت بأخوة الاسلام وبالجوار من الحقوق

٥

مقووم الوالدين

يقول الغزالي : كيفية القيام بحق الوالدين تُعرف مما ذكرنا في حق الاخوة ، فان هذه الرابطة آكد من الاخوة ، بل أكثر العلماء على أن طاعة الأبوين واجبة في الشبهات ، وإن لم تجب في الحرام المحض ، لأن ترك الشبهة ورع ، ورضاء الوالدين حتم ويرى الغزالي أن ليس للانسان أن يبادر بالحج وهو فرض إلا بإذن والديه ، لان المبادرة نفل . وكذلك ليس له أن يخرج لطلب العلم الا بإذنهما ، ويستثنى علم الفرائض من الصلاة والصوم إذا لم يكن في البلد من يعلمه . وليته عمم هذا الحكم في جميع العلوم الضرورية في الحياة

وينقل الغزالي عن رسول الله أن لزوم الوالدة أفضل من الجهاد وهو يقدم الوالدة في البر على الوالد

٦

مقووم الابناء

يجب على الوالد :

- (١) أن يسمي ابنه اسماً حسناً
- (٢) وأن يؤدبه اذا بلغ ست سنين ، فاذا بلغ تسع سنين عزل

فراشه ، فاذا بلغ ثلاث عشرة سنة ضربه على الصلاة ، فاذا بلغ ست عشرة سنة زوجته

(٣) وأن يعينه على بره ، فلا يحمله على العقوق بسوء عمله

(٤) وأن يسوى بين أولاده

(٥) وأن يبدأ بالاناث إذا حمل لأولاده طرفة من السوق

٧

واجب التاجر

وعلى التاجر فيما يرى الغزالي ما يأتي من الواجبات :

(١) أن لا يحتكر ، فيدخر الطعام ينتظر به غلاء الأسعار وهذا مظهر في أجناس الأقوات . أما ما ليس بقوت ، ولا هو معين على القوت كالأدوية ، والعقاقير ، والزعفران وأمثاله ، فلا يتعدى النهي إليه وإن كان مطعوماً . وأما ما يعين على القوت كاللحم والفواكه وما يسد مسد القوت في بعض الأحيان وإن كان لا يمكن المداومة عليه ففيه نظر . ومن العلماء من طرد التحريم في السمن والعسل والشيرج والجبن والزيت وما يجري مجراه ؛ على أن احتكار الأطعمة جائز إذا استغنى الناس عنها ولم يخش من احتكارها قحط . وبقدر درجات الاضرار تفاوت درجات الكراهة والتحريم

وكان على الغزالي أن يبين حكم احتكار الأدوية إذا وجد وباء، أو انتشر مرض من الأمراض. فقد تصبح الأدوية أهم من الأطعمة، ويمسى احتكارها من عظام الأمور^(١)

- (٢) أن لا يثنى على السلعة بما ليس فيها
- (٣) أن لا يكتم من عيوبها وخفايا صفاتها شيئاً
- (٤) أن لا يكتم في وزنها ومقدارها شيئاً
- (٥) أن لا يكتم من سعرها ما لو عرفه المعامل لامتنع عنه
- (٦) أن لا يروج الزيت من الدراهم أثناء النقد، إذ يستضر به المعامل إن لم يعرف، وإن عرف فسيروجه على غيره. وهكذا دواليك، ومن هنا وجب على التاجر تعلم النقد، لا يستقصى لنفسه خسر، ولكن لئلا يُسلم إلى مسلم زيفاً وهو لا يدري فيكون آمناً بتقصيره في تعلم ذلك العلم
- (٧) أن لا يغبن صاحبه بما لا يتغابن به في العادة، فأما أصل المغابنة فأذن فيه، لأن البيع للربح، ولا يمكن إلا بغبن ماء، ولكن يراعى فيه التقريب
- (٨) أن يحسن نيته في ابتداء التجارة: فينوي بها الاستعفاف

(١) ليس بمستعس على الانسان أن يفهم ذلك من كلام الغزالي: إذ هو بدر كلامه على محور واحد هو الرق بالناس ورفع الحرج عنهم وعدم ارهاقهم بما يكون فيه مشقة عليهم عند الوهاب التجار

عن السؤال ، وكف الطمع عن الناس ، والقيام بكفاية الأولاد
(٩) أن يقصد القيام في تجارته أو صنعته بفرض من فروض
الكفايات ، فإن الصناعات والتجارات لو تركت لهلك أكثر الناس
(١٠) أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة ، بأن
يكون أول داخل في السوق وآخر خارج منه ، وبأن يركب البحر
في التجارة ، ففي الخبر : لا يركب البحر إلا بحج أو عمرة أو غزو
هكذا يرى الغزالي . وهذه منه نزعة صوفية لا تأتلف مع
واجب الرجل الاخلاقي في الحياة الاجتماعية . فالتاجر أن يكون
أول داخل في السوق وآخر خارج منه ، بل عليه ذلك ، وعليه أن
يركب البحر في التجارة ، وأن يسلك الى الربح كل سبيل . والحج
والعمرة ، والغزو ، كل أولئك من وسائل الحياة . ولكن أكثر
الناس لا يفقهون

(١١) أن لا يقتصر على اجتناب الحرام ، بل يتقى مواضع
الشبهات ، ومظان الريب ، ولا ينظر الى الفتاوى ، بل يستفتي
قلبه . واذا حملت اليه سلعة رابه أمرها سأل عنها حتى يعرف وإلا
أكل الشبهة

(١٢) أن يراقب جميع مجارى معاملته مع كل واحد من معامليه
ويُعد جوابه ليوم الحساب والعقاب

(١٣) أن يقبل من يستقبله ، فإنه لا يستقبل الامتندم مستضرً
بالبيع ، ولا ينبغي أن يكون سبب استضرار أخيه

(١٤) أن يخلص في معاملته جماعة من الفقراء بالنسيئة ، وهو
في الحال عازم على ألا يطالبهم إن لم تظهر لهم ميسرة

(١٥) أن يحسن في استيفاء الثمن ، وسائر الديون ، فيتسامح
مرة ، ويمهل مرة ، ويحط البعض مرة

وبعد سرد هذه الآداب ، لا يفوتنا أن ننوّه بعناية الغزالي
بصالح الهيئة الاجتماعية ، فإن التاجر الذي يتأدب بهذه الآداب
تسمى تجارته ولا شك ربحاً عاماً للناس ، ويصبح خادماً لأهل
بلده من حيث لا يعلمون

هذا وجه الجمال في هذه الآداب التي خص بها التجار
وما أنكر أن فيها جانباً من الضعف بإثقال التاجر بكثير من
التكاليف الظاهرة ، والمستورة ، في حين أنه يجب تمرينه على
المخاطرة في سبيل الحياة ، ولكن الغزالي لا يعدل بالسلامة شيئاً
والسعيد عنده من نجاح دينه ، وإن خسر دنياه



آداب المسافر

وضع الغزالي فصولاً مطولة عن السفر ، وفوائده ، وآفاته

وعده نوعاً من الحركة والمخالطة . ويرى الباعث عليه من هرب
أو طلب ، وأطال في ذلك وأجاد .

ونحن ذاكرون هنا طائفة مما وضع للمسافر من الآداب :

(١) أن يبدأ برد المظالم ، وقضاء الديون ، وإعداد النفقة لمن
تلزمه نفقته ، وبرد ما عنده من الودائع ، ولا يأخذ لزاده إلا
الحلال الطيب ، وليأخذ قدراً يوسع به على رفقائه

(٢) أن يختار رفيقاً ، فلا يخرج وحده ، وليكن رفيقه من
أهل الدين ، فإن المرء على دين خليله

(٣) أن يودع رفقاء الحضر ، والأهل ، والأصدقاء

(٤) أن يرحل من المنزل بكراً فإن الخير في البكور

(٥) أن يجعل أكثر سيره بالليل ، فإن الأرض تطوى بالليل

مألاً تطوى بالنهار

(٦) أن يحتاط بالنهار ، فلا يشي منفرداً خارج القافلة ، وربما

ينقطع ، أو يغتال ، وأن يتحفظ عند النوم بالليل

(٧) أن يرفق بالدابة فلا يحملها ما لا تطيق ، ولا يضربها

في وجهها ، وأن يروحها بالنزول عنها غدوة وعشية

(٨) أن يحمل معه مرآة ، ومكحلة ، ومقراضاً ، ومسواكاً

ومشطاً ، وقارورة ، وركوة ، وحبلاً

- (٩) أن ينوى في دخول كل بلدة أن يرى شيوخها، ويجهده في أن يسمع من كل واحد كلمة، أو أدباً ينتفع به
- (١٠) أن لا يزيد على ثلاثة أيام في زيارة أخ له، وإذا زار أحد أسانذته في سفره، فلا يُقيم عنده أكثر من يوم وليلة
- (١١) أن يرجع من سفره إذا رأى في نفسه نقصاناً عما كان عليه في الحضر
- وأحب أن يتنبه القارئ إلى دقة هذا الأدب الأخير



مفهوم المرأة

لا يرى الغزالي أن المرأة تساوي الرجل، بل يرى أن الرجل سيد المرأة. ويقول فيمن أطاع زوجته، ومملكها نفسه « انه عكس القضية. وأطاع الشيطان لما قال: ولا أمرنهم فليغيرن خلق الله. إذ حق الرجل أن يكون متبوعاً لا تابعاً وقد سمي الله الرجال قوامين على النساء، وسمى الزوج سيداً فقال: وألفيا سيدها لدى الباب. فاذا انقلب السيد مسخراً فقد بدل نعمة الله كفرة (١) »

(١) إن النساء يلقب عليهن المزاج العصبي. فهن يتأثرن بالتأفة من الامور ويجعلن من الهفوة الصغيرة أمراً خطيراً ويصيرن الحبة من مخالفتن قبة وبينن علالي الشقاق على أوهن أساس. وهذا أمر لا يعرفه الا مجرب ممارس لاحوال الزوجات وبخاصة من كان لهن في البيت نظائر ومنافسات كزوجة أخى الزوج وأخته وبحود ذلك من أم زوج وهكذا فهناك الشقاق الدائم والحصام الذي لا ينقضي. ولا دواء لذلك سوى أن يكون الزوج قاهر الحكم نافذ الكلمة مطاع الامر. فاذا ضعف أو وهن فلا اقتضاء لشقاء البيت

عبد الوهاب النجار

ولم يقتصر الغزالي على ذلك ، بل حكم على طبيعة المرأة حكماً أقسى من الصخر ، فقد قال في معرض الحديث عن أدب النساء (والغالب عليهن سوء الخلق وركاكة العقل) واستدل بحديث لا أعلم مبلغه من الصحة ، وهو قوله عليه السلام (مثل المرأة الصالحة كمثل الغراب الأعصم بين مائة غراب)

وإليك جملة ما وضع الغزالي للمرأة من الحقوق :

أولاً - على الرجل أن يحسن الخلق معها ، وأن يحتمل الأذى منها ، ترحمًا عليها لقصور عقلها. ويقول الغزالي : « واعلم أنه ليس حسن الخلق مع المرأة كف الأذى عنها ، بل احتمال الأذى منها ، والحلم عند طيشها وغضبها »

ثانياً - أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة ، والمزاح ، والملاعبة ، فهي التي تطيب قلوب النساء . ويقول الغزالي « وقد كان رسول الله يمزح معهن ، وينزل إلى درجات عقولهن في الأعمال والأخلاق » وهذا تأكيد لرأيه في طبيعة المرأة

ثالثاً - الاعتدال في الغيرة ، فلا يتغافل الرجل عن مبادئ الأمور التي تخشى غوائلها ، ولا يبالغ في إساءة الظن ، والتعننت وتجسس البواطن

رابعاً - الاعتدال في النفقة ، فلا ينبغي أن يقتر عليها

في الإنفاق ، ولا ينبغي أن يسرف ، ولا ينبغي ترك الحلوى
بالكلية ، وينبغي أن يأمر الرجل أهله بالنصدق ببقايا الطعام ،
وما يفسدلو ترك . وللمرأة أن تفعل ذلك بحكم الحال من غير إذن
الزوج . ولا ينبغي أن يستأثر الرجل عن أهله بما كول طيب ،
فإن ذلك ينافي المعاشرة بالمعروف

خامساً — على الرجل أن يعلم زوجته أحكام الصلاة ، فإن لم
يعرف ناب عنها في سؤال العلماء ، وليس لها أن تخرج لطلب
العلم مادام الزوج لم يقصر في تعليمها الفرائض — فإن قصر فلها
الخروج للاستفادة ، بل عليها ذلك ، ويعصي الرجل بمنعها . ومتى
تعلمت الفرائض فليس لها أن تخرج لتعلم فضل إلا برضاه .
وللرجل الحق في أن لا يدخل عليها الرجال ، وأن يمنعها من الخروج
إلى المساجد والأسواق

وهنا نلفت النظر إلى أن الغزالي يقرر ويلح في تحريم خلوة
الرجل بالمرأة الأجنبية ، ولم يفرق بين العلماء وغير العلماء ، والمرأة
العجوز فقط هي التي يجوز لها عنده زيارة المساجد وإن خالف
ذلك بعض الشيء ما كان على عهد رسول الله . ويكاد يجزم بأن
النبي لو شاهد أهل عصره لشدد في التضييق على المرأة

سادساً — إذا كان له نسوة فينبغي أن يعدل ، فإذا خرج

إلى سفر وأراد استصحاب واحدة أفرع بينهما ، والعدل واجب
في العطاء والمبيت ، وأما في الحب والوقاع فهو تكليف بما لا يطاق
سابعاً — إذا وقع بين الزوجين خصام ولم يلتئم أمرهما ،
فإن كان من جانبها جميعاً أو من الرجل فلا بد من حكمتين : أحدهما
من أهله والآخ من أهلها ، لينظرا بينهما ويصلحا أمرهما ،
وليس للمرأة أن تتولى تأديب الرجل حين يكون الخصام من
جانبه لئلا تسلط فلا يقدر على إصلاحها كما يقول الغزالي
وأما إذا كان النشوز من المرأة خاصة ، فالرجل أن يؤدبها ،
ويحملها على الطاعة قهراً ، ولكن ينبغي أن يتدرج في تأديبها ،
فيقدم أولاً الوعظ ، والتحذير ، والتخويف ، فإن لم ينجع أولها
ظهره في المضجع ، وانفرد عنها بالفراش ، وهجرها وهو في البيت
معها من ليلة إلى ثلاث ليال ، فإن لم ينجع ذلك ضربها ضرباً غير
مُبرح بحيث يؤلمها ، ولا يكسر لها عظام ، ولا يدمي لها جسماً ،
ولا يضرب وجهها فإن ذلك منهي عنه

ثامناً — أن ينظر الرجل في حاجة امرأته إلى التحصين ، فإن
تحصينها واجب عليه . وللغزالي في هذا الموضوع كلام كله سداجة :
إذ تراها يضع طائفة من الأدعية يقوم بها الرجل عند الوقاع ،
حتى ليذكر أن بعض أصحاب الحديث كان يُكبر حتى يسمع

أهل الدار صوتة !! وما أدري كيف تصاح هذه اللحظة للأدعية والأوراد ، وما الى ذلك مما يضعف الشهوة ، ويبعث على الخمود ؛
تاسعا - الطلاق مباح ، ولكنه إيذاء . ولا يباح للرجل إيذاء المرأة إلا بجنابة من جانبها أو ضرورة من جانبها . ومهما آذت زوجها أو بدأت على أهله فهي جانية ، وكذلك مهما كانت سيئة الخلق أو فاسدة الدين . ويرى الغزالي أن حق الوالد مقدم على حق الزوجة ، فاذا كرهها الوالد لغرض غير فاسد فقد جاز الطلاق . وان كان الأذى من الزوج فلها أن تفتدى بمال ، ويكره للرجل أن يأخذ منها أكثر مما أعطى ، فان ذلك إجحاف بها وتحامل عليها وتجارة على البضع . وعلى الزوج أن يتلطف في التعلل بتطليق زوجته من غير تعنيف واستخفاف . وأن يطيب قلبها بهدية على سبيل الجبر والإمتاع ، وأن لا يفشى سرها لافي الطلاق ولا عند النكاح

ومما سلف بيانه ، نعرف أن الغزالي لم يفكر في المرأة إلا من حيث هي زوجة ، فلم يذكر شيئاً عن حقوقها الاجتماعية ، ولم يتكلم عن تعليمها قبل الزواج ، ولم يسمح للمتزوجة بشيء من العلم أكثر من الفرائض ، وهي غاية بسيطة بالطبع ، لأن تعلم الفرائض لم يكن موضع خلاف . وكل هذا نتيجة محتومة لرأيه

في طبيعة المرأة، إذ كانت عنده في مقام التابع، ومن طاعة
الشیطان أن تصبح في مقام المتبوع !

٩

الرفق بالمرأة

ولم يكتب الغزالي بهذه الحقوق في صيانة المرأة، بل حض
الرجل على الرفق بها في كل حال، فذكر في ص ١٢١ من كتابه
التبر المسبوك أن من أحب أن يكون مشفقاً على زوجته رحماً
بها، فليذكر أن المرأة لا تقدر أن تطلقه، وهو قادر على طلاقها
متى شاء، وأنها لا تقدر أن تأخذ شيئاً بغير إذنه، وهو قادر على
ذلك، وأنها مادامت في حباله لا تقدر على زوج سواه، وهو قادر
على أن يتزوج عليها، وأنه لا يخافها وهي تخافه، وأنها تقنع منه
بطلاقة وجهه، وبالكلام اللين، وهو لا يرضى بجميع أفعالها،
وأنها تفارق أمها وأباها وجميع أقاربها لأجله، وهو لا يفارق
لأجلها أحداً، وأنه يقدر أن يتسرى ويختص بالجواري دونها،
وأنها تخدمه دائماً وهو لا يخدمها، وأنها تتلف نفسها إذا كان
مريضاً وهو لا ينغم لها ولو ماتت
وألاحظ أن هذه النصيحة الشرعية تفترض أن يكون
الرجل مسيطراً على المرأة، وأنها كالحمل الوديع. ومن الواضح

أن الرجل لا يكون دائماً على هذه السيطرة ، والمرأة لن تكون دائماً بهذه الوداعة ؛ ولكن عذر الغزالي في إطلاق هذا النصح ، أن الغالب وقوع هذه الحال ، فالرجل في الغالب يأمر وينهى ، والمرأة تسمع وتطيع ، وما عدا ذلك شذوذ ، وهم لا يضعون القواعد للشواذ !

والذي لا شك فيه ، من يبرز ما قال الغزالي : أن الرجل يملك رقبة المرأة ، ويستطيع أن يتزوج من غيرها إن شاء ، ويتصرف في البيت بلا رقيب ولا حسيب ، وأن المرأة تركت لأجله أمها وأبها وأقاربها ، وهو لم يفارق لأجلها أحداً من العالمين

١٠

واجبات المرأة

النكاح نوع رق - كما يقول الغزالي - فالزوجة رقيقة الزوج ، وعليها طاعته في كل ما يطلب ، مما لا معصية فيه . واليك خلاصة ما عليها من الواجبات :

(١) أن تكون قاعدة في قعر بيتها ، ملازمة لمفرزها ، لا يكثر

صعودها وإطلاعها على سطوح الجيران

(٢) وأن تكون قليلة الكلام لجيرانها ، ولا تدخل عليهم الا

في حال يوجب الدخول

(٣) وأن نحفظ بعلمها في غيبته وحضرته ، وتطلب مسرته في جميع أمورها ، ولا تخونه ، لا في نفسها ولا في ماله
(٤) وأن لا تخرج من بيتها إلا بأذنه ، فان خرجت بأذنه فاختفية في هيئة رثة ، تطلب المواضع الخالية ، دون الشوارع والأسواق ، محترزة من أن يسمع غريب صوتها ، أو يعرفها بشخصها

(٥) وأن لا تتعرف الى صديق بعلمها في حاجتها ، بل تتنكر على من تظن أنه يعرفها أو تعرفه

(٦) واذا استأذن صديق بعلمها على الباب ، وليس البعل حاضراً ، لم تستفهم ولم تعاوده في الكلام ، غيراً على نفسها وبعلمها وأن تقنع من زوجها بما رزقه الله

(٨) وأن تقدم حقه على حقها وحقوق سائر أقاربها

(٩) وأن تكون متنظفة في نفسها مستعدة في جميع الأحوال

ليتمتع بها إن شاء

(١٠) وأن تشفق على أولادها

(١١) وأن تكون قصيرة اللسان عن مراجعة الزوج وسب

الأولاد

(١٢) وأن تقوم بكل خدمة في الدار تقدر عليها

(١٣) وأن لا تذهب إلى الحمام، إلا إذا لم يكن في البيت مُسْتَحَمٌ ،
وكانت نفساء أو مريضة ، وان دخلت فلا تدخل الا بمنزلة سابع

١١

آداب الكتاب

ومما يوضح بعض الجوانب في تصور الغزالي للحياة ،
وحرصه على النظام ، ما وضعه من آداب الكتاب ، فقد تنبئ
بذلك وجهة نظره فيما ينبغي أن يكون عليه الكاتب من الخبرة
والكفاية ، ولم تنشأ إلا مثل ذلك كليات الصحافة في العهد الحديث
ويرى الغزالي أن الكاتب يجب عليه :

(١) أن يعرف بُعد الماء وقربه تحت الأرض

(٢) وأن يعرف زيادة الليل والنهار ، ونقصانهما ، في الصيف

والشتاء ، ومسير الشمس ، والقمر ، والنجوم

(٣) وأن يعرف الحساب ، والهندسة ، والتقويم

(٤) وأن يعرف اختيارات الايام ، وما يصلح للمزارعين

(٥) وأن يعرف الطب والأدوية

(٦) وأن يعرف ريح الشمال والجنوب

(٧) وأن يعرف الشعر والقوافي

(٨) وأن يكون خفيف الروح ، طيب اللقاء

- (٩) وأن يحسن برى القلم وقطاه ، ورفعه وحطاه ، كما قال :
- (١٠) وأن يحرس نفسه من طغيان قلمه
- (١١) وأن يُظهر بشبا قلمه ما يحول في نفسه
- (١٢) وأن يعرف ما يمد من الحروف
- (١٣) وأن يبين الخط ، ويعطى كل حرف حقه
- وقد وضع الغزالي فوق ما تقدم صورة لما يمد أو يقصر من الحروف ، ووضع طريقة لبرى الاقلام العربية ، والفارسية ، والعبرية ، وما يجب أن يكون عليه المقط من الصلابة ، وما ينبغي أن يمتاز به القرطاس من التساوى والصلابة ، وما يحسن من تشابه صورة الأحرف ، ليقرب الخط من الجمال . وكل ما تقدم هو بالطبع صورة لأراهم إذ ذلك فيما ينبغي أن يكون عليه الكتاب

١٢

وامبيات الملوك

يتكلم الغزالي كثيراً عن « الأُمراء والسلاطين » ويذكر ما لهم وما عليهم . وتجد في حقوق المحتسب من هذا الكتاب ما وضعه من الفرق بين إرشاد العامة ، وإرشاد الأُمراء والسلاطين كما يقول ، وقد وضع لهم كتاباً خاصاً سماه التبر المسبوك في

نصيحة الملوک ، وهو الذى قدمه للسلطان محمد بن ملك شاه ، وقد فصلنا رأينا فيه ، فلا نعود اليه الآن

ويستحسن الغزالي أن يقسم الملك نهارة إلى أربعة أقسام :
قسم لعبادة الله وطاعته . وقسم للنظر فى أمور السلطنة ، وإنصاف
المظلومين ، والجلوس مع العلماء والعقلاء لتدبير الأمور ، وسياسة
الجمهور ، وتنفيذ الأوامر ، والمراسيم ، والكتابة ، وإنفاذ الرسل ،
وقسم للأكل والنوم ، والنزود من الدنيا ، وأخذ الحظوظ من
الفرح والسرور . وقسم للصيد ولعب الكرة والصولجان وما
أشبه ذلك

وينصح الغزالي للملك بأن لا يشتغل دائماً بلعب الشطرنج ،
والترد ، وشرب الخمر ، وضرب الكرة والصيد ، لأن هذه تمنعه
عن الاعمال ، ولكل عمل وقت ، فإذا فات عاد الریح خسرانا

ويفهم من هذا أن الملك يجوز له شرب الخمر مع الإقلال ،
ولكن هذا يتنافى حرص الغزالي وإصراره على حرب المسكرات ،
فلا يبعد أن تكون هذه الكلمة دُستت أو وقعت . هو فى كتاب
التبر المسبوك

ويجب فيما يرى الغزالي أن يراعى الملك ما يأتى من الأصول

- (١) أن يعرف قدر الولاية وخطرها ، وما يكون من سعاده إذا أحسن ، ومن شقائه إذا أساء
- (٢) أن لا يقنع برفع يده عن الظلم . بل يهذب غلامانه ، وأصحابه وعماله ، ونوابه ، فإنه عن ظلمهم مسئول
- (٣) أن لا يتكبر ، فإن التكبر داعية الغضب والانتقام
- (٤) أن يفرض نفسه واحداً من الرعية في كل ما يعرض عليه فإلا يرضاه لنفسه لا ينبغي أن يرضاه لأحد من المسلمين
- (٥) أن لا يشتغل بنوافل العبادة ، وبيابه أحد من أرباب الحوائج
- (٦) أن لا يعود نفسه الاشتغال بالشهوات : من لبس الثياب الفاخرة ، وأكل الأطعمة الطيبة ؛ بل يتعود القناعة في جميع الأشياء ، فلا عدل بلا قناعة
- (٧) أن يتجنب الشدة ، والعنف ، كلما أمكنه الرفق
- (٨) أن يجتهد في أن ترضى عنه الرعية بموافقة الشرع
- (٩) أن لا يطلب رضا أحد من الناس بمخالفة الشرع
- (١٠) أن يعين رعيته إذا وقعت في ضائقة ، وأن ينفق عليها من خزائنه ، إذا وقعت في قحط أو غلاء ، لأن في ذلك استبقاء لطاعتهم ، ودرء المطامع المحتكرين
- والغزالي لا يستنكر قسوة الملك ، إذا لؤمت الرعية ، بل يدعو إلى أن تهابه الرعية وهو بعيد ، ويقول « وسلطان هذا الزمان

يجب أن تكون له أوفي سياسة ، وأتمهية ، لأن أناس هذا الزمان ليسوا كالمقدمين ، فإن زماننا هذا زمان ذوي الوقاحة والسفهاء وأهل القساوة والشحناء . وإذا كان السلطان والعياذ بالله بينهم ضعيفاً أو كان غير ذى سياسة فلا شك أن ذلك يكون سبب خراب البلاد ، وأن الخلل يعود على الدنيا والدين « (١)

والسياسة في كلامه هذا معناها الحزم في شدة وقسوة ، لينتهى المفسدون

١٣

مقوق الوزراء

وعلى الملك أن يعامل الوزير بثلاثة أشياء :

الأول — إذا ظهرت منه زلة ، أو وجدت منه هفوة ، فلا يماجله بالعقوبة

الثاني — إذا اتسعت حاله في خدمته واستغنى ، فلا يطعم في ماله ووثوته

الثالث — إذا سأله حاجة فلا يتوقف في قضائها

وينبغي أن يمنحه ثلاثة أشياء

الأول — أن لا يمتنع عن رؤيته متى اختار أن يراه

الثاني — أن لا يسمع في حقه كلام مفسد

الثالث — أن لا يكتم عنه شيئاً من سره ، لأنه مدبر الدخل
وبه عمارة الخزائن والولايات

ويجب على الوزير :

أولاً — أن يكون محبا للخير ، مبغضاً للشر

ثانياً — أن يعين الملك على الشفقة بالرعية إذ رأى منه الميل لذلك

ثالثاً — أن يرشده باللطف إذا رأى منه ميلاً للظلم

ويقول الغزالي في نصيح الملك الذي أهده كتابه « وينبغي

أن تعلم أن دوام الملك بالوزير ، وأن دوام الدنيا بالملك ، وينبغي أن

تعلم أنه لا يجوز له أن يهتم بغير الخير » ص ٧٩

وهذه الواجبات التي وضعها للملوك والوزراء تعتبر في الواقع

بجملتها بالنسبة لما يحتاجون إليه من شئ الآداب في معاملة الرعية ،

ومعاملة جيرانهم من الدول ، ولكن يلاحظ كذلك أنه حكم

الشرع في جملة هذه الآداب ؛ وقد وضع الفقهاء عدة أحكام تخص

الخلفاء والولاة ، وما أحسبه يخالفهم في هذا الباب

١٤

معاملة الملوك الظالمين

ومما يوضح جانباً من جوانب الأخلاق عند الغزالي رأيه

في معاملة الظلمة من الأمراء والسلاطين ، فقد حتم على من يأخذ

مالاً منهم أن ينظر كيف وصل إليهم ، وأن يتأمل الصفة التي
استحق بها الأخذ ، والمقدار الذي يأخذه ، وهل يستحقه إذا
أضيف إلى حاله وحال شركائه في الاستحقاق ؛ وبين أنه إذا لم
يُعرف للسلطان دخل إلا من الحرام ، فالأخذ منه سحت محض .
وأن واجب الورع يقضى بأن لا يأخذ المرء شيئاً من مال الظالم
على الإطلاق ، فإن لم يستطع فليأخذ ما يتأكد أنه حلال

أما الدخول على الظامة وغشيان مجالسهم فهو محظور .
ولا تجوز زيارة الملك الجائر إلا بعذرين : الأول أن يكون من
جهتهم أمر إلزام ، لا أمر إكرام ، ويعلم الرجل أنه إن امتنع
أوذى ، أو فسدت طاعة الرعية : فتجب عليه الإجابة ، لاطاعة لهم
بل مراعاة لمصلحة الخلق ، حتى لا تضرب الولاية

الثاني أن يدخل عليهم في دفع ظلم عن مسلم سواه . أو عن
نفسه ، بطريق الحسبة ، أو بطريق التظلم

وإذا دخل عليك السلطان الظالم زائراً فاجواب السلام لا بد
منه ، والقيام له غير حرام ، والأولى تركه إن لم يكن معه أحد . ثم
تأخذ في تعريفه ما يجمله ، وتخوينه فيما هو مستجرب عليه . وإرشاده
إلى ما هو غافل عنه

والأفضل فيما يرى الغزالي أن يعتزلهم المرء فلا يراهم ولا

يرونه ؛ والأمر كذلك في معاملة قضاتهم ، وعمالهم ، وخدمهم .
وللغزالي في هذا الباب تفاصيل عجيبة فيما يتعلق بما يقيمون من
القناطر والطرق والمساجد والسقايات والأسواق . وأخص
ما يلاحظ أنه إنما يدعو إلى أن يخلص المرء ذمته ، مع البعد كل
البعد عما يفضى إلى فتنة أو اضطراب

١٥

مفهوم الأخوة

المراد بالأخوة الصحبة والصدقة ، إلى غير ذلك مما تشر
الألفة . والالفة — كما نص الغزالي — ثمرة حسن الخلق ، إذ
يوجب التحاب والتألف والتوافق ، كما أن سوء الخلق يثمر
التباغض ، والتحاسد ، والتدابر

ويجب فيما يرى الغزالي أن يكون للرجل أعداء يبغضهم
في الله ، كما يجب أن يكون له أصدقاء يحبهم في الله
ولكن الحب في الله ، والبغض في الله غامض . ولكشف
الغطاء عنه ، قسم الصحبة إلى : ما يقع بالاتفاق ، كالصحبة بسبب
الجوار أو بسبب الاجتماع في المكتب ، وفي المدرسة ، أو في السوق
أو على باب السلطان ، أو في الأسفار ؛ وإلى ما ينشأ اختياراً
ويقصد ، وهو المراد . إذ لا ثواب ولا عقاب إلا على الأفعال

الاختيارية . والصحبة عبارة عن المجالسة ، والمخالطة ، والمجاورة .
وهذه الأمور لا يقصد بها الانسان غيره إلا إذا أحبه . والذي
يُحَبُّ : إما أن يحب لذاته ، وإما أن يحب للتوصل به إلى مقصود
وذلك المقصود : إما أن يكون مقصوداً على الدنيا وحظوظها ،
وإما أن يكون متعلقاً بالآخرة ، وإما أن يكون متعلقاً بالله تعالى

حب المرء لذاته ولجماله

يرى الغزالي أن الانسان قد يُحَبُّ لذاته ، لا لفائدة تنال منه
في حال أو مال ، بل لمجرد المجانسة ، والمناسبة في الطباع الباطنة
والأخلاق الخفية ، ويدخل في هذا القسم ، فيما يرى ، الحب
للجمال ، إذا لم يكن للمحب غرض خبيث ، فإن الجمال مستملح
لذاته ، وإن قُدِّرَ فقد أصل الشهوة . والغزالي يضرب المثل لهذا
بالنظر إلى الفواكه ، والأنوار ، والأزهار ، والتفاح المشرب
بالحمرة ، وإلى الماء الجاري ، والخضرة ، من غير غرض مذموم
إذ تحب لعينها . وهذا الحب كما يقول الغزالي لا يدخل فيه الحب
لله ، بل هو حب الطبع ، وشهوة النفس ، وهو مباح لا يوصف
بمدح ولا بدم

الحب للمنافع الدنيوية

وقد يُحَبُّ الانسان لينال من ذاته غير ذاته . كما يحب الرجل

سلطاناً لا تتفاهه بماله ، أو جاهه ، ويجب خواصه لتحسينهم
حاله عنده .

والمتموِّسل إليه — كما يقول الغزالي — إن كان مقصور
الفائدة على الدنيا ، لم يكن حبه من جملة الحب في الله ، وإن لم
يكن مقصور الفائدة على الدنيا ، ولكنه لا يقصد به إلا الدنيا
كحب التاميد لاستاذه ، فهو أيضاً خارج عن الحب لله ، فإنه إنما
يجبه ليحصل منه العلم لنفسه ، فحجوبه العلم

وينقسم هذا الحب فيما يرى الغزالي إلى مذموم ومباح ،
فإن كان يقصد به التوصل لأغراض مذمومة كقهْر الأقران ،
وحيازة أموال اليتامى ، وظلم الرعية بولاية القضاء أو غيره ، كان
الحب مذموماً . وإن كان يقصد به التوصل إلى مباح فهو مباح

الحب للمنافع الدُّنْويَّة

وقد يُحِبُّ الإنسان ، لالذاته بل لغيره ، وذلك الغير ليس
راجعاً إلى حظوظه في الدنيا ، بل يرجع إلى حظوظه في الآخرة ،
كمن يحب أستاذه لأنه يتوصل به إلى تحصيل العلم وتحسين العمل
ومقصوده من العلم والعمل الفوز في الآخرة . وهذا من جملة
المحبين في الله . ومثله من أحب زوجته لأنها آلة إلى مقاصد دينية ،
كالتحصن والولد الصالح

الحب لمنافع الدنيا والآخرة

ويقول الغزالي : ليس من شرط حب الله أن لا يحب في العاجلة حظاً ألبتة . ويقول : إذا اجتمع في قلبه محبتان : محبة الله ، ومحبة الدنيا ، فاجتمع في شخص واحد المعنيان جميعاً حتى صالح لأن يتوسل به إلى الله وإلى الدنيا ، فإذا أحبه لصلاحه للأمرين جميعاً فهو من المحبين في الله ، كمن يحب أستاذه الذي يعلمه الدين ، ويكفيه مهمات الدنيا بالمواساة في المال

الدنيا غلبة بالحب

ولا يفوتنا أن ننوه بما وفق اليه الغزالي حين قال « وعلى الجملة ، فإذا لم يكن حب السعادة في الآخرة مناقضاً لـحب الله تعالى ، فحب السلامة ، والصحة ، والكفاية ، والكرامة في الدنيا ، كيف يكون مناقضاً لـحب الله ؟ والدنيا والآخرة عبارة عن حالتين إحداهما أقرب من الأخرى . فكيف يتصور أن يحب الإنسان حظوظ نفسه غداً ولا يحبها اليوم ؟ وإنما يحبها غداً لأن الغد سيصير حالاً راهنة . فالحالة الراهنة لا بد أن تكون مطلوبة . إلا أن الحظوظ العاجلة منقسمة إلى ما يضاد حظوظ الآخرة ويمنع منها ، وهو الذي احتزر عنه الأنبياء ، وأمروا بالاحتراز عنه . وإلى ما لا يضاد ، وهو الذي لم يمتنعوا عنه كالنكاح الصحيح وأكل الحلال » وليس بمستنكر أن يشتد حبك لا إنسان لجملة أغراض لك ترتبط به ، ولا يستحيل اجتماع الأغراض الدنيوية والأخروية ، فهو داخل في جملة الحب لله «

وانما نوهنا بهذه الفقرة لأنها في صوابها تناقض ما يردده
الغزالي من احتقار الأغراض الدنيوية ، والإشادة بالحياة الآخروية
مما يخيل إلى القارئ أن الدنيا عنده أحقر من أن تتعلق بها
الأغراض !

الحب لله

وقد يُحِبُّ الانسان في الله والله ، دون أن ينال منه شيء ،
أو يتوسل به إلى أمر وراء ذاته ، وهذا أعلى الدرجات ، وهو
غاية في الدقة والعموض

ميزانه الحب

بين الغزالي أن المرء قد يُحِبُّ لذاته ، وقد يُحِبُّ لمقصود
دنيوى أو أخروى ينال منه ، وقد يجب لله ، لا لغرض يقصد
في حال أو مال

ولكن ماهى دلائل ذلك الحب ، حميداً كان أو غير حميد ؟
وبأى ميزان يوزن ذلك الميل ، حتى تعرف درجات المحبين ؟

لقد وضع الغزالي ميزاناً هو أدق موازين الحب في هذا
الوجود : وهو المال ! وانظر قوله « ومن احب ملكاً أو شخصاً
جميلاً أحب خواصه وخدمه ، وأحب من أحبه ، إلا أنه يُمتحن الحبُّ
بالمقابلة بمحظوظ النفس ، وقد يغلب بحيث لا يبقى للنفس حظاً إلا فيما
هو حظ المحبوب ، وعنه عبر من قال :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد
وقول من قال :

فالجرح إذا أرضاكم ألم

وقد يكون الحب بحيث يترك به بعض الحظوظ دون بعض ، كما تسمح
نفسه بأن يشاطر محبوبه في نصف ماله ، أو في ثلثه ، أو في عشره .
فمقادير الأموال موازين المحبة ، إذ لا تعرف درجة المحبوب إلا بمحسوب
يترك في مقابلته فمن استغرق الحب جميع قلبه لم يبق له محبوب سواه فلا
يملك لنفسه شيئاً »

المال هو أدق موازين الحب في هذا الوجود ، وقد أفصح
عن ذلك الغزالي ، وإن سبقه قول جميل :

سليبي مالى يابئين فانما يبين عند المال كل صنين

ماله رخ على أخيه

وبعد الميزان الذى وضعه الغزالي للمحبة : لا نرانا في حاجة
إلى إجمال ما فصله من حقوق الأخوة . ويكفى أن نذكر أنه
يرى للأخ حقاً على أخيه : في نفسه ، وماله ، وقلبه ، ولسانه ؛
ولكل حق من هذه الحقوق درجات تتناسب مع ما تنطوى
عليه الصدور من حب قوى أو ضعيف

مفوق الاخ المذب

على أنى أرى من الواجب أن أذكر رأى الغزالي في حقوق
الأخ المذب ، فانه فيما أعتقد رأى كله صواب ، وهو في الوقت

نفسه كثير على عصر كالعصر الذي عاش فيه الغزالي ، فلسنا نجهد
أن الناس كانوا إذ ذاك قليلي التسامح ، وأنهم كانوا مملوئين
بالرَّيب والظنون

يرى الغزالي أن الصداقة لحة كالحمة النسب . والقريب
لا ينبغي أن يهجر بالمعصية . فقد قال تعالى للنبي في عشيرته « فان
عصوك فقل إني بريء مما تعملون » ولم يقل إني بريء منكم ، مراعاةً
لحق القرابة ، ولحة النسب . قال الغزالي « ومن حيث إن الاخوة
عقد ينزل منزلة القرابة ، فاذا انعقدت تأكد الحق ، ووجب الوفاء
بموجب العقد . ومن الوفاء به أن لا يهمل أيام حاجته وفقره . وفقر الدين
أشد من فقر المال . وقد أصابته جائحه ، وألمت به آفة افتقر بسببها
في دينه ، فينبغي أن يراقب ويراعى ، ولا يهمل ، بل لا يزال يتلطف به
ليعان على الخلاص من تلك الواقعة التي ألمت به . فلا أخوة عدة
للنائب ، وهذا من أشد النوائب »

وقد توقع الغزالي أن يقول قائل : إن مقارن المعصية لا تجوز
مؤاخاة ابتداء فتجب مقاطعته انتهاء . لأن الحكم إذا ثبت بعلة
فالقياص أن يزول بزوالها ، وعللة عقد الاخوة التعاون في الدين ،
ولا يستمر ذلك مع مقارفة المعصية . وقد أجاب بأن المعصية إنما
منعت ابتداء المؤاخاة مع الفاسق لأنه لم يتقدم له حق ، أما الأخ
المذنب فقد ثبتت أخوته ، فلا تسقط بالمعصية ، كما لا تسقط

القرابة ، ومتى بقيت فقد بقي ما كان لها من الحقوق
وزيد الغزالي أن مصاحبة الفاسق خير من مجانبتة ، إذ كانت
الصحبة داعية الرجوع الى الحق ، والإقلاع عن الباطل ، بخلاف
المجافاة ، فقد تقوى فيه الإصرار والعناد
وهذه عظة بالغة ، لا وثلك الذين كلما رأوا مبطلا فروا منه
باسم الدين ، وهم يفرون من الواجب لو يعلمون :

١٦

البغض في الله

يقول الغزالي : « كل من يحب في الله لا بد أن يبغض في الله ،
فإنك إن أحببت إنسانا لأنه مطيع لله ، ومحبوب عند الله ، فإن عصاه
لا بد أن تبغضه ، لأنه عاص لله ، وممقوت عند الله ، ومن أحب لسبب
فبالضرورة يبغض لضده » ولكن البغض كما رأيت لا يوجب المجافاة

العصاة بالاعتقاد

والمخالف لأمر الله ، إما أن يكون مخالفا في عقده أو في عمله
والمخالف في العقد إما مبتدع أو كافر ، والمبتدع إما داع الى بدعته
أو ساكت ، إما بعجزه أو باختياره ، فأقسام الفساد
في الاعتقاد ثلاثة

الاول - الكفر والكافر إن كان محاربا فهو يستحق القتل

والإِرْقَاق، وإن كان ذِمِّيًّا فلا يجوز إيذاؤه إلا بالأعراض عنه
والتحقير له

الثاني - المبتدع الذي يدعو الى بدعته . فإن كانت البدعة
بحيث يكفر بها فأمره أشد من الذمى . لانه لا يقَرِّ بِجِزِيَّةٍ ، ولا
يسامح بعقد ذمة . وإن كان مما لا يكفر به فأمره بينه وبين الله
أخف من أمر الكافر لا محالة ، ولكن الأمر في الإنكار عليه
أشد منه على الكافر ، لأن شر الكافر غير متعد . أما المبتدع
الذي يدعو الى البدعة ويزعم أن ما يدعو اليه حق فهو سبب لغواية
اخلق وشره متعد ، فلا استحباب في إظهار بغضه ، ومعاداته ،
والانقطاع عنه ، وتحقيره ، والتشنيع عليه ، وتنفير الناس منه ، أشد
الثالث - المبتدع العامى ، الذى لا يقدر على الدعوة ،
ولا يُخَافُ الاقتداء به ، فأمره أهون . والأولى أن لا يفتح
بالتغليظ والاهانة ، بل يتأطف به فى النصيح ، فإن قلوب العوام
سريعة التقلب

العصيان بالفعل

أما العصيان بالفعل لا بالاعتقاد فانواعه ثلاثة :

الأول - وهو أشدها ، ما يضر ربه الناس فى دنياهم ، كالظلم

والغضب . وشهادة الزور ، والغيبة . والتميمة ؛ وهذه معاص
شديدة ، لأنها ترجع الى ايداء الخلق . وأصحاب هذه المعاصي
ينقسمون الى من يظلم في الدماء ، والى من يظلم في الأموال ،
والى من يظلم في الاعراض . وبعضها أشد من بعض ، والاستحباب
في اهااتهم ، والاعراض عنهم مؤكداً جداً

الثاني — ما يتضرر به الناس في أخراهم لافى دنياهم ، كعمل
صاحب الماخور الذي يهيئ أسباب الفساد ويسهل طرقها على
الخلق ، وهو قريب من الأول ، ولكنه أخف منه
وأنا لأفهم كيف يرى الغزالي أن هذا العمل لا يضر الناس
في دنياهم^(١)

الثالث — عمل الذي يفسق في نفسه ، بشرب خمر ، أو ترك
واجب ، أو مقارفة محظور بخصه . والامر فيه أخف مما سبقه ،
ولكنه إن صودف وقت مباشرة العمل يجب منعه بما يمتنع به
منه ، ولو بالضرب والاستخفاف

نفي

ويحسن بالتقارء أن يضم الحب في الله ، والبغض في الله ،

(١) لم يكن للزنا في عهده من المضار الدنيوية من الامراض الفتاكة كالزهري
ونحوه ماله اليوم فلم يرتق بنظره الى أكثر من الضرر الدني لانه هو المائل أمامه
عبد الوهاب النجار

الى ما قرره الغزالي من وجوب الاحتساب ، فان ضم هذه الابواب بعضها الى بعض يعطينا صورة واضحة لما يجب أن يكون عليه المسلم أو المرید أو ذو الخلق الحسن فيما يرى الغزالي والرجل الذي أحاطه بالحسبة ، والحب في الله ، والبغض في الله ، هو رجل يعرف ما يجب عليه للهيئة الاجتماعية ، التي تصاح بصلاح الافراد ، فيهدب نفسه أو لا ليفهم بالضبط ماله وما عليه ، ثم يدعو الناس إلى حفظ أموالهم وأنفسهم ، وينهاهم عن اقرار ما يضر بهم وبأخوانهم في الدين ، ثم يبغض بقلبه ويجوارحه من بغض من العقيدة ، أو يظلم الناس . وقد فصل الغزالي ذلك كله بأسلوب بالغ التأثير ، ودعم كلامه بكثير من الآيات والأحاديث والاختبار

١٧

آداب الزواج

يسمى الغزالي آداب النكاح ، وهو أصح في التعبير ، لأن النكاح في كتب التشريع لا يراد به الجماع ، وإنما يقصد به العقد . ولكننا قلنا آداب الزواج ، مجازاة للعرف الحديث وقد وضع الغزالي عدة آداب للنكاح ، تعد في الواقع ترغيباً فيه ، وهي في جملتها من الآداب العادية . ويهمني منها أدب واحد ،

أصاب الغزالي في الاهتمام به ، وهو تربية النفس بالزواج على احتمال أعباء المعاش . فقد ذكر أن الفائدة الخامسة من فوائد النكاح « هي مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصبر على أخلاقهم ، واحتمال الأذى منهم ، والسعي في إصلاحهم ، وإرشادهم إلى طريق الدين ، والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهم ، والقيام بتربيته لأولاده : فبكل هذه أعمال عظيمة الفضل ، فأنها رعاية وولاية ، والأهل والولد رعية ، وفضل الرعية عظيم . وإنما يجتريز منها من يجتريز خيفة من التصور عن القيام بحقوقها . وإلا فقد قال عليه السلام : (يوم من وال عادل أفضل من عبادة سبعين سنة . ثم قال : ألا كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته) وليس من اشتغل بإصلاح نفسه وغيره كمن اشتغل بإصلاح نفسه فقط ، ولا من صبر على الأذى كمن رفقه نفسه وأراحها ففحاسة الأهل والولد بمنزلة الجهاد في سبيل الله . ولذلك قال بشر : 'فضل على أحمد بن حنبل بثلاث : إحداهما أنه يطلب الحلال لنفسه ولغيره . وقد قال عليه السلام : ما أتقته الرجل على أهله فهو صدقة ، وإن الرجل ليؤجر في اللقمة يرفعها إلى امرأته »

ويقرر الغزالي بعد هذا أن في الصبر على الأهل رياضة للنفس ، وكسراً للغضب ، وتحسيناً للخلق . ويذكرني هذا الأدب بما يكرره سيدي الاستاذ الدكتور منصور فهمي في رسائله من كلمة « غم الحياة وغنمها » ويريد بذلك الترحيب بما في الحياة من متاع ، في سبيل ما فيها من الطيبات . والحق أن احتمال الأهل والولد من عزائم الأمور . والشبان الذين ينفرون من الزواج

إشارة للراحة ، إنعام جيناء ، ضعفاء ، لا يصلحون للجلاد
في ميدان الحياة

١٨

الخروج من المظالم

ونريد أن نبين رأى الغزالي فيما يجب على التائب الذي ظلم
الناس . لأن في ذلك بيانا لرأيه في احترام ما يلزم المرء من مختلف
الحقوق . وقد بدأ الكلام في هذا الموضوع بقوله عليه السلام
(من كانت له عند أخيه مظلمة في عرض أو مال ، فليتحللها منه
من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم)

مظلمة العرض

فإن كانت المظلمة متعلقة بالعرض ، فواجب على المعتاب أن
أن يندم ويتوب ، ويتأسف على ما فعله ، ليخرج من حق الله .
ثم يستحل المعتاب ليحله ، فيخرج من مظلمته . وينبغي أن يستحله
وهو حزين متأسف نادم على فعله . لئلا يقارف بريائه معصية
جديدة

مظلمة المال

وإن كانت المظلمة في المال فعليه أن يميز الحرام ، وأن ينظر
في مصرفه

فإن كان الحرام معلوم العين : من غضب ، أو ودیعة ، أو غير ذلك ، فأمره سهل . وإن كان ملتبساً فلا یخلو أمره من أن یكون فی مال هو من ذوات الأمثال ، كالحبوب والنقود والأدهان ، أو أن یكون فی أعیان متمایزة : كالعیید والدور والثیاب

فإن كان فی الممائنات ، أو كان شائعاً فی المال كله ، كمن اكتسب المال بتجارة یعلم أنه قد كذب فی بعضها بالمرابحة ، وصدق فی بعضها ، أو من غضب دهنًا وخلطه بدهن نفسه ، وفعل ذلك فی الحبوب والدرام والدنانیر ، فلا یخلو أمره من أن یكون معلوم القدر أو مجهولاً . فإن كان معلوم القدر : كأن یعلم أن قدر النصف من جملة ماله حرام ، فعليه تمييز النصف . وإن أشكل فله طریقان : أحدهما الأخذ بالیقین ، والآخر الأخذ بغالب الظن ، وكلاهما قال به العلماء

وفی الأعیان المتمایزة : كالدور والعیید ، یوزع القاضی الثمن بقدر النسبة . وإن كانت متفاوتة ، أخذ من طالب البیع قيمة أنفُس الدور مثلاً ، وصرف إلى الممتنع منه مقدار قيمة الأقل ویقدر التفاوت بالعرف

صرف المال الحرام

فإذا أخرج الحرام فلا یخلو أمره :

(١) إما أن یكون له مالك معین ، فیجب الصرف الیه

أو إلى وارثه . وإن كان غائباً فينتظر حضوره . وإن كانت له زيادة ومنفعة فلتجمع فوائده إلى وقت حضوره .
(ب) وإما أن يكون للمالك غير معين ميثوس منه لا يدري أمات عن وارث أم لا . فهذا لا يمكن الرد فيه للمالك ، ويوقف حتى يتضح الأمر فيه . فإن لم يعرف المالك تصدق بالمال ، وله أن ينفقه على نفسه وعلى أولاده إن كان فقيراً . ومثل ذلك ما لو تعذر الرد لكثرة الملاك ، كفلول الغنيمة ، فإنه كيف يقدر على جمع الغزاة بعد تفرقهم ؛ وإن قدر فكيف يفرق ديناراً واحداً على الف أو الفين ؟

(ج) وإما أن يكون من مال الفيء والأموال المرصدة لمصالح المسلمين كافة ، فيصرف ذلك إلى القناطر ، والمساجد ، والطرق ، وأمثال هذه الأمور التي يشترك في الانتفاع بها عامة المسلمين .

مظلمة النفس

وإن كانت المظلمة في النفس ، كالقتل ، فينظر في نوعه ، فإن كان خطأً فليسلم الدية ، وإن كان عمداً موجبا للقصاص فبالقصاص وله أن يتعرف إلى وليِّ الدم ويحكمه في روحه ، فإن شاء عفا عنه وإن شاء قتله . وقد تنبه الغزالي إلى أن هناك ذنوباً يجب أن تستر ،

فلا يصح أن يظهر فيها الاستحلال ، لأن في إظهاره جناية جديدة .
والخروج من مثل هذه المظالم يكون بالمجاهدة ، ورياضة النفس ،
والإحسان الموصول الى من أساء المرء اليه ، فان في الاحسان
جبراً للأساءة ، وهو كل ما يستطيعه التائب في مثل هذه الحال

١٩

واجب الاحتساب

الحِسْبَةُ والاحتساب في عرف المسلمين عبارة عن الأمر
بالمعروف إذا ظهر تركه ، والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله . لقوله
تعالى « ولتكن منكم أمةٌ يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف ،
وينهون عن المنكر » والاحتساب واجب على كل مسلم قادر ، وهو
فرض كفاية إذا قام به واحد من المسلمين سقط عن الجميع ، ويصير
فرض عين على القادر الذي لم يتم به غيره . وإذا كانت القدرة شرطا
للحسبة فقد أصبحت على ذوى السلطان أوجب ، لأنهم أقدر
من غيرهم . ومتى أقامت الحكومة محتسبا كان عليه أن يبحث
عن المنكر الظاهر ليصل الى إنكاره ، والمعروف المتروك ليأمر
بإقامته ، وكان لكل مسلم الحق في أن يستعديه فيما يجب إنكاره
ومن الفروق بين الحسبة والقضاء ، أن المحتسب يجوز له أن

يتعرض لتصفّح ما يأمر به من المعروف ، وينهى عنه من المنكر ،
وإن لم يحضره خصم مستعدّ ، وليس للقاضي أن يتعرض لذلك
إلا بحضور خصم يجوز له سماع الدعوى منه . وأنه يجوز للمحتسب
أن يستعمل القوة فيما يتعلق بالمنكرات ، وليس للقاضي غير فحص
القضية بالأناة والوقار .

ويطول بنا القول لو أردنا سرد الفروق بين الحسبة ، وأحكام
القضاء ، وأحكام المظالم ، في الحكومات الإسلامية ، فلنكتف
بهذا القدر ، تمهيداً لرأى الغزالي في شروط الاحتساب

شروط المحتسب

ولا يجب على امرئٍ فيما يرى الغزالي أن يأمر بخير ، أو ينهى
عن شر ، إلا بالشروط الآتية :

أولاً — أن يكون مكلفاً . فلا يجب على الصبي أمر بمعروف ،
ولانهي عن منكر . بل يجوز له ذلك ، وليس لأحد أن يمنعه
ثانياً — أن يكون مؤمناً . ومفهوم أن الغزالي لا يعترف

للجاهد بشيء حتى يصلح للإرشاد

ثالثاً — أن يكون عدلاً . ويناقد الغزالي هذا الشرط ،

ويذكر أن الأنبياء قد اختلف في عصمتهم عن الخطايا ، والقرآن العزيز دال على نسبة آدم عليه السلام الى المعصية ، وكذا جماعة من الأنبياء ، فلو اشترطنا في الإرشاد أن يكون متعاطية معصوما عن المعاصي لا غلق هذا الباب

رابعاً — أن يكون مأذونا من الإمام والوالى . وقد ناقش الغزالي هذا الشرط ، ورأى أن تخصيص الاحتساب بإذن والى بعد إطلاقه في الأحاديث والآيات ، تحكم لا أصل له . وقرر أنه يجب على المرء زجر المعاصي أينما رآه ، وكيفما رآه

خامساً — أن يكون قادراً . فليس على العاجز حسبة إلا بقلبه . ولا يقف سقوط الوجوب عند العجز الحسى ، بل يلتحق به ما يخاف منه مكروهاً يناله ، فذلك في معنى العجز ، وكذلك إذا لم يخف مكرهاً وعلم أن انكاره لا ينفع — وقد اختلفت كلمة الغزالي في هذه النقطة ففي ص ٣٢٢ ج ٣ من الإحياء ينص على سقوط وجوب الحسبة حين يعلم أنها لا تفيد . وفي ص ١٥٣ ج ١ يقول في النهي عن كشف العورة في الحمام « فاما قوله : أعلم أن ذلك لا يفيد ولا يعمل به فهذا لا يكون عذراً ، بل لا بد من الذكر ، فلا يخلو قلب امرئ عن التأثر من سماع الانكار واستشعار الاحتراز عند التلبس بالمعاصي . وذلك يؤثر في تقبيح الأمر في عينه وتنفير نفسه عنه فلا يجوز تركه »

وقد توقع الغزالي أن يقول قائل : إن المكروه المتوقع
ما حدّه الانسان . فان الانسان قد يكره كلمة ، وقد يكره ضربة
وقد يكره طول لسان المحتسب عليه في حقه بالغيبة ، وما من
شخص يؤمر بالمعروف إلا ويتوقع منه نوع من الأذى . وقد
يكون منه أن يسعى به إلى سلطان ، أو يقدح فيه في مجلس
يتضرر بقدحه فيه ، فإحدّ المكروه الذي يسقط الوجوب به ؟
وأجاب الغزالي بأن الحسبة لا تسقط إلا بالمكروه الظاهر
ممن يعلم أنه يضرب ضرباً مؤلماً يتأذى به ، أو يعلم بأنه تُهَبَّ
داره ، ويُخرَّب بيته ، وتُسلب ثيابه^(١)

المنكر المرهق عنه

ولا يُنهى عن شيء فيما يرى الغزالي إلا بالشروط الآتية :
أولاً - أن يكون منكراً ، أي محذور الوقوع في الشرع
قال الغزالي « وإنما عدلنا عن لفظ المعصية إلى هذا ، لأن المنكر أعم
من المعصية ، إذ من رأى صبياً أو مجنوناً يشرب الخمر فعليه أن يريق
خمره ويمنعه ، وكذا إن رأى مجنوناً يزني بمجنونة أو بهيمة ، فعليه أن
يمنعه . ثم قال : ولا تختص الحسبة بالكبائر ، بل كشف العورة في الحمام ،
والخلوة بالأجنبية ، وإتباع النظر للنسوة الأجنبيةات ، كل ذلك من
الصفات ويجب النهي عنه »

(١) انظر ص ٣٢٣ ج ٢ احباب

ثانياً - أن يكون المنكر موجوداً في الحال ، فلاحسبة على من فرغ من شرب الخمر ، ولا على من يُعلم من قرينه حاله أنه عازم على الشرب في ليلته

ثالثاً - أن يكون المنكر ظاهراً . فكل من ستر معصية في داره وأغلق بابه لا يجوز أن يتجسس عليه ، وقد أمرنا أن نستر ماستر الله ، وننكر على من أبدى لنا صفحته

رابعاً - أن يكون المنكر معلوماً بغير اجتهاد ، فكل ما هو في محل الاجتهاد فلا حسبة فيه ، وهذا الشرط الأخير يدل على قدر الغزالي لحرية الرأي والتفكير ، وما أحوج المصلحين إلى تأمله والعمل بمقتضاه :

صفات المرشد

ويجب أن يتصف المرشد بالعلم ، والورع ، وحسن الخلق أما العلم فليعلم مواقع الحسبة ، وحدودها ، ومجاريها ، وموانعها ، ليقصر على حد الشرع . وأما الورع فليردعه عن مخالفة معلومه ، فربما يعلم أنه مسرف في الحسبة ، وزائد على الحد المأذون فيه شرعاً ، ولكن يحمله عليه غرض من الأغراض ، وأما حسن الخلق فليتمكن به من اللطف والرفق ، وهو أصل هذا الباب

قال الغزالي : « فهذه الصفات الثلاث بها تصير الحسبة من القربات
وبها تندفع المنكرات ، وإن فقدت لم يندفع المنكر ، بل ربما كانت
الحسبة أيضاً منكراً لمجازة حد الشرع فيها ^(١) »
وقد نص على أن اشتراط الورع ليس معناه أن الأمر
بالمعروف يصير ممنوعاً بالفسق ، وإنما يسقط أثره من القلوب
بظهوره للناس

أنواع المنكرات

قسم الغزالي المنكرات إلى مكروهة ومحظورة ، ويبيّن أن
منع المكروه مستحب ، والسكوت عليه مكروه ، وليس بحرام
إلا إذا لم يعلم الفاعل أنه مكروه فيجب ذكره له ، لأن الكراهة
حكم في الشرع يجب تبليغه إلى من لا يعرفه ، وأن منع المحظور
واجب ، والسكوت عليه حرام
ثم ذكر طائفة من المنكرات التي تجرى في المساجد ،
والاسواق ، والشوارع ، والحمامات ، والضيافة . وآراؤه في هذا
الباب مسدّدة ، ترجع إلى الحرص على سلامة الناس في دينهم
ومعاشهم ، وإصلاح ذات بينهم . فمنها دعوته إلى منع ما يؤدّي
إلى تضيق الطارق واستضرار المارة ، ودعوته إلى منع الملائك من

تحميل الدواب مالا تطيقه ، وهو رفق بالحيوان . ودعوته إلى منع الاسراف في الطعام والبناء . والذي يتأمل ماسرده الغزالي من المنكرات يدرك مبلغ حرصه على غرس الرجولة والشرف في نفوس الأفراد والجماعات

درجات الاعتساب

للاعتساب درجات ، وهي :

- (١) التعريف (٢) ثم النهي (٣) ثم الوعظ (٤) ثم النصح (٥) ثم السب والتعنيف (٦) ثم التغيير باليد (٧) ثم التهديد بالضرب (٨) ثم إيقاع الضرب وتحقيقه (٩) ثم شهر السلاح (١٠) ثم الاستظهار بالأعوان وجمع الجنود

وفي الدرجة الأخيرة يقول الغزالي (وربما يستمد الفاسق أيضا بأعوانه ، ويؤدي ذلك إلى أن يتقابل الصفان ويتقاتلا . فهذا قد ظهر الاختلاف في احتياجه إلى اذن الامام . فقال قائلون : لا يستقل آحاد الرعية بذلك . لأنه يؤدي إلى تحريك الفتن وهيجان الفساد وخراب البلاد . وقال آخرون : لا يحتاج إلى الاذن . وهو الأقيس ، لأنه جاز للآحاد الأمر بالمعروف ، وأوائل درجاته قد تجر إلى ثوان وثوائث ، وقد ينتهي لا محالة إلى التضارب ، والتضارب يدعو إلى التعاون ، فلا ينبغي أن يبالي بلوازم الأمر بالمعروف ، ومنتهاه تجنيد الجنود في رضا الله ودفع معاصيه « ص ٣٣٦ ج ٣

ارشاد الامراء

ولا يجوز من درجات الاحتساب مع الامراء والسلاطين
— فيما يرى الغزالي — الا الرتبان الاوليان وهما التعريف والوعظ
أما المنع بالقهر فليس لاحاد الرعية مع السلطان ، فان ذلك يحرك
الفتن ويهيج الشر ، ويكون ما يتولد عنه من المحذور أكثر
وأما التخشين في القول ، كقوله : يا ظالم ، يا من لا يخاف
الله ، وما يجري مجراه ، فذلك إن كان يحرك فتنة يتعدى شرها
إلى غيره لم يجز ، وإن كان لا يخاف إلا على نفسه ، فهو جائز ،
بل مندوب إليه ، ومن قتل في هذا فهو شهيد



مسجد خرب في طوس موطن الغزالي . ويظن الدكتور زويمر انه بني في القرن الرابع

الباب الحادى عشر

فـ

تأثير الغزالى فى عصره

وما تلاه من العصور

أثر الغزالى فى عصره أثراً غير قليل : فشطر أهل العلم ،
والولاة ، شطرين . أحدهما ينصره ، والآخر يخذله ، وما زال

الفريقان يختصمان حتى طيراً شهرته فى جميع الآفاق

وقد رأى الغزالى فى حياته من يقدهس ، ويقدمه على جميع
العلماء ؛ ورأى فى الوقت نفسه كتبه تحرق فى بعض الأقطار
الاسلامية ، رمياً لها بالدعوة الخفية الى الكفر والإلحاد :

١

تجربته للمفرد الخامس

وكان جمهور المساهين فيما سلف يعتقد أن الله يبعث على رأس
كل مائة سنة من يحدد أمر الدين ، ولهم فى هذه العقيدة كلام
طويل ، وفيها يقول الجلال السيوطى فى أرجوزته

والشرط فى ذلك أن تمضى المائة وهو على حياته بين الفئة

يشار بالعلم الى مقامه وينصر السنة فى كلامه

وأن يكون مجامعا لكل فن وأن يعم علمه أهل الزمن
وأن يكون في حديث قدر وى من أهل بيت المصطفى وقد قوى
وكونه فردا هو المشهور قد نطق الحديث والجمهور
وهم يعتقدون أن مبعوث المائة الأولى عمر بن عبد العزيز
ومبعوث الثانية الشافعى ، والثالثة الأشعرى أو ابن سريج ، والرابعة
الاسفرايينى أو الصعلوكى أو الباقلانى . ويتفقون على أن مبعوث
المائة الخامسة هو الغزالى ، ويقول السيوطى فى ذلك
والخامس الخبر هو الغزالى وعده مافيه من جدال^(١)
وأنا لا أريد الآن تحقيق هذه الفكرة ، وبيان ما تركز
عليه من أساس قوى أو ضعيف ، فهى فى ذاتها فكرة سخرية ،
ونظم السيوطى فيها أسخف ، ويكفى أن يعلم القارىء أن الغزالى
بذ معاصريه ، وأخلافهم ، حتى جاء المتأخرون فعدوه مجدد المائة
الخامسة ، وقد يكونون مخطئين !

٢

النمايات والأعلام

ومما يدل على أن الغزالى شغل الناس ، واحتل أفتدتهم ، وصار
موضع وساوسهم ، وهو اجسهم ، وأحلامهم ، مارأيتاه لغير

(١) راجع شرح الزيدى ص ٢٦ ج ١

واحد من المنامات المتشابهة في تأييد الغزالي ، ونشر فضله ؛
فهذا السبكي يذكر في طبقاته أنه كان في زمانه شخص يكره
الغزالي ويذمه ويعيبه في الديار المصرية ، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم
في المنام ، وأبو بكر وعمر رضی الله عنهما بجانبه ، والغزالي جالس بين
يديه وهو يقول : يا رسول الله هذا يتكلم في ! وأن النبي صلى الله عليه
وسلم قال : هاتوا الشياطين ، وأمر به فضرب لأجل الغزالي ، وقام هذا
الرجل من النوم وأثر الشياطين على ظهره ، ولم يزل ، وكان يبكي ويحكى
للناس (؟ !)

ويذكر السبكي أيضاً أن أبا الحسن بن حرزهم لما وقف على الاحياء
وتأمله ، قال هذا بدعة ، مخالف لسنة ، وكان شيخاً مطاعاً في بلاد المغرب ،
فامر باحضار كل ما فيها من نسخ الاحياء ، وطلب من السلطان أن يلزم
الناس بذلك ، فكتب إلى النواحي ، وشدد في ذلك ، وتوعد من يخفي
شيئاً منه ، فاحضر الناس ما عندهم واجتمع الفقهاء ، ونظروا فيه ، ثم
أجمعوا على إحراقه يوم الجمعة وكان ذلك يوم الخميس ، فلما كانت ليلة
الجمعة رأى ابن حرزهم في المنام كأنه داخل من باب الجامع الذي تعود
الدخول منه ، فرأى في ركن المسجد نوراً ، وإذا بالنبي صلى الله عليه
وسلم وأبي بكر وعمر رضی الله عنهما جلوس ، والامام أبو حامد قائم
وبيده الاحياء فقال يا رسول الله : هذا خصمي ! ثم جثا على ركبتيه
وزحف عليهما إلى ان وصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فناوله كتاب
الاحياء ، وقال : يا رسول الله انظر فيه ، فان كان بدعة مخالفاً لسنتك
كما زعم ، تبت إلى الله تعالى ، وإن كان شيئاً تستحسنه حصل لي من
بركتك ، فالصفتي من خصمي ! فنظر فيه رسول الله ورقة ورقة إلى

آخره ، ثم قال : إن هذا شيء حسن ، ثم ناوله أبابكر فنظر فيه كذلك ، ثم قال : نعم ! والذي بعثك بالحق يا رسول الله إنه حسن ! ثم ناوله عمر فنظر فيه كذلك ، ثم قال كما قال أبو بكر . فأمر رسول الله بتجريد أبي الحسن بن حرزهم من ثيابه ، وضربه حدّ المفترى ، فجرد وضرب ، ثم شفع فيه أبو بكر بعد خمسة أسواط ، وقال يا رسول الله ، إنما حصل ذلك منه اجتهاداً في سنتك وتعظيماً . فعفا عنه أبو حامد عند ذلك . فلما استيقظ من منامه ، وأصبح ، أعلم أصحابه بما جرى ، ومكث قريباً من الشهر متألماً من الضرب ، ثم سكن عنه الألم ، ومكث إلى أن مات ، وأثر السياط على ظهره (! ؟)

وهناك المنام الذي رأى فيه أبو الفتح الساوي أنه تلا بين يدي رسول الله قواعد العقائد الذي صنفه الغزالي ، وهو منام طويل نقله السبكي في طبقاته . وقد كنت وضعت قائمة لأمثال هذه المنامات ، ثم بدا لي أن أقصر على ما ذكرت رغبة في الإيجاز

وأنا لا أتخذ من هذه الأحلام دليلاً على أن الغزالي من أصحاب الكرامات ، كما نوه بذلك مترجموه ، كلا ! وإنما أتخذها دليلاً على ما وصلت إليه منزلة الرجل في قلوب المسلمين ، فإن لما يراه المرء في منامه صلةً قويةً بما يلمح به في يقظته ؛ وهو لاء الذين جلدوا في منامهم ، لا يبعد أن يكونوا استشعروا وخوف الغزالي وهم أيقاظ ، وعلى الأخص إذا لاحظنا ما شاع بين المسلمين في تلك العصور الخوالي من سلطة الأولياء ، وتصرفهم المطلق في عالم الأحياء ، وسبحان من جلّ عن الشريك !

تلامذة الغزالي وأصحابه

ومما يبين عن أثر العالم في عصره ، تلامذته وأصحابه : فهم في علمهم ،
وأدبهم ، أثر من آثاره . وقد أثر الغزالي تأثيراً حسناً في جمهور كبير
من تلامذته وأصحابه ، ذكرهم الزبيدي ، منهم القاضي ابو نصر احمد
ابن عبد الله الحمقري (نسبة الى خمس قرى التي تعرف بسبخ رية) ولد
سنة ٤٦٦ وتوفي سنة ٥٤٤ هـ ومنهم الامام ابو الفتح احمد بن علي بن
محمد بن برهان - بفتح الباء - ولد سنة ٤٧٦ وتوفي سنة ٥١٨ ومنهم
أبو منصور محمد بن إسماعيل بن القاسم الطوسي توفي سنة ٤٨٦ ومنهم
أبو سعيد محمد بن أسعد بن محمد النوقاني قتل في مشهد علي بن موسى
الرضي سنة ٥٥٤ في واقعة النفر ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله
ابن تومرت المصمودي الملقب بالمهدي صاحب دعوة سلطان المسلمين
عبد المؤمن بن علي ملك المغرب ، دخل الشرق وتفقّه على الغزالي .
ومنهم أبو حامد محمد ابن عبد الملك بن محمد الجوزقاني الاسفرايني .
ومنهم ابو سعيد محمد بن علي الجاواني الكردي حدث بكتاب إجماع
العوام للغزالي عنه . ومنهم الامام أبو سعيد محمد بن يحيى بن منصور
ولد سنة ٤٧٦ وهو من أشهر تلامذة الغزالي ، تفقّه عليه وشرح كتابه
البيسط

وما أريد أن أطيل في هذا الباب ، وإنما أُنص هنا على أن تلامذة
الغزالي أحدثوا أثراً كبيراً في الحياة الاسلامية ، وأكثرهم ماتوا شهداء ،
وليس اشتراك العلماء في الحركات العامة ، إلا أثراً لقوتهم المعنوية ،
وإيمانهم بما يدعون اليه . وانص أيضاً على أن تلامذة الغزالي لم يعرفوه

غالبا إلا بمؤلف الاحياء ، فهم لم يصحبوه لمؤلفاته في الفقه أو المنطق
أو الاصول ، وإنما صحبوه على انه داع الى الله ، ومرشد لمكارم
الأخلاق



مؤلفاته وفتاويه

ومما يدل على مبلغ تأثير الغزالي في الحياة الاسلامية ، عناية
الناس بمؤلفاته وفتاويه . فانا نجد مثلاً كتابه الوجيز في الفقه وضع له
نحو سبعين شرحاً كما قال الزبيدي ، وقد قيل : لو كان الغزالي نبيا لكان
معجزته الوجيز ! ومن شرح هذا الكتاب الفخر الرازي وابو الثناء
محمود بن أبي بكر الارموى . والعماد أبو حامد محمد بن يونس الاربلي ،
وأبو الفتوح العجلي ، وأبو القاسم عبد الكريم ابن محمد القزويني
الرافعي ، وقد اختصر النووي من شرح الرافعي كتاباً سماه الروضة ،
وخرج أحاديثه ابن الملقن في سبع مجلدات ، سماه البدر المنير ، ثم
اختصره في أربع مجلدات وسماه الخلاصة ، ثم لخصه في جزء ، وسماه
المنتقى . ولخصه أيضاً الحافظ بن حجر ، وشرح الوجيز أيضاً البدر
الزركشي ، والبدر بن جماعة ، والشهاب البوصيري ، والجلال السيوطي
ونجد أيضاً كتابه الوسيط في الفقه ، شرحه تلميذه محمد بن يحيى
النيسابوري شرحاً سماه المحيط في ستة عشر مجلداً ، وشرحه نجم الدين
احمد بن علي بن الرفعة في ستين مجلداً وسماه المطلب وشرحه النجم القمولى
وسماه البحر المحيط ، وشرحه عدد غير هؤلاء ذكرهم الزبيدي في ص ٤٣
ج ١ شرح الاحياء

وقال عمر بن عبد العزيز بن يوسف الطرابلسي يمدح كتيبه الاربعة
في الفقه

هذب المذهب حبر أحسن الله خلاصه

ببسيط ووسيط ووجيز وخالصة

ونجد كذلك كتابه المستصفي في الأصول موضع عناية العلماء ،
فقد اختصره أبو العباس أحمد بن محمد الاشبيلي المتوفى سنة ٦٥١ هـ .
وشرحه أبو علي الحسن بن عبد العزيز الفهرى المتوفى سنة ٧٧٦ وعليه
تعليقات لسليمان بن داود الغرناطي المتوفى سنة ٨٣٢

ونجد كتابه تهافت الفلاسفة قد أحدث رجة غنيفة بين فلاسفة
المسلمين ، فقام ابن رشد المتوفى سنة ٥٩٥ وألف كتاباً في نقده ،
ومقام ابن رشد في عالم الفلسفة غير مجهول . ثم جاء خوجه زاده المتوفى
سنة ٨٩٣ وألف كتاباً في التحكيم بين الغزالي وابن رشد بإشارة
السلطان محمد الفاتح العثماني . ووضع علاء الدين بن علي الطومسي كتاباً
في المحاكاة بين الغزالي وابن رشد ، سماه الذخيرة ، ومنه نسخة بدار
الكتب المصرية نمرة ١٧٤

ونجد كتابه قواعد العقائد شرحه ركن الدين الاسترابادي ومحمد أمين
ابن صدر الدين الشرواني

ونجد العلماء عنوا بتحقيق نسبة (المضمون به على غير أهله) إلى
الغزالي . ومن بحث ذلك السبكي وصاحب تحفة الارشاد . وصنف
أبو بكر محمد بن عبد الله المالقي المتوفى سنة ٧٥٠ كتاباً في رده ، وهذا
مظهر لعناية العلماء بنبي مادس عليه

وليست عناية العلماء بفتاويه بأقل من عنايتهم بكتبه ، فقد جمعها
غير واحد ، بل رأينا من كتب دروسه التي كان يعظ بها الناس

في بغداد ، ورأيانهم يحفظون ما نقل عنه من القصائد للمتفرقة (انظر
نمرة ٢٤٣ ، ١٢٨ ، ٥٦٢ ، ٢٧٦٢ من فهرست دار الكتب المصرية)
ولو رجعنا إلى ما ألف في الوعظ والفقہ في العصر الاخير
لرأينا أكثر المؤلفين يرجعون إلى الغزالي في أكثر الأبواب
وقد أخبرني صديقي عبد القوي افندي الحلبي أن من النادر أن
تنشأ مكتبة في أي قطر من الاقطار الاسلامية ، ولا تشمل قائمتها على
طائفة من كتب الغزالي في الفقه والأخلاق

٥

علاقة الفقه بالأخلاق

وقديبدو لأول نظرة ، أن لا صلة بين اهتمام العلماء بمؤلفاته
في الفقه وبين تأثرهم بما كتب في الأخلاق ، ولكننا لو عرفنا
أن الروح السائد في ذلك العصر كان يجمع بين الفقه والتصوف ،
لرأينا أن اهتمام المؤلفين بشرح مصنفات الغزالي إنما كان أثراً
لإيمانهم بصلاحه وتقواه ، وقد كانت الأوساط الفقهية ولا تزال
تعتقد أن لصالح المؤلف تأثيراً في الانتفاع بمؤلفاته ، ولو كتب
في الحساب والنجوم
أضف إلى هذا أن الغزالي نفسه كان يُعنى بالفقه والتوحيد
في مؤلفاته الأخلاقية ، فكانه يرى هذين الفنين جزءاً أو مقدمة
لعلم الأخلاق

والذين عُمنوا بنقد كتبه إنما التفتوا أيضاً إلى الوجهة الأخلاقية ؛
فالقضاة منهم كانوا يرونه خطراً على الأخلاق ، لأنه يجانب
الشريعة ، وهي فيما يرون أساس الأخلاق . والفلاسفة منهم كانوا
يخافونه على الأخلاق ، لأن لها قواعد متينة تلقوها عن معلمهم ،
وصاحبنا هذا يريد أن يأتي على تلك القواعد بأذاعته وسأوس
المتصوفه ، وقد وقع ما كانوا يحذرون

٦

تأثير الإصباح

ولئن قالوا في الوجيز ما قالوا ، ووضعوا عليه ما شاءوا من
عشرات الشروح ، وفعلوا مثل ذلك أو قريباً منه في مؤلفاته
في الفقه ، والتوحيد ، والأصول ، فإن أبعده كتبه أثراً ، وأسيرها
ذكراً ، وأبقاها على وجه الدهر ، هو كتابه إحياء علوم الدين
بلا جدال

كتب الغزالي في الفقه ، ولكن لم يجدد مذهبه إلا بمقدار ،
فلم يثر فتنة . وكتب في المنطق ، ولكنه لم يزد عن سواه غير
الإبانه والإيضاح . وكتب في الأصول ، ولكن بحيث لا يثير
الخصومة ، ولا يهيج اللدود . وكتب في الفلسفة ، ولكنه لم يزد
على أن تغني بليلى معاصريه . وكتب في التوحيد ، فلم يخالف
الأشاعرة إلا قليلاً ، فظل مستورا الحال

وما كتب الإحياء حتى التفت الناس إليه من كل جانب ،
وسار اسمه مسير الشمس ، وشغلت به جميع القلوب ، شوقاً إليه ،
أو عتباً عليه ، أو بغضاً له ، أو رفقا به . وقد شهد هذه الضجة ، وسمع
هذه الصيحة ، وهو حي يرزق . وحاول أن يهدي ناقديه بكتاب
يوضح فيه ما غمض في الإحياء ، وهو الإيملاء على إشكالات
الإحياء . ولكنه في الواقع لم يزد إلا إشكالات إلى إشكال . فليج
الناس في المرء ، فوضع كتابه المنهاج ، على أن يكون موضع
وفاق ، فكان في الواقع أيضاً ضغناً على إبالة ، ثم مات الغزالي
قبل أن يحسم هذا النزاع ، فلم تهدأ العاصفة بموته ، بل قامت قيامة
الجدل بين تلامذته وبين خصومه ، ولا يزالون مختلفين :

ويمكن الحكم بأن الخصومة التي كانت بين أنصار الغزالي
وبين خصومه كانت خصومة بين الشريعة والتصوف ، فإن
أنصار الغزالي جميعاً صوفية ، أو شبه صوفية ، وخصومه جميعاً
من علماء الشريعة . وأبعد ثم غوراً في النيل منه هم المتصدرون
للقضايا والقضاء .

فيينا نجد ابن القيم يرميه (بالتخليط والهديان) نجد أبا الحسن
الشاذلي يذكر أنه رأى النبي في منامه وقد باهى موسى وعيسى

بالغزالي . وقال : أفي أمتي كما جبر كهذا ؟ فقالوا : لا ! ونجد أبا العباس
المرسي يشهد له بالصديقية العظمى ! وليت شعري ما هيته ؟
والفرق كبير بين من يرميه بالتخليط والهديان وبين من
يحلم بأن لا نظير له في أمة موسى وعيسى عليهما السلام
وقد قدمت لك شيئاً من المنامات المتعلقة به ، وينت مالها
من أسباب ، وأزيد الآن أن كل هذه المنامات مسببة عن الإحياء
فهي تارة تقع لنا قدي ذلك الكتاب ، وتارة تقع للمتفعمين به من
علماء الاسلام

والذين أحرقوا الاحياء ، لم يحرقوه لأنه كتاب هيئن ؛
والذين ألفوا الكتب في نقده ، لم يفعلوا ذلك لأنه كتاب هيئن ؛
وإنما نقده هؤلاء ، وأحرقه أولئك ، لأنه فيما يرون كتاب خَظَر
وليكن خطراً على الاسلام والمسلمين ، وليكن كتاب شر
وفتنه ، وليكن كتلة زندقة وإلحاد ، فهو على كل حال كتاب رهيب
خشيه أولئك الناس ، وهذا ما يعنيننا الآن

وأشهر من نقد الاحياء الامام ابو عبدالله المأزري المالكي المتوفى
سنة ٥٣٦ وقد ناقشه السبكي في طبقاته ، فليرجع اليه من شاء ، ويتلخص
نقد المأزري في أن الغزالي غير ثقة فيما تعرض له من الفنون ، وأن كتابه
(متردد بين مذاهب الموحدين والفلاسفة وأصحاب الاشارات)
ويتلخص رد السبكي في رمي المأزري بالحسد والكيد للصوفية في شخص

الغزالي . ومن نقده ابو الوليد الطرشوشى . وتجد جملة من نقده فى الجزء الاول من شرح الاحياء للزبيدى . فاما الذين كتبوا فى فضل الاحياء فهم كثير : منهم الشيخ عبد القادر العيىروس ، وضع كتابا سماه : تعريف الأحياء ، بفضائل الاحياء . وفى أيدى الناس كتاب (لبعض الفضلاء) اسمه : بغية القاصدين لفضائل احياء علوم الدين .

وأطال السبكى فى مدحه حتى نقل عن بعض المحققين انه قال : لو لم يكن للناس فى الكتب التى صنفها الفقهاء الجامعون فى تصانيفهم بين النقل والنظر والفكر والأثر غيره لكفى . ثم قال : وهو من الكتب التى ينبغى للمسلمين الاعتناء بها وإشاعتها ليهتدى بها كثير من الخلق ، وقلم ينظر فيه ناظر الا ويتعظ به فى الحال

ويدل على مبلغ تأثير الاحياء عناية العلماء به ، فانما نجد الحافظ العراقى خرج أحاديثه فى كتابين : أحدهما كبير الحجم فى مجلدين ، وهو الذى صنفه فى سنة ٧٥١ هـ . ثم اختصره فى مجلد وسماه المغنى عن حمل الأسفار . ثم أتى تلميذه شهاب الدين بن حجر العسقلانى فأستدرك عليه ما فات فى مجلد . وصنف الشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفى كتابا سماه : تحفة الأحياء ، فيها فوات من تخرىج أحاديث الاحياء وقد سبقت كلمتنا فيما نقل السبكى من الأحاديث الموضوععة

ومن اختصر الاحياء أبو الفتوح احمد بن محمد الغزالي المتوفى بقزوين سنة ٥٢٠ هـ وسماه لباب الاحياء . واحمد هذا هو أخو الغزالي . ثم اختصره احمد بن موسى الموصلى المتوفى سنة ٦٢٢ . ثم محمد بن سعيد اليمنى ، ويحيى ابن ابى الخير اليمنى ، ومحمد بن عمر بن عثمان البلخى وسماه عين العلم وزين الحلم (انظر نمرة ١٠٩ من فهرست دار الكتب المصرية) . واختصره عبد الوهاب بن على الخطيب المراغى وسماه لباب الاحياء . واختصره

الشمس محمد بن علي بن جعفر العجلوني المشهور بابلالى شيخ خاتناه
سعيد السعداء بمصر المتوفى سنة ١٢٠
واختصره ابن الجوزى فى كتاب سماه : منهاج القاصدين . ومنه
نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية نمرة ١٦٧

وللاحياء شرح مطول يقع فى عشر مجلدات ، وفيما شاء الله من
الصفحات ، الفه الزيدى ، وقد اعتمدت على هذا الشرح فى تحقيق
كثير من مواطن الخلاف

ولم يقف الأمر عند شرح الاحياء ، واختصاره ، وتخرج أحاديثه ،
بل وضعت الأبحاث المفردة ، لشرح كلمة وردت فى الاحياء ، وهى :
ليس فى الامكان أبدع مما كان . ومن شرح هذه الكلمة : عبد الوهاب
الشعرانى ، وعبد الكريم الجبلى ، ومحمد المغربى شيخ الجلال السيوطى ،
واحمد بن مبارك السجلماسى ، وأبو بكر بن عربى . ووضع ناصر الدين
ابن المنير الاسكندرى رسالة فى هذه المسألة سماها : الضياء المتلالى ،
فى تعقب الاحياء للغزالى . وفى مناقضة هذه الرسالة ألف السيد
السمهودى رسالة تقع فى سبعة كراريس كما قال الزيدى . وألف البرهان
البقاعى رسالة فى هذه المسألة سماها تهديم الاركان ، وألف الجلال
السيوطى رسالة ناقض بها البقاعى سماها تشييد الاركان

٦

الانتفاع بمؤلفات الغزالى

ولقد تبعت العصور التى تلت عصر الغزالى فوجدت
الانتفاع بمؤلفاته ظاهراً كل الظهور فى حياة علماء الدين والتصوف
والأخلاق . ولقد رأيت من بينهم من تم بحفظ كتاب الاحياء

عن ظهر قلب . ورأيت منهم من كان يتقرب إلى الله بنسخ هذا الكتاب . وتجد في ص ٦٩ ج ٣ من خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر ، مظهراً للأثر الغزالى فى ذلك العصر ، إذ تجد من العلماء من يتخذ وزدًا من الاحياء كما يتخذ وردًا من القرآن ولولا خوف الإطالة لضربت للقارىء عشرات الأمثال

وفى العصر الحاضر يدرس كتاب الاحياء فى الازهر والمعاهد الدينية ، وكان الاستاذ الشيخ محمد عبده قرر أن يدرس معه كتاب ابن مسكويه فى تهذيب الأخلاق ، ولكن رأى العلماء فيه آراء فلسفية ، فقرروا لذلك حذفه ، لئلا يفسد الطلاب :

والاستاذ الشيخ يوسف الدجوى ينصح لتلاميذه دائماً بالانتفاع بكتاب الاحياء . وكنت ممن أوصاهم بذلك ، ولكن الله لم يشأ أن أكون كما أراد الاستاذ ، فقد رأيت كيف صورت الغزالى بصورة الرجل الذى قد يخطئ وقد يصيب ، وهذا من مثلى كثير : وأثر الغزالى ظاهر فى مؤلفات الشيخ الدجوى ، وهو أيضاً سبب ضعف تلك المؤلفات : فان كتاب سبيل السعادة الذى وضعه الاستاذ منذ بضع سنين يشبه أن يكون خلاصة مشوهة للآراء الحديثة فى فهم أصول الأخلاق ، وفضيلة الشيخ معذور لأنه لا يعرف لغة أجنبية ، ولأنه يبغض المدنية الحديثة من أعماق

صدره ، ويستبعد الاهتداء بآراء الفلاسفة المحدثين ؛
ويمكن الحكم بأن دراسة كتاب الاحياء في الأزهر مجرداً
من آراء المفكرين في نقده ، وتميز غثه من ثمينه ، كانت السبب
في إفساد العقلية الازهرية ، وجعلها غير صالحة لأن تسمو
بأصحابها إلى الطمع في أن تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين
والأمل كبير في أن يصل هذا الصوت إلى من يبدع الأمر في
الازهر والمعاهد الدينية: فيغير واذك المنهج القديم في دراسة الاخلاق ،
فان في الأزهر ولواحقه نحو عشرين ألفاً من الطلبة تميتهم تلك
المذاهب البالية ، التي يعولون عليها في فهم نزعات النفوس ،
وخاجات القلوب . وسبحان من لو شاء لهدانا وإياهم سواء السبيل ؛

٧

عناية الأجانب بالغزالي

ومما يتصل بتأثير الغزالي في الحياة العلمية ، عناية الأجانب
به : فقد كتبت عنه عدة مؤلفات : بالفرنسوية ، والانجليزية ،
والألمانية . ومنهم من يتعصب له فوق ما يفعل المساهون . ويعده
الدكتور زويمر واحداً من أربعة ويقول : كل باحث في تاريخ
الاسلام يلتقى بأربعة من أولئك الفطاحل العظام . وهم : محمد نبي
المسامين نفسه ، والبخارى ، والأشعري ، والغزالي .
والدكتور زويمر من المستشرقين الانجليز الذين درسوا العقلية

الشرقية ، وكتابه عن الغزالي من الكتب القيمة ؛ وتجذ فيه من
مظهر العناية بالغزالي ما كتبه عن قبره ، نقلًا عن خطاب وصله
من القس دونالدسن في ١٧ يناير سنة ١٩١٧ ، وقد زار قبر الغزالي
ووجد في إحدى زوايا الحجر كلمة (غزالي) و (بوحا) وأصلها بالطبع
أبو حامد . وهذا هو الرسم الذي أرسله القس دونالدسن إلى
الدكتور زويمر عن قبر الغزالي



ومن أجود ما كتب بالفرنسوية عن الغزالي كتاب Carrat
de Vaux والمسيو كارادي فو هذا رجل خير بالحياة الاسلامية ،
وله كتاب عن ابن سينا أحب أن يطلع عليه من يود أن يعرف شيئًا
عن المدارس الفلسفية عند المسلمين ، وإني للأسف حين أقرر

أن المستشرقين يفهمون مذاهب أهل السنة والمعتزلة أكثر من علماء الأزهر الذين اذا عرض لهم ذكر المعتزلة لم يزيدوا على أن يقولوا (قبهم الله) وقد أخبرني حضرة الاستاذ الدكتور طه حسين أن المسيو كازانوفا وضع كتابا عن الغزالي ، واني ملموم في أن غفلت عن هذا الكتاب ، فان الطريقة التي جرى عليها المسيو كازانوفا في كتابه «محمد ونهاية العالم» طريقة تغري الباحث بتعقب ما يكتب هذا الرجل الدقيق . وآسف أيضا على أن الظروف لا تسمح بأن أترجم شيئا من آراء هذا الرجل ، لأن البحث العلمي عنده فوق كل مقام . وانما أدعو من يجب الاطلاع الى مراجعة Mohamet et la fin de monde فان فيه من المباحث ما يواتي شهوات العقول ، وللعقول شهوات :

وهناك كتاب للمسيو Moher موضوعه :

Etudes sur la philosophie d'Averroës concernant son rapport avec celle d'Avicenne et Gazali

ويحسن الرجوع الى المقدمة التي وضعها المسيو Lucien gautier

حين نقل الدررة الفاخرة الى الفرنسية في traite d'eschatologie

musulemane ويحسن الاطلاع على الجزء التاسع من المجموعة

السابعة من Journal asiatique وفي مقدور القارئ أن يرجع

الى encyclopédie de l'islam 20 livre اذا أراد أن يعرف ما كتب

عن الغزالي بالفرنسوية والانجليزية والالمانية . وقد أخبرني
حضرة الاستاذ الشيخ مصطفى عبدالرازق أنه علم أن في اللغة التركية
عدة مؤلفات عن الغزالي . وأحسب أن السبيل إليها ممد لمن شاء
وأحب أن يعفيني القارئ من تفصيل ما أعرف عن نظر
المستشرقين الى الغزالي ومذاهبه الصوفية ، فإني مضطر الى
الاكتفاء بإرشاده الى طريق الاطلاع

الفوز للحياة

وبالرغم من تأثير الغزالي في الشرق والغرب ، وتغلغله
في أعماق الحياة العلمية ، فإن الفوز فيما يظهر لن يكون لآرائه
في الأخلاق . ولكن سيكون الفوز للحياة
ألا إن الأخلاق كالشرائع . فكما تنهزم الشريعة أمام الحياة ،
كما انهزمت المسيحية لخروجها على مالا حياة من قوانين ، كذلك
تنهزم الأخلاق أمام الحياة ، حين تخلو عما في الحياة من عناصر
وأصول

وهكذا انهزم الغزالي حين نازل الحياة ؛
حرم النقش والتصوير ، ولكن النزعات البشرية مشت
في طريقها بقوة . ولم تصدف عن النقوش والتصاوير ؛
وحرم الغناء . ولكن مشت الأذواق في سبيلها بقوة ،

ولم تزل ظامئة الى الأُنعام والألحان !
وليته حين حرم النقش والتصوير والغناء ، وضع لذلك عللاً
معقولة ! ولكنه حرم التصوير لأنه يدعو الى الوثنية ، وهذا
كذب على الواقع ، فطالما أحببنا تماويل الصوّر ، ولم نفكر
في الوثنية . وحرم الغناء لأنه يدعو الى شرب الخمر . وهذا ظن
مردود ، فطالما سمعنا عبد اللطيف افندى البنا و ابراهيم افندى
القباني والشيخ عبد السميع عيسى ، ولم نفكر في الخمر ، ولا
في مجالس الخمر ! !

ليست الأخلاق شيئاً آخر غير مناهج الحياة . والأخلاق
التي تبنى بها الأمم ليست ما يعرفه الغزالي من التواضع ، والتوكل ،
والجُمول ، وإنما هي فهم قوانين الحياة . وأحب أن أكرر كلمة
الحياة : لأنها عندي غاية الأخلاق

والفضائل السلبية كالصبر ، والزهد ، والقناعة ، لن تكون
فضائل حتى تقضى الظروف باعتبارها أسلحة ماضية في سبيل
الحياة . فقد يكون الجُمول من أسباب النباهة و ذبوع الشهرة ،
كما يكون الصيت أحياناً من أسباب الجُمول

ولا قيمة للحياة بغير القوة . فيجب أن تكون الأخلاق
بإيا الى الحياة القوية . وطالما شككت في قوله عليه السلام : اللهم
أحيني مسكيناً ، وأمتني مسكيناً ، واحشرنى في زمرة المساكين !

الباب الثاني عشر

في

أنصار الغزالي وخصومه

قدمنا أن الخصومة كان مشارها الفرق بين الفقه والتصوف وأن أنصار الغزالي كانوا في الاغلب صوفية ، وأن خصومه كانوا في الأ أكثر من الفقهاء . وزيد الآن أن تفكك على ترجمة طائفة من أنصار الغزالي وخصومه ، ونبين بجانب ذلك شيئاً مما اختص به أولئك العلماء الذين حاربوا الغزالي أو أيّدوه ، لنهد لك السبيل إلى فهم الحركة العقلية التي أوجدتها مؤلفات الغزالي ، وسبيلنا الإيجاز في هذا الباب ، لأن المقام لايسمح بالتطويل

ابن رشد

ولد في قرطبة سنة ٥٢٠ هـ ١١٢٦ م . ودرس في صغره الفقه والتوحيد والاصول . ثم أقبل على دراسة الطب والفلسفة . وكان له بسبب علمه وفضله عدد من الحساد يتقولون عليه الاقاويل . توفي رحمه الله بمراكش في أوائل سنة ٥٩٥ هـ بعد أن ذاق

الأمرين من نفي واضطهاد ، جزاء ما قدمت يداه من شرح فلسفة
القدماء ؛

والذي يقرأ حياة ابن رشد ، ويرى مآلقيه في زمانه ، يعلم ان
العرب كانوا يحتضرون ، وأن دولتهم كانت تمشي الى الفناء ، لأن
الذين يحاربون الفكر الحر ، ويضطهدون المفكرين الأحرار ،
لا يصلحون مطلقاً للحياة . وكذلك دالت دولة العرب بعد قليل
وخصوصاً ابن رشد للغزالي تكاد تكون فلسفية ، فقد وضع
الغزالي كتاباً سماه تهافت الفلاسفة ، والغرض من الكتاب ظاهر
من عنوانه ، فعارضه ابن رشد بكتاب سماه تهافت التهافت ،
والذي يهمني من معارضة ابن رشد للغزالي إنما هو دفاعه عن
ابن سينا والفارابي ، فقد كان الغزالي يراها من الكفار .

ويتأخص دفاع ابن رشد في أن مسألة قدم العالم وحدوثه التي
كانت مثار الخلاف ، إنما كان الاختلاف فيها بين المتكلمين من
الأشعرية وبين الحكماء المتقدمين يكاد يكون راجعاً للاختلاف
في التسمية وبخاصة عند بعض القدماء . فان هناك ثلاثة أصناف من
الموجودات طرفان وواسطة بين الطرفين . وقد اتفقوا في الطرفين
واختلفوا في الواسطة . أما الطرف الأول فهو موجود وجد عن
شيء ومن شيء ، أي عن سبب فاعل ومن مادة ، والزمان متقدم على

وجوده وهذه هي حال الأجسام التي يدرك تكوُّنها بالحس مثل الماء والهواء والأرض والحيوان والنبات . وهذا الصنف اتفق الجميع على أنه محدث . وأما الطرف المقابل لهذا فهو موجود لم يكن من شيء ولا عن شيء ولا تقدمه زمان . وهذا اتفق الجميع على أنه قديم وهو الله . وأما الصنف الثالث فهو موجود لم يكن من شيء ولا تقدمه زمان ، ولكنه موجود عن شيء أي عن فاعل ، وهذا هو العالم بأسره . والكل متفق على وجود هذه الصفات الثلاث للعالم ، فإن المتكلمين يسمون بأن الزمان غير متقدم عليه لأن الزمان عندهم شيء مقارن للحركات والأجسام ، وهم أيضاً متفقون مع القدماء على أن الزمان المستقبل غير متناه وكذلك الوجود المستقبل ، وإنما يختلفون في الزمان الماضي والوجود الماضي فالتكلمون يرون أنه متناه ، وهذا هو مذهب أفلاطون وشيعته وأرسطو وفرقته يرون أنه غير متناه كالحال في المستقبل . يقول ابن رشد « فهذا الموجود الأخير الأخر فيه بين أنه قد أخذ شبهة من الوجود الكائن الحقيقي ومن الوجود القديم . فن غلب عليه ما فيه من شبه القديم على ما فيه من شبه المحدث سماه قديماً . ومن غلب عليه ما فيه من شبه المحدث سماه محدثاً . وهو في الحقيقة ليس محدثاً حقيقياً ولا قديماً حقيقياً . فالمذاهب في العالم ليست تتباعد كل التباعد حتى يكفر بعضها ولا يكفر ، فإن الآراء التي شأنها هذا يجب أن تكون في الغاية من التباعد ، أعني أن تكون متقابلة كما ظن المتكلمون في هذه المسألة »

ولم يقف ابن رشد عند هذا الحد ، بل انتقل إلى كلام هو
في الواقع صفع لأدعياء العلم الذين يحسبون قدم العالم وحدوثه من
الأمر الهيئته التي يصدرون عنها الفتوى كأنها مسألة طلاق !
وإليك ما يقول في ذلك :

« مع أن هذه الآراء في العالم ليست على ظاهر الشرع ، فإن ظاهر
الشرع إذا نُصِّحَ ظهر في الآيات الواردة في الإنشاء عن إيجاد العالم أن
صورته محدثة بالحقيقة . وأن نفس الوجود والزمان مستمر من الطرفين
أعني غير منقطع . وذلك أن قوله تعالى (وهو الذي خلق السموات
والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) يقتضى بظاهره وجوداً
قبل هذا الوجود ، وهو العرش والماء ، وزماناً قبل هذا الزمان ، أعني
المقترن بصورة هذا الوجود ، الذي هو عدد حركة الفلك . وقوله تعالى
(يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) يقتضى بظاهره وجوداً
ثانياً بعد هذا الوجود . وقوله تعالى (ثم استوى إلى السماء وهي دخان)
يقتضى بظاهره أن السموات خلقت من شيء »

وهناك صفة ثانية تفضل بها ابن رشد على علماء التوحيد .
ذلك بأن هؤلاء القوم يختلفون من الأساليب والاصطلاحات
ما لا يعرفه الدين ، ثم يقولون : من تعدى هذه الحدود فهو كافر .
فألهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؛

وإليك ما يقول ابن رشد في ذلك :
« والمتكلمون ليسوا في قولهم أيضاً في العالم على ظاهر الشرع ، بل

متأولون ، فانه ليس في الشرع أن الله كان موجوداً مع العدم المحض ، ولا يوجد هذا فيه نصاً أبداً ، فكيف يتصور في تأويل المتكلمين في هذه الآيات أن الاجماع انعقد عليه ؟ ثم قال : والظاهر الذي قلناه من الشرع في وجود العالم قد قال به فرقة من الحكماء . ويشبه أن يكون المختلفون في هذه المسائل العويصة إمامصيين مأجورين ، وإما مخطئين معذورين فان التصديق بالشيء من قبيل الدليل القائم في النفس هو شيء اضطراري لا اختياري ، أعني أنه ليس لنا أن نصدق أولاً ونصدق ، كما لنا أن نقوم أولاً نقوم ، وإذا كان من شرط التكليف الاختيار ، فالمصدق بالخطأ من قبيل شبهة عرضت له اذا كان من أهل العلم معذور ، ولذلك قال عليه السلام : اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وان أخطأ فله أجر «
وبمناجاة كلام ابن رشد نقرر أن علماء التوحيد أسرفوا في تكفير الفلاسفة بل أسرفوا في تكفير بعضهم البعض ، بأسباب ضعيفة لا يعرفها الاسلام ، وما زالوا يسرفون حتى حفظ عنهم الرأي العام جملة تعابير هي مناط الكفر والإيمان . وفي كتاب فيصل التفرقة للغزالي مظهر لهذه الآراء الفاسدة ، التي ظنّها الأولون حقائق ، وهي في الواقع أباطيل
والذي أراه أن مجازفة علماء التوحيد في الحكم بحدوث العالم ، وفي وصف الله بصفات معينة محدودة ، وفي تعيين مصير العالم بشكل خاص ، كل أولئك يدل على أن هؤلاء الناس كانوا في غاية السذاجة ، وأن نظرهم كان غير بعيد . وستسخر المقادير

منهم يوم تطوى كتبهم وآراؤهم ، ويدخلون فيما يسمى قبل التاريخ ، كما دخل من قبلهم ألوف الألوف من أصحاب الشرائع والقوانين

ابن تيمية

ولد بجرّان يوم الاثنين عاشر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ . وقدم به والده الى دمشق في سنة ٦٦٧ حين استولى التتار على حران . وقد تلقى عن والده الفقه والأصول ، ثم عُني بالنظر في الحساب والجبر والفلسفة ، وتقدم للتدريس وسنه دون العشرين . وقد بلغت مصنفاته ثلثمائة مصنف . منها تعارض العقل والنقل والجواب الصحيح في الرد على النصارى واثبات المعاد والرد على ابن سينا واثبات الصفات والرد على الامامية الخ

قال الحافظ ابن كثير : وفي رجب سنة ٧٠٤ راح الشيخ نقي الدين ابن تيمية الى مسجد الفارنج وأمراء أصحابه وتلامذته بقطع صخرة كانت تزار وينذر لها هناك . فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها ، فأزال عن المسلمين شبهة كان شرها عظيما . وبهذا وأمثاله أبرزوا له العداوة . وكذلك بكلامه في ابن عربي واتباعه ، ففسد وعودى ، ومع هذا لا تأخذه في الله لومة لأثم ، ولم يبال بمن عاداه . ولم يصلوا اليه بمكروه . وأكثر ما نالوا منه الحبس ، مع أنه لم ينقطع عن البحث لا بمصر ولا بالشام

وكان ابن تيمية كثيراً ما ينشد هذه الأبيات :

لولم تكن لي في القلوب مهابة^١ لم يطعن الأعداء فيّ ويقدحوا
كالليث الماهيب خطله الزبي^(١) وعوت لهيبته السلاب النبح
يرمونني شزر العيون لأنني غلست في طلب العلاء وصبّحوا

وقد توفي رحمه الله في صباح الاثنين عاشر ذي القعدة سنة ٧٢٨ وهو في السجن . فأخرج الى الجامع في يوم مشهود لم يعهد في دمشق مثله ، وقد تبرك الناس بماء غسله ، واشتد الزحام على نعشه ، ودفن بمقابر الصوفية بعد أن صلوا عليه مرارا ، وقدر من حضر جنازته من الرجال بمائتي ألف ومن النساء بخمسة عشر ألفا . ورثاه كثير من العلماء منهم ابن الوردي

والذي يعود الى ترجمة ابن تيمية في الكتب التي عُني مؤلفوها بترجمته يعرف كثيراً عن العقلية الاسلامية في القرن الثامن ، ويكفي أن نلفت القارئ الى قولهم « ودفن بمقابر الصوفية » فإن لذلك معاني لا تعزب عن ذهن اللبيب ، وما أريد أن أزيد وابن تيمية من كبار المفكرين في الاسلام ، ولكنه لا يخلو من سذاجة . فإنك بينما تراه يتوغل في المدركات المعقولة ، تراه ينحدر فجأة في هاوية الأوهام . من ذلك قوله « العلماء هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدي بهم

(١) الزبي جمع زية وهي الحفرة

في ظلمات البر والبحر . وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرأيتهم ،
اذ كل أمة قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم فعلماءؤها شرارها إلا
المسلمين فان علماءهم خيارهم » ^(١) وهذا بالطبع حكم لا سند له من
معقول ، أو منقول

ويعد ابن تيمية من خصوم الغزالي لأنه كتب فصولاً
كثيرة في تناقضه ، وتسفيه بعض آرائه . ومن أعجب ما رأيت
له ، حكمه بأن الغزالي هجر طريق الصوفية في أخريات أيامه ،
وفي ذلك يقول : « ولهذا تبين له في آخر عمره أن طريق الصوفية
لا تحصل مقصوده فطلب الهدى من طريق الآثار النبوية ، وأخذ يشتغل
بالبخاري ومسلم ومات في أثناء ذلك على أحسن أحواله ، وكان كارها
ما وقع في كتبه من نحو هذه الامور مما أنكره الناس عليه »
وأنا لا أستبعد كلام ابن تيمية ، فان الغزالي كان متقلباً
في آرائه لا يستقر على حال . فهو تارة فقيه ، وتارة صوفي ، وتارة
فيلسوف

وسبب هجوم ابن تيمية على الصوفية أنه رأى منهم من
يفضل الولي على النبي ، كما رأى من الفلاسفة من يفضل الفيلسوف
على النبي . فانا نراه يمدح ابن سينا لانه يفضل النبي على الفيلسوف
ويسمى طريقه طريق العقلاء ، ويذم الفارابي لأنه يفضل
الفيلسوف على النبي ، ويسمى طريقه طريق الغلاة . ويذم

(١) انظر مقدمة رفع الملام

محيي الدين بن عربي لأنه كان يدعى أنه كان يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به الى النبي ، لأن الملك على أصلهم هو الحال الذي في نفس النبي ، والنبي في زعمهم يأخذ عن ذلك الحال ، والحال يأخذ عن العقل ، فهو على ذلك أفضل من النبي لأنه لا يحتاج إلى وسيط

وأحب أن أنبه القارئ الى أني إنما أذكر تاريخ فكرة من الأفكار الاسلامية ، لا أكثر ولا أقل ، والمؤرخ غير مسئول

ابن القيم

هو من تلامذة ابن تيمية . ولد في سنة ٦٩١ وتوفي سنة ٥٧١ . لقي في حياته ضروباً من الشدة بسبب آرائه الحرة . فقد حبس مدة لإنكاره أن تشد الرحال إلى قبر الخليل . وقد حبس مع ابن تيمية في المدة الأخيرة ، ولم يفرج عنه إلا بعد موت أستاذه . وله عدة تصانيف . منها مدارج السالكين ، وشرح أسماء الكتاب العزيز ، ونقد المنقول ، والمحك المميز بين المردود والمقبول ، وأعلام الموقعين الخ

وابن القيم هذا من ألد خصوم الغزالي ، وقد نقلنا جملة من آرائه حين تكلمنا عن أغلاط الإحياء ، فلا نعود إليها الآن . وأكرر ما قلته من أنني أوجز كل الإيجاز في هذا الباب .

فلهؤلاء الذين أترجمهم آراء هي غاية في الخطورة ، من حيث ما فيها من الدقة ، ومن الجرأة ، مع أنهم فيما أرى كانوا يبالغون في الاحتياط ، لأن العالم الاسلامي كان يضطهد الفلاسفة إذ ذاك . ولو سمح لنا الدهر بوضع كتاب في الفلسفة الاسلامية لاستطعنا أن نرفع عن هؤلاء الأفاضل آصار الخمول

السبكي

هو تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧١ . والسبكي هذا من كبار المؤلفين . وكتابه جمع الجوامع في الأصول يدل على كده وكدحه في سبيل العلم ، وإن كان غاية في اللبس والغموض . وكتابه طبقات الشافعية الكبرى كتاب جيد ، من حيث ما فيه من عيون المسائل الفقهية ، ومن حيث الترتيب . وعيب السبكي يرجع الى ضعفه في النقد والتمييز ، ولو خلت كتبه من الآراء التي اعتمد فيها على ذاكرته فقط ، لكان لها شأن كبير

ويعتبر السبكي من أنصار الغزالي ، وقد كتب عنه في الطبقات أكثر من ثمانين صفحة ، « ودافع عنه دفاع الأبطال » حين عرض لخصومه . وهو يعتقد بكل سذاجة أنه لو لم يكن لدى

المسلمين غير كتاب الاحياء لكفى : : وما أريد أن أطيل في الكلام
عن السبكي ، فقد عرضنا له عدة مرات

الزبيرى

هو محمد بن محمد الحسينى الزيدى . وهو من علماء القرن
الثانى عشر ، وقد وضع شرحاً مطولاً للإحياء فى عشر مجلدات ،
انتهى من تأليف الجزء الأول منه فى يوم الجمعة ٢٥ محرم سنة
١١٩٣ هـ . وفى هذا الجزء كتب دفاعه عن الغزالى

وهو من أشد أنصار الغزالى ، ولكن دفاعه عنه دفاع
سخيف ، لا قيمة له ، لا فى نظر الشرع ولا فى نظر العقل . من
ذلك قوله فى تأييد ما يراه الغزالى من أن الزواج ميل إلى الدنيا :
« وأما كون التزويج من جملة الميل إلى الدنيا فهو ظاهر ، لأنه
فى الغالب يطلب للاستمتاع : وذلك لا يحصل إلا بالوقوع فى الآفات
التي كان عنها عمزل أيام عزوبته ، لاسيما ان كان متجرداً عن القيام بالاسباب
التي تجلب له أمر معاشه فانه يتلف بالكلية ، ويلزمه الرياء لكل من
أحسن اليه بلقمة أو خرقة أو غيرها فأبغض الخلق اليه من يذمه عنده
خوفاً من ان يتغير اعتقاده فيه فيقطع عنه بره فكان عبادة هذا كلها
لأجل الذى أحسن اليه »

وهذا كلام غير مفهوم فى الواقع ، فضلاً عن أن يكون
دفاعاً عن رأى يرى الناس أنه غير صواب

الباب الثالث عشر

في

الموازنة بين الغزالي وبين الفلاسفة المحمدين

هذا باب إذا أطلته طال ، لأن لآراء الغزالي أشباها كثيرة ،
في الفلسفة الحديثة . وتحملني الرغبة في الايجاز على الاكتفاء بأهم وجوه
المقابلة بينه وبين الفلاسفة المحدثين . وحسبي أن أدل القارىء على
كيفية السير في هذا الطريق

الغزالي وربطت descartes

أقرب الفلاسفة شبيهاً بالغزالي هو ديكارت لأنه ارتاب كما
ارتاب الغزالي ، وبقى في شكه وارتيابه زمناً غير قليل
ولد ديكارت في لاهاي سنة ١٥٩٦ م أي بعد الغزالي بنحو
٥٣٠ سنة . تلقى العلم في مدرسة يسوعية ، كأكثر الأطفال
لعهده ، وحمله جده ونشاطه على دراسة اللغات القديمة ، والأساطير
والتاريخ ، والبلاغة ، والشعر ، والرياضيات ، والأخلاق ،
واللاهوت . ولم يقنع بذلك ، بل قرأ كل ما وقع في يده من نادر
المؤلفات ، كما حدثت عن نفسه . ورحل إلى باريس في السادسة
عشرة من عمره ، وتطوع في الجندية ، وعمل عدة سياحات

في ألمانيا ، والسويد ، والدانمارك ، ثم استقر في هولنده ، حيث رأى الإقامة فيها أنفع لنشر آرائه بحرية لم تسمح بها فرنسا اذذاك وبعد أن أقام في هولنده عشرين سنة ، مكبا على وضع مذهبه ، دعته كريستين ملكة السويد لتتلقى عنه العلم ، ولكنه لم يتحمل برد تلك البلاد ، ففضى نجبه في سنة ١٦٥٠ بعد أن أمضى نحو سنة في ستوكهلم ، ثم حملت جثته الى فرنسا في سنة ١٦٦٧ ودفن بكنيسة saint-étienne

مؤلفات ديكارت

يعتبر ديكارت في نظر مؤرخي الآداب الفرنسية أول رجل عبر عن آرائه الفلسفية بلغة واضحة ، وجعل لغة الفرنسيين لغة فلسفة ، بعد أن كان الفلاسفة من قبله يكتبون فلسفتهم باللغة اللاتينية . وأهم ما يعيننا من مؤلفاته :

regles pour la direction de l'esprit	أولاً —
discours de la méthode	ثانياً —
méditations métaphysiques	ثالثاً —
les principes de la philosophie	رابعاً —
les passions de l'âme	خامساً —

ففي هذه المؤلفات بسط ديكارت آراءه الفلسفية . فليرجع

إليها من شاء ، فإنه لا يوجد عنه شيء مقنع بالعربية

سكوك ديكارت

وكما ارتاب الغزالي حين رأى صبيان النصارى لا نشوء لهم إلا على التنصّر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الاسلام ، فقد ارتاب ديكارت حين رأى شيوع التقليد ، ورأى الناس في الأكثر إما أن يكونوا ضعفاء لا يقدرّون على تمييز الحق من الباطل ، فيتبعوا آراء غيرهم بلا بصيرة ، وإما أن يكونوا أقوياء ، فيسرعوا إلى الحكم ثقةً بقوتهم ، فاذا شكوا بعد ذلك ، فقد لا يهتدون إلى سواء السبيل

ومما حمل ديكارت على الشك ، ما رآه في أسفاره من اختلاف العادات والآراء ، وتباين العقائد والمدركات ، وما تبينه من تأثير التربية ، في التفرقة بين أخلاق الشعوب

وأعم ما تنبه له في رحلاته ، الشك في قيمة الرأي العام ، والاستهانة بكثرة الأصوات . لأن اجماع الأمة على رأي ، لا يدل على أنه رأي الأمة ، فقد يكون رأي فرد واحد ، تمجّلت عليه الأمة لسبب من الأسباب

وآراء الفلاسفة كانت مما حمل ديكارت على الارتياب ، إذ قلما

يوجد رأي غريب بعيد التصديق إلا وقد قال به فيلسوف

ولكن ديكارت كان في ارتيابه أصرح من الغزالي . فبينما نجد الغزالي يحدثنا بأنه دام قريباً من شهرين على مذهب السفسطة « بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال » أى انه لم يكشف الناس بشكّه إلا حين أجمعوا أو كادوا يجمعون على تقديسه ، نجد ديكارت يتطلب الأماكن الصالحة لنشر شكوكه ، ونجده يحكم ببطلان الآراء التى بنى عليها آراءه حين ظنّها حقّة ، وبوجوب التخلّى مرة واحدة عن جميع آرائه ، ليضع بناءً جديداً على أساس جديد ونرى الغزالي شكّ فى المحسوسات ، لأنّه ينظر الى الظلّ فيراه واقفاً لا يتحرك ، فيحكم بنفى الحركة ، ثم يعرف بالتجربة والمشاهدة ، أنه يتحرك ولكن بالتدرّج . ثم نراه همّ بالشكّ فى العقليات ، لأنّه يعتقد فى النوم أموراً ، ويتخيّل أحوالاً يعتقد لها ثباتاً واستقراراً ، ثمّ يستيقظ فيعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاته ومعتقداته أصل ، فيسأل : بمّ تأمن أن يكون جميع ما تعتقده فى يقظتك بحس أو عقل هو حقّ بالإضافة الى حالتك ، وقد يمكن أن يطرأ عليك حالة أخرى تكون نسبتها الى يقظتك كنسبة يقظتك الى منامك ؟

كذلك نجد ديكارت يقرر أن الأشياء التى سلمّ بأنها أثبتت من غيرها وأصح ، انما كان اعتمدها فى صحتها وثباتها على الحواس ،

وقد تبين غير مرة أن الحواس خداعة - وهو كذلك يرى في نومه تصورات يعلم حين يستيقظ أنها باطلة ، فمن أين يعرف فضل اليقظة على المنام ، أو فضل المنام على اليقظة ، وهو في كليهما مُضَلَّلٌ مُخَدَّوعٌ ؟ !

الفرق بين الغزالي وبيطار

الفرق عظيمٌ جداً بين الغزالي وديكارت ، فإن الغزالي خرج من شكه بطريقة لا تصل بأحد إلى يقين ، خرج من شكه بنور الله ، ونور الله هذا لا يعرفه العلم ، حتى يضمه إلى ماله من أصول . والغزالي نفسه يشعر بذلك ، فقد نراه يحكم بأن من ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة ، فقد ضيق رحمة الله الواسعة ، وينقل أن رسول الله لما سئل عن « الشرح » ومعناه في قوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) قال : نور يقذفه الله في القلب فيشرح به الصدر فليل وماعلامته ؟ قال : التجافي عن دار الغرور ، والإجابة إلى دار الخلود . يقول الغزالي : وهو الذي قال صلى الله عليه وسلم فيه (إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره) فمن ذلك النور ينبغي أن يطلب الكشف !!

ومادام الغزالي لم يرجع عن شكه « بنظم دليل وترتيب كلام »

كما قال ، فمن العبث أن نستعين العقل والمنطق لنخرج من ظلمات الشكوك . وهذا يناقض كل المناقضة ما فعله ديكرت للخروج من شكوكه ، وكذلك كان الغزالي سبباً لحود الفلسفة في الشرق ، كما كان ديكرت سبباً لهوضها في الغرب

أسلوب ديكرت

لم ير ديكرت من الحكمة أن يخرج على ما في بلاده من عادات وقوانين ، بل رأى من الخير أن يحافظ على الدين الذي نشأ عليه ، وأن يسير على أكثر الأمور قبولاً واعتدالاً عند أهل عصره ، حتى يتمكن من وضع مذهبه في طائفة وسكون ويقول پول جانيه paul Janet إن ديكرت حين اقتنع بعدم كفاية العلوم المعروفة لعصره ، لم يركن الى الارتياح كما فعل مونتيني montaigne بل رأى من الواجب أن يبني صرح العلم على أساس جديد . وكذلك يمكن أن نقول إن الغزالي انهزم أمام شكوكه ، ولكنه لم يركن الى الارتياح كما فعل مونتيني ، ولم يفكر في وضع العلم على أساس جديد كما فعل ديكرت ، ولكنه انتظر هداية الله ، والله يهدي من يشاء :

وأول ما يبدأ به ديكرت هو الدعوة إلى نبذ الكتب وتحكيم العقل ، لأنه يرى أن المؤلفات التي تنطوى على مختلف

الاراء ، ليست أقرب إلى الحقيقة من التعقلات البسيطة التي يقوم بها رجل سليم الذوق ، وقد لمس الأشياء بيديه . والمهم عنده أن تحسن التفكير ، لأن تعرف كيف فكر الناس . والبناء الذي قام به مهندس واحد ، خير عنده من البناء الذي يقوم به عدد من المهندسين ، فإن وَحدة الذوق من موجبات الجمال

ويرى ديكرت أنه لوضع فلسفة جديدة ، يجب أن يوضع أسلوب جديد . والأسلوب المختار لديه هو الأسلوب الرياضي ، لأنه يعصم الفكر عن الخطأ والضلال وقد وضع لأسلوبه هذه القواعد الأربع :

أولاً — لا يصح قبول شيء على أنه حق ، ما لم يُعرف

(ما هو) بغاية الوضوح

ثانياً — تقسم كل مسألة صعبة الى ما يمكن أن تستعمل

عليه من الأجزاء ، ليكون ادراكها سهل المنال

ثالثاً — ترتيب التفكير ، والابتداء بالموضوعات السهلة

البسيطة ، للوصول الى الموضوعات المركبة

رابعاً — فرض نظام في الموضوعات التي لا يسبق بعضها

بعضاً في الطبع

يقول بول جانين « ولهذا القواعد الأربع في ذهن ديكرت

معنى جد محدود . والقاعدة الاولى تظهر كأنها عادية ، وليس كذلك ،

فان اغفال كل سلطة ، وإقرار الاستقلال المطلق للعقل ، كان في أوائل القرن السابع عشر جرأة وبدعة ^(١) . ومن جانب آخر ينبغي أن نفهم كلمة (وضوح) فان كل مانعته بقوة ليس واضحا ، ولأجل وضوحه ينبغي أن يخلص العقل من كل تأثير للحواس والخيال ، ليدرك الافكار بوضوح وتميز . فان مدركات الحواس مختلطة ، والآراء المعقولة هي التي تولد من أعماق العقل واضحة متميزة . وكذلك لا يوجد واضح محسوس ، اذ كل واضح معقول «

والجارحة التي تدرك الحقيقة مباشرة هي البصيرة intuition ولا يريد بها ديكارت ما يتغير من أحكام الحواس والخيال ، وإنما يريد بها إدراك العقل السليم اليقظ : الإدراك السهل الواضح الذي لا يتطرق إليه أى شك ، الإدراك الحازم الذي يولد فقط من أضواء العقل

وبموجب هذه البصيرة يستطيع كل انسان فيما يرى ديكارت أن يعلم أنه موجود ، وأنه يفكر . ويستطيع كذلك أن يعلم أن الواحد نصف الاثنين ، وان $2 + 2 = 4$ كما أن $1 + 3 = 4$ لأن هذه الأحكام مدركة بغاية الوضوح والجلاء

وديكارت يبدأ بنفسه فيفرض أن جميع ما يراه باطل ، فاذا يمكن أن يعتبر صحيحاً حينئذ ؟ قد لا يثبت إلا عدم وجود شيء يقينى في العالم ، ولاكن يبقى بالطبع أن هناك انساناً شكاً ، وأن

(١) بدعة : هي الكلمة التي اخترناها لترجمة كلمة nouveauté لانها أقرب الى المراد

هذا الانسان لا محالة موجود . وهنا يقول ديكارت كلمته المأثورة
Je pense, donc Je suis أنا أفكر ، فأنا إذن موجود . ولا
بأس فيما يرى ديكارت أن يَفْشَّ الانسان ويُخدع ، فان هذا يدل
فقط على أنه رأى الأشياء مرة على غير ما هي عليه ، ولا ينافي أنه
كائن موجود . ويرى ديكارت أنه قد يرغب في أشياء لن تكون
فالمرغوب فيه موهوم ، ولكن الرغبة نفسها حقيقة لاخيال
وجملة القول في أسلوب ديكارت أنه لا شيء أوضح لديه من
فكره ، فهو يؤمن أولاً بوجوده ، ثم ينتقل إلى الأشياء يقيس
وجودها بقدر ما فيها من الوضوح ، لأن القاعدة عنده أنه لا يصح
قبول شيء على أنه حق حتى يعرف « ما هو » بغاية الجلاء
ولفلسفة ديكارت كثير من الخصوم والأنصار ، ولا يسمح
لنا الوقت بتفصيل ما قيل في النيل منه ، والدفاع عنه ، وربما عدنا
إليه في مؤلف خاص

٢

الغزالي وبسكال pascal

ولد بسكال في كليرمون في ١٨ يونيه سنة ١٦٢٣ وانتقل به
أبوه الى باريس في سنة ١٦٣١ حيث اتصل بكثير من علماء ذلك
العصر ، وكان أول أستاذ لبسكال هو والده الذي عنى بتربيته على

قوة الفكر ، وحسن الاستنباط . وقد شغف بسكال بالرياضة ،
وألف فيها وهو يافع . ثم مال إلى الفلسفة ، ولكنه لم يعول على
عقله ، بل أسلم نفسه لهواجس دينية ، تحمل عليها بضعف صحته ،
واضطراره إلى حياة العزلة والانفراد

واشتهر بسكال بكتابه الأفكار *pensées* وهو مجموعة آراء
جمعت وطبعت بعد وفاته ، وكتابه *lettres provinciales* يمثل
رأيه في حياة القسيسين والرهبان

ووجه الشبه بين الغزالي وبسكال هو أن كلا منهما ابتداءً
حياته بقوة قهارة ، ثم انتهت به صحته إلى الرضى بالجمول في ضلال
التنسك والزهد ، فقد رأيت كيف أقبل الغزالي على كل علم ،
وكيف درس كل النحل ، وعرف بواطن جميع الفرق ، ثم رأيت
كيف رضى بوساوس الصوفية ، وعدَّ كل ما سوى مذهبهم
ضلالاً في ضلال !!

وكذلك ابتداءً بسكال حياته بتأييد مذهب ديكرت ،
والتحمُّس لنصرة العقل ، ومحاربة الوسوس القديمة . حتى لنجده
يدافع عن الشهوات الكبيرة التي توجد الأعمال العظيمة ، كالحب
والطمع . وذلك في رسالته *discours sur les passions de l'amour*
ولكن صحة بسكال أخذت تسوء يوماً بعد يوم ، واضطر إلى
العزلة في *port-royal* واختار الفلسفة الصوفية التي خلصها

في محادثته مع مسيو دي ساسي كما قال بول جانيه ، ثم عوّل أخيراً
على الاكتفاء بالإنجيل

ومما يقرب بسكال من الغزالي شكه في قوة الطبيعة الانسانية ،
فهو يرى أن الانسان مملوء بالخطأ الغريزي الذي لا يزول الابغناية
الله . وليس هناك شيء يهدي الانسان الى الحقيقة ، بل كل شيء
يخدعه . ومع أن العقل والحواس أصلان للحقائق فإن كلا منهما
يخدع صاحبه ، والناس يدعوا بعضهم بعضا الى الخداع : فهم يتبادلون
المدح لعلمهم فيما بينهم بكراهة الحقيقة التي تنافي المدح ، وكذلك
لا يتكلم امرؤ في حضرتك كما يتكلم في مغيبك ، فالانسان في نظر
بسكال مجموعة من الكذب والزور والنفاق

وقد بالغ بسكال في احتقار العقل . تم تمنى لو أنه عرف جميع
الأشياء بالوحي والشعور ولم يحتاج أبدا الى العقل ! : ويتهم بسكال
عقله باغرائه بالشك . ويعتقد أن الدين لا يأتي مطلقا من ناحية
العقل ، وإنما يأتي من شعور القلب ، ومن هداية الله ، ويجوز أن
يأتي الدين من طريق العقل ، ولكن مثل هذا الدين لا ينفع
للنجاة !! وهذا بالطبع اسراف

٣

الفراي وهوبس hobbes

ولد هوبس في إنجلترا سنة ١٥٨٨ ورحل الى باريس في سن
الأربعين حيث درس الرياضيات وعلوم الطبيعة . ثم زار فرنسا
مرة ثانية ، وأقام فيها مدة طويلة ، واتصل صلة متينة بالفيلسوف
جسندى صاحب الفضل على موليير وفولتير . ثم مات في إنجلترا
سنة ١٦٧٩

وأشهر مؤلفات هوبس هو كتابه *la nature humaine*
وكتابه *leviathan* أو *la matière, la forme et l'autorité du*
gouvernement وفي هذا الكتاب الأخير دافع عن الأثرة ،
والاستبداد ، فقد كان هوبس من غلاة الماديين ، والاحساس
عنده ليس الا حركة من حركات المنح ، وهذه الحركة متى وافقت
الوظائف الحيوية أنتجت اللذة ، واللذة تولد الرغبة ، والرغبة
توجد الإرادة . فليست الإرادة إذأ إلا رغبة مُسيطرَة . وهوبس
لا يعرف باعثاً للعمل غير طلب اللذة ، أو الهروب من الألم .
والعواطف عنده ليست إلا صوراً لحب الذات

وهوبس من أصحاب نظرية العقد الاجتماعي *contrat social*

التي عُنى بها جان چاك روسو فيما بعد . ويرى هوبس أن الانسان
مفطور على الأثرة والشره ، وأن جميع أعماله إنما هي مُسَلَّم الى
مطامعه . وهذه الفطرة جعلت الحياة الطبيعية مرة المذاق ، لطمع
القوى في الضعيف . ويتخيل هوبس أن آباءنا الأولين لم يروا
سبيلا إلى السلامة من شر الأقوياء غير الانضمام تحت لواء سلطة
بشرية تدفع عنهم عادية المطامع ، وهذه السلطة تمثل في الملك ،
ولهذا الملك جميع الحقوق التي كانت لجميع الأفراد قبل التعاقد ،
وليس عليه إلا واجب واحد : هو حفظ الأمن

ويرى هوبس تأييداً لنظريته أن الدين الحق هو دين الدولة
مهما كان جوهره ، وعلى كل فرد الخضوع له ، والخروج عليه
كفر ومروق

ويظهر مما سلف أن هوبس يريد بنظرية العقد الاجتماعي
تأييد الملوكية ، ولا كذلك روسو حين دافع عن هذه النظرية
فانه يرى أن حياة الطبيعة كانت حياة نعيم ، وأن الناس لما أفسدوها
بأنفسهم اضطروا إلى أن يتنازل كل فرد منهم عن جزء من حريته
ليتكون من مجموع هذه الاجزاء قوة مدنية تدافع عن الجميع ،
وهذه القوة لا تمثل في الملك كما يرى هوبس ، وإنما تمثل في شخص
هو مندوب الامة ، ولها عزله حين تريد

إلى هنا لا يرى القاري أى تناسب بين هوبس وبين الغزالي
والواقع أن الجمع بينهما بعيد، لأن الغزالي رجل تضحية وإيثار،
والخير عنده يرجع فى الاكثر الى نفع الناس، فى حين أن هوبس
يرى الخير فى أن يعمل المرء لنفسه، قبل أن يحلم بسواه. ولكنى
رأيت بعد البحث انهما يتفقان فى تكيف وجهة الطبيعة
الانسانية، وان اختلافهما فى غاية الاخلاق، فاذا كان هوبس يرى
أعمال المرء مظهراً للأثرة، ويرى حب المرء لجاره ليس إلا ضرباً
من حب النفس، وأن طاعته للقوانين الاخلاقية ليست إلا سعيًا
فى سبيل نفعه، فكذلك الغزالي يتهم أكثر العاملين بالرياء،
ويرميهم بحب الذات

والغزالي يسيء الظن بالطبيعة الانسانية، ويرى العمل
فى الأغلب لا يراد به الا نيل الثواب، أو الفرار من العقاب،
ولا يزال بالطبيعة الانسانية يفحصها ويسبر أغوارها بمسبر الشك
والارتياب، حتى يصل بعد الفحص إلى أن هناك رياء « هو أخفى
من ديب النمل » ومن كلامه : رب عبد يخلص فى عمله، ولا
يعتقد الرياء بل يكرهه ويرده، ولكن اذا اطلع عليه الناس سره
ذلك وارتاح له، وهذا السرور يدل على رياء خفى، فلو لا التفات
القلب الى الناس ما ظهر سروره عند اطلاع الناس

والفرق بين الغزالي وهوبس ، يرجع الى أن هوبس يريد أن يجعل وجهة الطبيعة الانسانية أساساً للاخلاق ، فيكون الخير ما ينفع المرء ، والشر ما يضره . ولكن الغزالي يرى أن الخير لا يكون إلا حيث ينتفع المرء ولا يضر غيره ، لان وجهة الغزالي وجهة إسلامية ، لا ضرر فيها ولا ضرار .



الغزالي وبوتلير butler

بوتلير هو فيلسوف انجليزي ولد سنة ١٦٩٢ وتوفي سنة ١٧٥٢ وهو يعول أكثر من الغزالي على الفطرة الانسانية وعنده أن المرء يستطيع بنفسه أن يدرك ما في عمله من الخطأ والصواب قبل أن يقدم عليه ، وان لم يعلم شيئاً من المباحث الاخلاقية . ويرى أنه لا شئ يدعونا إلى طاعة قانون الاخلاق غير اعتماده على السريرة ، ولا يرى بوتلير فرقا بين السريرة التي تحتم طاعة الاخلاق وبين حب النفس ، مادنا نفهم سعادتنا الحقيقية فان الواجب والمنفعة لا يختلفان عنده ، وهنا يتفق مع الغزالي بعض الاتفاق ، لان وجهة الغزالي اسلامية ، والاسلام يرى المنفعة في الواجب ، وان كان لا يرى الواجب في المنفعة ، فان هذا شئ قد يكون وقد لا يكون . إلا إن أردنا ما هو نافع

في الواقع . على أن بوتلير يقيد اتفاق المنفعة مع الواجب بالامور
الاخروية ، ويرى اتفاقهما في الامور الدنيوية كثير الوقوع ،
لا واجب الوجود
وأجل ما في بوتلير حكمه على الفضائل بأنها قانون الطبيعة ،
في حين أن الغزالي يراها ضرورياً من التكاليف



الغزالي وكارليل karlyle

ولد كارليل سنة ١٧٩٥ في قرية اكلفكان بمجنوب اسكو تلانده
من والد يشتغل بصناعة البناء . تلقى مبادئ العلم في قريته . ثم دخل
جامعة ادنبرج في الثالثة عشرة من عمره . وفي التاسعة عشرة من
عمره صار مدرسا للرياضة بمدرسة آنان ، وبعد ثلاث سنين صار
رئيس مدرسة بيلدة كركالدي . وفي سنة ١٨١٨ ترك مهنة التعليم .
وذهب الى ادنبرج ، وهو لا يدري ماذا يعمل ، ولكنه درس علم
المعادن ، واضطر من أجله الى تعلم الألمانية التي كانت سببا لذيوع
شهرته . وتوفي سنة ١٨٨١

وكارليل هذا من كبار الفلاسفة ، ومن أعظم المدافعين عن
الديانات . حتى لنجده يدافع عن الوثنية ، لأنها في رأيه ليست الا
إفراطا في العجب من الشيء ، حتى ينقلب هذا العجب تقديسا

وعبادة ، ولأنه يرى أن الأقدمين ما قدسوا شيئاً إلا لأنه إله ،
أورمز الى إله . ومن آثار كارليل كتاب الأبطال الذي ترجمه
الأستاذ محمد السباعي . وفي هذا الكتاب فصل ممتع عن
النبي محمد صلوات الله عليه وسلامه . كان سبباً في تغيير وجهة
أنظار الأجانب نحو الاسلام . ومن كلامه في ذلك :

« لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد مهذب من أبناء هذا
العصر أن يصغى الى ما يظن من أن دين الاسلام كذب ، وأن محمداً
خداع مزور . وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الاقوال السخيفة
المخجلة . فان الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة
اثنى عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا ، خلقهم الله الذي
خلقنا . أفكان يظن أحدكم أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها
هذه الملايين الفاتنة المحصرأ كذوبة وخذعة ؟ أما أنا فلا أستطيع
ان أرى هذا الرأي أبداً . ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق
الله هذا الرواج . ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول . فما
الناس إلا به وبمجانين ، وما الحياة الا سخف وعبث وأضلولة ، كالأولى
بها أن لا تخلق . فوا أسفاه ! ما أسوأ مثل هذا الزعم . وما أضعف أهله ،
وأحقهم بالراء والمرحمة ! »

وقد دافع كارليل عن الاسلام خير دفاع ، فناقش من رموه
بالقسوة ، واستعمال السيف ، وبين أن المسيحية نفسها جلأت إلى
القوة حين لم ينفع التسامح . ورد على من زعموا أن القرآن مملوء
بالتعقيد ، وبين أن سبب هذه التهمة هو عجز الترجمة عن نقل

بلاغة القرآن وحلاوته . وعارض من نسبوا الى رسول الله الهفوات ، وأكد أن طلب العصمة طلب سخي ، فإن العصمة لله وحده ، وأكبر الهفوات عنده أن يحسب المرء أنه يرى من الهفوات

الكفر والايما

يتفق الغزالي وكارليل في أن كلا منهما مؤمن ثابت اليقين ، ويختلفان في فهم السريرة الانسانية ، وفي نتيجة التفكير . فالغزالي لا يعترف للضمير بالصلاحية للحكم ، وإنما الشرع هو الفيصل في الحسن والقبح ، فما حسنه الشرع فهو حسن ، وما قبحه فهو قبيح . ولكن كارليل يرى أن الشعور بالواجب معنى أبدي ، وهو جزء من الطبيعة الانسانية ، فهو قوة غريزية لا تحتاج في كسبها إلى شرائع ولا قوانين

ونتيجة التفكير محترمة عند كارليل ، وهو لا يصدق بأن الإلحاد والتفكير يجتمعان في قلب رجل واحد . والاخلاص عنده هو الأساس . ومن كلامه : « يرجى لنا أن نفهم معنى الوثنية متى سلمنا أولاً أنها كانت في حين من الأحيان ديناً صحيحاً في اعتقاد أهلها . فلنوقن كل اليقين أن الناس كانوا يؤمنون بوثنيتهم حق الايمان ولم يكن بهم من ذهول ولا جنون ولا نوم ولا مرض ، بل كانوا مع ذلك أصحاب العقول والحواس ، أيقاظاً قد صورهم الله على صورنا ، وخلقهم

تخلقنا ، لا فرق بيننا وبينهم في حال من الأحوال . ولنوقن كذلك أنا
لو كنا وجدنا معهم ، لآمننا بما كانوا يؤمنون به ، ولكننا وإياهم سواسية
في سائر الأشياء »

ويتلخص رأى كارليل في أن كل دين فيه عنصر من الحق ،
والوثنية عنده ليست إلا رموزاً شعرية ، وتمثيلاً بالمرثيات لما
جرى في وجدان الناس وأذهانهم عن الكون ومظاهره . وكل
دين فيما يرى إنما هو رمز وتمثيل . ولكن الاختلاف هو
في المشاعر والافكار . والفرق بيننا وبين الوثنيين يرجع إلى
الشكل أكثر مما يرجع إلى الجوهر ، لأن كلا منا يرى
التفكير في ملكوت الله نوعاً من العبادة ، ونحن لو أغررنا
بالكون كما أغرر الوثنيون به ، لرأينا الله في كل نجم ، بل
في كل زهرة

رأى الغزالي في الإمبرهات

لا يمكن لامرئ أن يكفر ، في نظر كارليل ، مادام مخلصاً
في عقيدته ، مهما كانت تلك العقيدة . ولكن الغزالي يرى أن
الاجتهاد له حد محدود . والمختار عنده أن الإثم والخطأ متلازمان
فكل مخطئ آثم وكل آثم مخطئ ، ومن اتقى عنه الإثم اتقى عنه
الخطأ ، وهو يقسم النظريات إلى ظنية وقطعية : ولا إثم
في الظنيات إذ لا خطأ فيها . والقطعيات عنده ثلاثة أقسام :

كلامية ، وأصولية ، وفقهية . ويعنى بالكلامية العقلية المحضة ، والحق فيها عنده واحد . ومن أخطأ الحق فيها فهو آثم . ويدخل في هذا القسم حدوث العالم ، وإثبات المحدث ، وصفاته الواجبة والجازية والمستحيلة ، وبعثة الرسل وتصديقهم بالمعجزات ، وجواز الرؤية ، وخلق الأعمال ، وإرادة الكائنات ، وجميع ما الكلام فيه مع المعزلة والخوارج والروافض والمبتدعة . فهذه المسائل الحق فيها عنده واحد ، ومن أخطأه فهو آثم : فإن أخطأ فيما يرجع الى الايمان بالله ورسوله فهو كافر . وإن أخطأ فيما لا يمنعه من معرفة الله عز وجل ومعرفة رسوله ، كما في مسألة الرؤية وخلق الأعمال وإرادة الكائنات ، فهو آثم من حيث عدل عن الحق وضل ، ومخطئ من حيث أخطأ الحق المتيقن ، ومبتدع من حيث قال قولاً مخالفاً للمشهور بين السلف ، ولا يلزمه الكفر . ويعنى بالأصولية كون الإجماع حجة ، وكون القياس حجة ، وكون خبر الواحد حجة الخ . وهذه المسائل أدلتها عنده قطعية ، والمخالف فيها مخطئ آثم . والفقيهاً بعضها يكفر المرء بإنكاره ، وبعضها يآثم بوجوده فإنكار تحريم الخمر والسرقه ووجوب الصلاة والصوم ، كفر . وإنكار الفقيهاً المعلومة بالإجماع خطأ وإثم

تحرير هذه المسألة

الأصل في الحكم الأخلاقي أن يتبع غرض العامل من عمله : إن خيراً خيراً ، وإن شراً شراً . فالعمل الذي أريد به الخير ، هو خير : وإن كان ضاراً في ذاته . والعمل الذي أريد به الشر ، هو شر : وإن كان نافعاً في ذاته . ويطلب الرجل فقط بأن يتروى قبل أن يعمل ، ليعرف ما في العمل من ضر ونفع ، وخطأ وصواب . ومتى أفرغ الجهد في البحث فقد أمن المسؤولية ، واستحق حسن الجزاء .

ولقد تبعت ما كتبه علماء المسامير في هذه المسألة فرأيتهم لا يكادون يهتدون . وسبب ضلالهم يرجع الى أنهم خلطوا بين الوجهة الأخلاقية ، والوجهة القضائية ، وكان يجب عليهم أن يفصلوا بين الوجهتين . فالذي يقتل مسلماً خطأً مدين من الوجهة القضائية ولكنه بريء من الوجهة الأخلاقية ، لأنه لم يقصد القتل . والشرع محق في اعتماده على الوجهة القضائية ، لأن فيها استئصالاً للجرائم ، ولأن القاضي متى عذر كل من ادعى الخطأ فقد يفلت منه كثير من المجرمين

والذي يدل على أن وجهة الشرع وجهة قضائية صرفة ، أنه يكتبني بإيمان المقلد . مع أن الإيمان لا ينفع فيه التقليد .

ويقول الباجوري في ص ٣٢ من حاشيته على الجوهرة مانصه :
(والخلاف في ايمان المقلد انما هو بالنظر لأحكام الآخرة وفيما
عند الله . وأما بالنظر الى أحكام الدنيا فيكفي فيها الإقرار
فقط . فن أقر جرت عليه الأحكام الاسلامية ، ولم يحكم عليه
بالكفر ، إلا إن اقترن بشئ يقتضى الكفر كالسجود لضم
وهذا واضح الدلالة على أن النجاة لا تكون باتباع الشرع . ولكن
بالايمان به . والايمان شئ آخر غير ظواهر الأعمال

الخطأ والعناد

كان على الغزالي أن يفرق بين من يخطئ في العقليات بعد
اجتهاده ، وبين من يعاند . فان الأقرب الى الحق أن ينجو من
نظر في الشريعة الاسلامية من الفلاسفة بنية حسنة ويقصد
الاقتناع ، ولكنه بعد البحث لم يقتنع ، ولم يقف مع هذا في وجه
المسامين . ولو أن الغزالي نظر هذه النظرة ، لما كفر ابن سينا
والفارابي ، إلا إن أمكن أن يثبت عندهما العناد ، مع انهما لم
ينكرا الرسالة المحمدية ، ولكن الناس لعهد الغزالي كانوا فيما يظهر
مصايين بداء الشك في عقائد الفلاسفة ، ورميهم بالروق
وقد جرت بيني وبين فضيلة الأستاذ الشيخ الدجوى مناقشة

في هذه المسألة منذ ثلاث سنين ، فكان فضيلة الأستاذ يرى أن الكفر يكفى فيه الجهل ، وكنت أرى أنه لا يتحقق إلا بالعناد . ثم رأيت فيما بعد أن الجاحظ يرى هذا الرأي . وقد نقل الغزالي في المستصفى « أنه ذهب الى أن مخالف ملة الاسلام ، من اليهود ، والنصارى ، والذهرية ، ان كان معاندا على خلاف اعتقاده فهو آثم ، وان نظر فمعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم ، وإن لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو أيضاً معذور . وانما الآثم المعضب هو المعاند فقط : لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وهؤلاء قد عجزوا عن درك الحق ، ولزموا عقائدهم خوفاً من الله تعالى اذا استد عليهم طريق المعرفة » وينسب ابن الحاجب الى الجاحظ أنه قال : لا إثم على المجتهد مع أنه مخطئ ، وتجرى عليه أحكام الكفار ، بخلاف المعاند فإنه آثم » وهذا يدل على أن الجاحظ مع حكمه بنفى الإثم عن المجتهد المخطئ يرى معاملته كما يعامل الكفار ، وهذه بعينها الوجهة القضائية التي حدثتكم عنها منذ قليل

ويظهر أنه كان لهذا الرأي أنصار فيما سلف ، فقد جاء في فصول البدائع ص ٤٢٤ ج ٢ مانصه (وما نقل عن بعض السلف من تصويب كل مجتهد في المسائل الكلامية كخلق القرآن ، ونفى الرؤية ، وخلق الأفعال ، فمعناه نفي الإثم والمعدورية ، لاحقية القول والمأجورية) وجاء في إرشاد الفحول ص ٢٤١ مانصه (مسألة الرؤية ، وخلق القرآن ، وخروج الموحدين من النار ، وما يشابه ذلك : الحق فيها واحد ، فمن أصابه فقد أصاب ، ومن أخطأه فقبل يكفر . ومن القائلين بذلك الشافعي

فن أصحابه من حمله على ظاهره . ومنهم من حمله على كفران النعم «
وحكى ابن الحاجب في المختصر عن العنبري أن كل مجتهد
مصيب . قال ابن دقيق العيد « ما نقل عن العنبري والجاحظ ، إن
أرادا أن كل واحد من المجتهدين مصيب لما في نفس الأمر ، فباطل ،
وإن ارادا ان من بذل الوسع ولم يقصر في الأصوليات يكون معذوراً
غير معاقب ، فهذا أقرب . لأنه قد يعتقد فيه انه لو عوقب وكلف بعد
استفراغه غاية الجهد لزم تكليفه بما لا يطاق » انظر الشوكاني ص ٢٤٢

ترجيح بلا مرجح

يرى الغزالي في كتاب فيصل التفرقة أن الرحمة تشمل
كثيراً من الأمم السالفة ، وإن كان أكثرهم يعرضون على النار ،
إما عرضة خفيفة ، في لحظة أوفى ساعة ، وإما في مدة ، حتى
يطلق عليهم اسم بعث النار . ويرى أن أكثر نصارى الروم
والترك لعده تشملهم الرحمة ، لأن منهم من لم يبلغه اسم محمد ،
ومنهم من بلغه اسمه مقروناً بأكاذيب تصرف المرء عن النظر .
ويرى في كتاب الصحبة أنه لاثواب ولاعقاب الاعلى الأفعال
الاختيارية

ونسأله : لماذا رجوت أن تشمل الرحمة كثيراً من الأمم
السالفة ؟ أليس ذلك لأنهم معذورون ؟ ولماذا حكمت بنجاة الترك
ونصارى الروم ممن لم تبلغهم الدعوة ، أو بلغتهم محرقة مشوهة ؟

أليس ذلك لأنهم معذرون؟ ولماذا قضيت بأنه لا ثواب ولا عقاب إلا على ما يفعل المرء باختياره؟ أليس ذلك لأن عقاب المرء على ما اضطر إليه، أو أكره عليه، ظلم وعدوان؟ وإذا كان ذلك كذلك، كما يعبر الكتاب الأقدمون، فلماذا تحم بكفر من لم يعلم وجوب النظر، أو علم بوجود النظر، ولكنه بعد البحث لم يقتنع؟ ولماذا تحم بنى الأثم عن مجتهد ويخطئ في المسائل الفقهية، وتحم بالأثم والكفر على من يجتهد ويخطئ في المسائل الكلامية؟ ألا يسع العذر لجميع المفكرين على سواء؟ فإن لم يسعهم، أفلا يكون هذا الفرق ترجيحاً بلا مرجح، وهو في رأيكم غير معقول؟

ظلم الأبرياء

وما عجبت لشيء كما عجبت من حكم الجاحظ بمعاملة المعذرين كما يعامل الكفار. فإنه إذا صح لديه أن مخالف ملة الإسلام من اليهود والنصارى والدينية، إن نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم، وإن لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو أيضاً معذور، وإنما الأثم الممذّب هو المعاند فقط، أقول إذا صح عنده ذلك فكيف يحكم بأن يعامل هؤلاء بمعاملة الكفار، وهم عند الله ناجون؟ أفنكون نحن أغير من الله على دينه الذي لم يكاف فيه نفساً إلا وسعها؟

ولقد أعلم أن الجاحظ لو كان حياً وسمع هذا السؤال ، لأجاب بأن في هذا التشديد تقييلاً للخوارج على الدين . وهذا جواب معقول ، ولكن يلاحظ أنه تأييد لما قلناه آنفاً من أن علماء المسلمين نظروا الى هذه المسائل من وجهة قضائية ، لا من وجهة أخلاقية . وكان عليهم أن يتنبهوا الى الفرق بين القضاء والأخلاق ، فمن الواضح أن القتل خطأ معاقب عليه من الوجهة القضائية ، مع أن الذي يقتل خطا بريء أمام نفسه ، وأمام ربه ، وأمام الواقع وأحب أن أنبه القارئ الى أني في هذا الحكم لا أتكلم من وجهة شرعية ، فقد يدعى المدعون أن الشرع لا يعرف ذلك . وإنما أتكلم من وجهة فلسفية ، وأفترض أن الشرع إن لم يتنبه لهذا الحكم ، فقد كان يجب أن يتنبه له ، وأن يضع له الحدود ، فإن المعذور بريء ، ومن الظلم أن يقتل الأبرياء .

٦

الفيزيائي وسبينوزا spinoza

ولد سبينوزا في امستردام سنة ١٦٣٢ من عائلة يهودية . وقد اضطهده اليهود لشككه في تعاليم اليهودية . وهم أحدهم بقتله . فاضطر لذلك الى أن يعتزل في لاهاي . وصار يكسب قوته بالعمل في صقل زجاج التلسكوب والميكروسكوب . وقد عرض عليه أصدقاؤه المساعدة عدة مرات ، ولكنه رفض قبول المعونة بعزّة

وإباء . وعُرض عليه منصب أستاذ للفلسفة بجامعة هيدلبرج ، ولكنه لم يقبل ، حباً في الاستقلال . وعاش عيش الناسكين . وقد أصيب بمرض الصدر ، فاحتمله بلا شكاية . ثم مات سنة ١٦٧٧ بعد أن حكم أهل عصره بكفره

وأهم مؤلفاته traité théologico-politique وقد نشر في حياته ، وفيه أخضع الكتاب المقدس للنقد وحرية الفكر . وكتابه éthique ظهر بعد موته ، وفيه بسط مذهبه عما وراء الطبيعة ، وتكلم عن النفس ، والأهواء ، والشهوات .

وسبينوزا من أشد أنصار مذهب الحلول : فهو يرى أن الله هو كل شيء . وأن كل شيء هو الله . وهو في ذلك يخالف الغزالي إذ يرى لله وجوداً غير وجود العالم . والله في رأيه هو المدبر لهذا الكون ، ولكن سبينوزا يرى أن الله والعالم شيء واحد ، ويرى الله حالاً في كل ذرة ، وفي كل حبة ، وفي كل نبتة ، وفي كل ورقة ، وفي كل دابة ، إلى آخر ما في الوجود . وليس للإنسان حرية ، وإن اعتقد أنه حر ، وإنما يحلم وأعينه مفتوحة :
ومن أجل هذا ثار رجال الدين على سبينوزا ورموه بالزندقة ، قال الدكتور رابورت « وما كان أبعد عن الاحاد ، فقد كان مملوءاً بحب الله ، حبا جاءه عبر الطبيعة ، فن كأس الطبيعة الطاغية

قد شرب اللوهية حتى ثمل ، وحتى أصبح لا يرى أمامه الا الله^(١) ،
وهذا الاعتذار يشبه ما اعتذره المسلمون عن البسطامي والحلاج ،
ومن اليهم من القائلين بوحدة الوجود

وغاية الاخلاق عند سبينوزا هي كمال الطبيعة الانسانية ،
فكل علم لا يفضى الى ذلك فهو في رأيه غير مفيد ، وهو يتفق
مع الغزالي في هذا المعنى الأخير : أى في احتقار كل علم لا يوصل
إلى السعادة ، وان اختلفت غايتهما بعض الاختلاف . فان غاية
الاخلاق عند الغزالي هي السعادة الاخروية

ومع أن سبينوزا يعمل لكمال الطبيعة الانسانية ، فانه يرى
أن التمييز بين النقص والكمال ، والخير والشر ، من الأمور
الاعتبارية ، إذ ليس هذا التمييز الا صورة تنتزعها من الموازنة بين
الاشياء . فاذا كان الغزالي يرى أن الخير هو ما أمر الله به ، والشر
ما نهى الله عنه . فان سبينوزا يرى أن الخير هو النافع ، والشر
هو الضار . وبعبارة أخرى : الخير هو ما يزيد قوتنا ويُعدّها
للعمل ، والشر هو ما يضعفها أو يضع في سبيلها العوائق . وينتج
من ذلك أن الخير يحدث الفرح ، والشر يحدث الحزن
ويبقى بعد ما سلف أن السعادة كل السعادة في إكمال العقل

(١) مبادئ الفلاسفة ص ١٦٦

لأنه في رأيه هو وجودنا الحق ، ثم يقرر أن السعادة في الواقع هي طمأنينة النفس ، التي تنشأ من معرفة الله ، فليس الجهل شراً إلا لأن صاحبه دائم القلق والاضطراب ، وليس للحكمة فضل أكثر مما تورث صاحبها من الأمان والسكينة ، وهو يتفق مع الغزالي في هذه النقطة الأخيرة

ومن أظهر الفروق بين الغزالي وسبينوزا نفي الشخصية الانسانية ، ونفي المسؤولية . وهذا واضح ، لأنه ما دام العالم هو الله ، والله هو العالم ، فلن يرى سبينوزا للمرء شخصية ، ولن يحكم بأنه مسئول . أما الغزالي فيرى وجود الشخصية الانسانية ، ويرى أهليتها للجزاء ، والثواب ، والعقاب ، وان كانت عنده أضعف من أن تدرك شيئاً بغير هداية الله

الغزالي وجسندي gassendi

ولد جسندي في بروكس بجنوب فرنسا سنة ١٥٩٢
اشتغل حيناً بتدريس البلاغة والفلسفة ، ثم صار قسيساً وسافر الى هولنده واشتغل بالطبيعيات ولا سيما الفلك والتشريح ، ثم دعي لتدريس الرياضيات بالمدرسة الملكية في باريس سنة ١٦٤٥ ، وظل بها الى أن توفي سنة ١٦٥٥
وأهم ما يمتاز به جسندي هو دفاعه عن فلسفة ابيقور المتوفى سنة ٢٧٠ قبل الميلاد . وأبيقور هذا يرى أن غاية الأخلق هي

السعادة الذاتية : فليست الفضيلة فضيلة إلا لأنها تجلب لذة ،
وليست الرذيلة رذيلة إلا لأنها تحدث ألماً ، ولا قيمة لأي عمل
في نفسه إلا بنسبته الى اللذائذ والآلام . وقد كان أبيقور يدافع
عن مذهبه بطريقة تقربه من رضى العقلاء ، فكان يرى أنه لا مانع
من احتمال الآلام الوقتية في سبيل ما يعقبها من اللذائذ الباقية ،
ويحلل الفضائل الشاقة ، ويبين ما فيها في نفس الأمر وحقيقة
الواقع من البعد عن الآلام ، لأن ما في الخروج على الفضيلة من
اللذة ، لا يساوى ما يعقبه من الألم ، وكذلك ما في الصبر على ترك
الرذيلة من فوات اللذة العاجلة ، يعوض على صاحبه كثيراً من
الآلام التي يتعرض لها باقتراف المنكرات

ولكن الناس فهموا مذهب أبيقور فهما غير صحيح ، فحسبوه
فقط داعياً إلى اللذة ، وأخذوا يصنفون الرجل الخليع بأنه (أبيقورى)
فجاء جسندى فأحياتنا الميم هذا المذهب ودافع عنه . وقد أثر جسندى
في عصره تأثيراً شديداً . وحسبه أن كان من تلامذته مولير

والغزالي تكلم عن اللذة ، وعنى بها كما فعل جسندى ،
ولكن الفرق بينهما بعيد ، فان جسندى يرى اللذة غرضاً من
أهم أغراض الانسان . ولكن الغزالي يراها صفة من صفاته ،
فلمعين لذة ، وللأذن لذة ، ولعضو التناسل لذة . ولا قيمة للحياة
بغير هذه اللذات . ولكن يجب أن تحد بحدود العقل والشرع ،

ومن السهل أن يعرف المرء مالهما من الحدود . ولكن جسندى
يحد اللذة بما لا يصحبه ألم ولا يعقبه ألم . وهنا موضع الخلاف ،
فإن الزنا في نظر الغزالي ليست له أضرار دنيوية ، ولكنه يذهب
بصاحبه إلى النار .

الغزالي ومالبرانش malebranche

ولد مالبرانش في باريس سنة ١٦٣٨ ومكث قسيساً خمسين
سنة . وكان كل همه أن يوحد بين الدين والفلسفة . وقد توفي بعد
مرض طويل سنة ١٧١٥

وأهم مؤلفاته *traité de morale* و *recherche de la vérité*
وهو من أنصار ديكرت والمعجبين به ، ومن القائلين بوجود
حرية الفكر إلى أقصى حد . والقاعدة عنده أنه لا يصح أن نسلم
تماماً إلا بالقضايا التي تظهر لنا واضحة إلى حد أنه لا يمكننا أن نرفض
التسليم بها ، وإلا تعرضنا لعتب العقل ، وتأنيب الضمير
والقاعدة الأخلاقية عند مالبرانش أنه لا يصح أن نحجب
خيراً من الخيرات حبا تاماً ، مادمننا نستطيع أن لانحبه بلا ندم .
وهنا يتفق مع الغزالي ، فيقرر أنه لا يجب أن نحجب غير الله حبا
تاماً مطلقاً . ونحن نذكر أن الغزالي قرر أن الحب المطلق لا يكون
لغير الله ، لأنه لا نظير له ، لافي الامكان ولا في الوجود
ويتفق مالبرانش مع الغزالي في عدم الثقة بأحكام الحواس ، لأنه

رأى البصر يختلف حكمه على الاشياء باختلاف القرب والبعد ،
ويضيف الى ذلك شكه في الوحدة الزمنية ، لانه يرى اليوم على
طوله قصيراً بالنسبة الى الفرح المسرور . ويرى الساعة على قصرها
طويلةً بالنسبة الى المتألم الحزين

ويتفق الغزالي ومالبرانش في فهم الرجل الخير . فاذا كان
الغزالي يقرر أنه ماهلك امرؤ عرف قدره ، فان مالبرانش يقرر
أن الانسان الخير حقيقة هو من لا يريد أن يكون سعيداً الا بقدر
ما يستحق ، وبقدر ما تسمح له العدالة الالهية

ويفترق الغزالي ومالبرانش في تقدير اللذة . فهي عند الغزالي
خير الى حد محدود ، ثم تنقلب الى شر . وهي عند مالبرانش خير
دائماً ، وان كان التمتع بها لا يفيد دائماً ، لانها قد تصرفنا عن الله .
ويختلفان كذلك في فهم الألم ، فهو عند مالبرانش يكاد يكون
خيراً ، وان كان شراً بالفعل . والغرض من ذلك تبرير الاحتمال .
أما الغزالي فلا يخلص الألم باهتمام خاص ، وان كان يرحب بكل
ما يناله من الاذى في سبيل الله



وبعد هذه المقارنات الموجزة . أوصى القارى بان يعتبر
هذا الباب لمعة يسيرة في جانب ما يجب من درس آراء الفلاسفة
المحدثين ، وأحضه على إتمام ما فاتني إتمامه ، والله بالتوفيق كفيل

الباب الرابع عشر

في

آراء علماء العصر في الغزالي

تمهيد

لا يوجد هذا الباب في النسخة التي قدمت للجامعة المصرية ، وإنما رأيت أن أكتبه بعد الامتحان ، تكميلاً للسلسلة التاريخية ، التي أردت أن أبين بها قيمة الغزالي في مختلف العصور ولقد عجبت حين رأيت العلماء يخشون من تدوين رأيهم في الغزالي بجرأة وصراحة . وحجتهم في ذلك أن الرأي العام لا يقبل في الغزالي غير المدح الخالص ، وللغزالي كسائر المؤلفين حسنات وسيئات ، وهم لا يستطيعون أن يبدووا شيئاً من سيئاته في العلانية ، كما لا يمكنهم أن يذكروا حسناته مجردةً من النقد ، وإلا كانوا عرضةً للسخرية والاستهزاء !

وإذ كانت الخطة التي جريت عليها في نقد الغزالي تقضي على نشر ماله وما عليه ، عملاً بالنزاهة العلمية ، فقد رأيت أن أثبت آراء أنصار الغزالي وخصومه في هذا العصر ، وأدونها كما

هي بلا زيادة ولا نقص ، معتمداً في ذلك على محادثات خاصة دارت بيني وبينهم ، وعلى سند كتابي فيما يتعلق برأى حضرة صاحب العزة الأستاذ محمد بك جاد المولى وحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار . وأنا أشكر هذين الأستاذين بصفة خاصة : لأنني لم أر من غيرهما جرأة على التقدم بشيء مكتوب ، وأعذر من أحجم عن الكتابة ، لأن الضجة التي قامت بعد الامتحان أفهمت من لم يفهم : أن حرية الفكر في مصر لا ظهير لها ولا نصير

رأى الدكتور منصور فرهمي

الدكتور منصور علم من أعلام هذا العصر ، وهو أستاذ الفلاسفة في الجامعة المصرية ، وقد لاقى بسبب آرائه ما يقدره لا مثاله عادة من الظلم والاضطهاد . فصلته الجامعة في سنة ١٩١٣ مجازاة للجمهور الذي غضب وثار بسبب ما شاع إذ ذاك من أنه رعى النبي عليه السلام بحب الشهوات . وقد رأى حضرة صاحب الدولة سعد باشا زغلول أن حرمان الجامعة من مثل هذا العقل الناضج ظلم مبین ، فنصحته يومئذ بأن يصلى الجمعة في الأزهر ليكون في ذلك قطع لآلسنة المرجفين ، وليستطيع دولته أن

يرجعه الى الجامعة ، ويصل من عمله ما انقطع . ولكن الدكتور منصور أبى أن يشهد العلماء له بالايان ، لأن الله على إيمانه شهيد ، فشكر لسعد باشا رفقته به ، وظل بعيداً عن الجامعة بضع سنين . ثم رجع إليها على الرأس في سنة ١٩٢١

وللدكتور منصور رسالة عن الغزالي نالها الدكتوراه من جامعة باريس ، فلرأيه في الغزالي قيمة خاصة . وهو لا يعد خصماً للغزالي ولا نصيراً له ، وإنما يشكره على ما أداه للعلم من الخدمات ، ويغفر له أغلاطه ، لأنه كأكثر المؤلفين لعهدہ يعتمد على ذاكرته ، والاعتماد على الذاكرة يورث التناقض والاضطراب

٢

رأى الشيخ على عبد الرازق

الأستاذ الشيخ على عبد الرازق رجل ممتاز من بين رجال هذا العصر ، وقد تلقينا عنه دروس الأدب والبيان في الأزهر منذ اثني عشر عاماً ، وأماله في علم البيان دليل على عقليته النادرة . ولو مضى في التأليف لأصبح قليل الأمثال . وقد درس الغزالي بعناية ، وهو يقف ازاءه موقف الحياد . ويقرر أن الغزالي أوجد حركة فكرية في العالم الاسلامي . أما

قيمة هذه الحركة فتختلف باختلاف الأنظار ، فمن الناس من يراها ضارة ، ومنهم من يراها نافعة ، ولا يزالون مختلفين

٣

رأى الشيخ يوسف الدجوى

الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى عالم من هيئة كبار العلماء ، وهو ذو نفوذ كبير فى الأزهر والمعاهد الدينية ، وأكثر العلماء الممتازين اليوم من تلامذته . ومن الخطأ أن تعرفه من مؤلفاته ، لأنها مع قلتها ضعيفة ، ولأن الفرق بعيد بين ما يقوله فى دروسه الخاصة وبين ما يدونه فى تلك المصنفات ، إذ كان يريد أن يصل بكتبه الى أفهام الجماهير ، ومن هنا فقدت هذه الكتب قيمتها العلمية . ورسائله الصغيرة فى تفسير قوله تعالى (لا يسأل عما يفعل) نجعلنا نأسف كثيراً على هجره لهذا الأسلوب البديع ، وإقباله على خطة الترغيب والترهيب ، التى تذكرنا بكتاب الإحياء ويكاد يعدّ الشيخ الدجوى خليفة للغزالي فى هذا العصر ، ففيه تقريباً كل خصائصه ، من القدرة ، والاخلاص ، وقوة النفوذ ، وبغض الفلسفة ، والحذر من أن يتجاوز العقل ماله من الحدود



رأى الاستاذ جاد المولى بك

الأستاذ محمد بك جاد المولى من نوابغ هذا العصر . تخرج من دار العلوم سنة ١٩٠٦ وكان ترتيبه الثانى ، فسافر فى أول بعثة أرسلها دولة سعد باشا زغالول حين كان وزيرا للمعارف فى سنة ١٩٠٧ فمضى ثلاث سنين فى الكلية الجامعة بمدينة رديج . ثم عين فى سنة ١٩١٠ مساعدا لأستاذ اللغة العربية بجامعة أكسفورد وقضى بها ثلاث سنين . ثم عاد فى سنة ١٣ فعين فى قلم الترجمة بوزارة الأشغال فمضى بها ثلاث سنين . وفى سنة ١٦ نقل الى الديوان العالى ، وظل فى خدمة البيت المالك الى سنة ٢٢ حيث نقل مفتشا بوزارة المعارف العمومية

وقد اتدبته الوزارة مع حضرة الأستاذ عبده خير الدين ليشارك فى الامتحان الذى تقدمت له فى الجامعة المصرية . ويذكر الجمهور أن الاستاذ جاد المولى بك كان يتأجج غيراً على الغزالي ، وقد ناقشنى بشدة فى كل الموضوعات التى خالفت فيها الغزالي . فبدأ لى بعد الامتحان أن أحادثه عن الغزالي من جديد ، فتوجهت إلى منزله لهذه الغاية ، فتنفضل وأطلعنى على المحاضرات التى كان

ألقاها عن الغزالي في سنة ١٩١٨ فرأيته يفضله على كثير من
الفلاسفة المحدثين منهم والقدماء .

والاستاذ جاد المولى بك لا يشك في أن المسامين انتفعوا
بالتصوف أيما انتفاع ، وبقدر نفع التصوف يقدر جهد الغزالي
في نشره وإذاعته . وقد كان الاستاذ جاد المولى بك يستشهد وهو
يحدثني عن ذلك بما كتبه الاستاذ الغمراوي بك في كتاب الغرائز
ويقول: إن الصوفي هو كالمعلم سواء بسواء ، فكما يجب على المعلم
أن يعمل لاستئصال الغرائز السيئة ، وتوجيه الغرائز الحسنة الى
النواحي النافعة ، كذلك يجب على الصوفي أن يراقب حركات
المرئيين . لأن التصوف ليس إلا رياضة للنفوس

وبالرغم من عناية الغزالي بالتصوف ، فإن الأستاذ جاد المولى
بك يراه من المجددين ، وقد سألته عن معنى هذا التجديد ، فقرر
أنه يريد به النهوض بالأفكار الاسلامية التي آمن بها الغزالي ،
والتي كاد يقضى عليها تيار الفلسفة اذ ذاك

٥

رأى الشيخ عبد العزيز جاويش

الأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش إمام من أئمة المسلمين في
هذا العصر . وهو معروف في جميع الاقطار الاسلامية ، وله أبحاث

في فلسفة التشريع تعزُّ على من رامها وتطول ، وقد استفاد من النفي والاضطهاد أيما استفادة ، ووقف بذلك على كثير من عقليات الأمم والشعوب ، وعدّه الانجليز بين أعدائهم الألداء في الحرب العالمية . ولقبوه بالرجل الخطير المخيف .
ويعد الشيخ جاويش من خصوم الغزالي : فهو أولاً يؤمن بقوة الغزالي ومثانيه ، ولكنه بعد ذلك يعجب من تساميه الى منزلة المجتهد المطلق ، مع أنه كان « جاهلاً » بفن الحديث . ويرى الشيخ جاويش أن جهل الغزالي بهذا الفن هو المقتل الوحيد لقيمته العالمية ، ولن ينفعه بعد ذلك ذبوع اسمه في العالمين . ويقرر الشيخ جاويش ان الغزالي متناقض ، وأنه من الصعب تحديده آرائه لأنها قد تختلف في الكتاب الواحد ، ولأنه لم ينكر شيئاً الا وقد قال به في بعض أحواله :

٦

رأى الكونت دي جالارزا

ظل الكونت دي جالارزا أستاذاً للفلسفة في الجامعة المصرية ست سنين ، وهو نادرة النوادير في كرم الاخلاق . وله مؤلفات في الفلسفة لا عيب فيها غير الغموض ، وعذره في ذلك أنه أجنبي عن اللغة العربية .

وهو من أشد أنصار الغزالي ، ويراه المسلم الحق بين فلاسفة
المسلمين ، ويعجب كثيرا بوجهته الروحية ، وله على الغزالي مأخذ
واحد : وهو منعه الناس من ورود مناهل العلم ، مع أنه لم يمنع
نفسه شيئا من العلوم . ويرى أن الغزالي حرّم بذلك من كانوا
أهلا للاستفادة ، وإن كان عصم من ليسوا أهلا للانتفاع ، من
سواد الناس . والغزالي في رأيه غاية الغايات في الاخلاص

٧

رأى الدكتور العناني

الدكتور على العناني من كبار الاساتذة في هذا العصر ، وقد
مكث في ألمانيا نحو عشر سنين ، فتمكن بذلك من أن يدرس
الفلسفة دراسة عميقة ، وهو من أساتذة الجامعة المصرية
والدكتور العناني ينظر الى الغزالي نظرة خاصة ، من حيث
تطور الفكر الاسلامي . فهو يرى أن الفكرة الاسلامية كانت
تعتمد أولا على الوحي ، ثم دخل العقل على أنه مفسر وموضح ،
ولكنه مازال يقوى وينمو حتى كاد يستقل عن الوحي استقلالاً
تاماً ، فرأى الغزالي أن يقف في وجه هذا الاستقلال ، فأخذ
يحارب الفلاسفة ويناضلهم حتى أخمل ذكرهم في الشرق ، وبذلك
انتقلت الفلسفة الى الاندلس ، ووجدت هناك مرعاها الخصب

والدكتور العناني يرى أن الغزالي سلك تلك السبيل خضوعاً
للرأى العام في البداية، ولكنه تأثر بما دعا إليه في النهاية، وعاد
حرباً للعقل، وسلاماً للمبادئ الروحية. وهو لا يصدق ما ذكره
ابن تيميمة من رجوعه إلى ظاهر الشريعة، فإن الرجل كان
أخذ أخذاً بمذاهب الصوفية، وإن كان لا ينكر مع ذلك أن له
آراء كان يخفيها ويضن بها على الناس



رأى الشيخ عبد الوهاب النجار

الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار نادرة هذا العصر، فقد
يندر أن يفوته شيء من معارف هذا الجيل. وهو أعرف الناس
بروح العرب والاسلام. وقد درس الغزالي دراسة جيدة. وله
على هذا الكتاب ملاحظات يراها القارئ في الهوامش، وهي
ملاحظات سديدة لم نشأ أن نحرم منها القراء. وقد قابلته أخيراً
فذكر لي أنه فاته أن يضع ملاحظة عما أخذته على الغزالي من
تحريم الغناء في أكثر الأحيان، وهو يرى أن الغزالي محق
فيما يقرر من الاكتفاء باباحة الغناء حين لا يوجد موجب التحريم.
لأن مهنة الغناء مجلبة للشقاء، وعلى الأخص حين تضطرب
الأحوال

ورأى الشيخ النجار في الغزالي رأى وسط : فهو يرى أنه في جملته لا نظير له ، وأن الحكم بتناقضه فيه شيء من المبالغة ، لأن الرجل كان ينظر الى الأشياء من جهات متعددة ، وكان لسنه في ذلك أكبر تأثير . وينكر عليه المبالغة في متابعة الصوفية ، ويضرب المثل بما يبوحه للفقير من تمزيق الثوب قطعاً مربعة تصلح للترقيع ، ويقول : هذا الفقير إما أن يكون في حالة صحو أو في حالة ذهول : فإن كان ذاهلاً فهو معذور ، ولا حكم له ، وإن كان صاحبياً فهو عايب ، لأنه ما معنى تمزيق الثوب بطريقة خاصة تجعله صالحاً لأن يرقع به سواه ؟ إن هذا الإلتلاف :

٩

رأى الشيخ حسين والى

الأستاذ الشيخ حسين والى من كبار العلماء ، ومؤلفاته تمتاز بالوضوح والبيان ، وعلى الأخص (كتاب التوحيد) الذى ظهر منذ سنين ، ولولا أنه شغل بالادارة عن التأليف لكان لمصنفاته تأثير عظيم فى بسط آراء المتقدمين فى الأصول والتوحيد والأخلاق ويعتد الشيخ حسين والى من أشد أنصار الغزالى ، فهو يدافع عن وجهته فى التصوف ، لأن التصوف فى رأيه لا يخرج عن الأصول الإسلامية ، والغلو الذى نراه فى الإحياء ليس إلا تمكيننا

للمعاني التي يدعو اليها الغزالي . وهو لا يرى أن الغزالي قصد بمؤلفاته فئة من الناس ، وإنما يرى أنه كتبها لجميع الطوائف ، وكل فريق يأخذ بقدر استعداده ، وبقدر ما يصلح له من أنواع الإخلاق . والغزالي عنده معذور فيما وقع له من ضعف الحديث . لأنه لم يرد غير تأييد وجهة نظره بما اتفق له من الأحاديث والأخبار والآثار . ومن البعيد أن يضع حديثاً في كتاب من كتبه وهو يعلم أنه موضوع أو ضعيف ، مع ما عرف عنه من الأمانة والاختصاص

١٠

رأى الشيخ عبد الباقي سرور

الاستاذ الشيخ عبد الباقي سرور من العلماء الأفاضل ، الذين جمعوا بين المعقول والمنقول . وكتابه عن «ماضى الاسلام وحاضره» الذي نشره في جريدة الأفكار من أدق ما كتب المصلحون في العهد الأخير . ويندر أن يظهر كتاب ولا يطلع عليه ، فهو لذلك أعرف العلماء بالحركة الفكرية ، وأعلمهم بما يجري في عالم السياسة ، والفلسفة ، والاجتماع . وهو فوق ذلك أعرف الناس على وطنه ودينه ، وإنه لعلى خلق عظيم

ويرى الشيخ عبد الباقي أنه ليس للغزالي مذهب خاص ، وإنما يتنوع دفاعه بتنوع الرأي الذي يدافع عنه ، وهذا منشأ ما في كتبه

من تباين الآراء : فقد كان محتج بأصول المعتزلة والأشعرية والكرامية ، وهو يناقش الفلاسفة ، ويريد بهذا أن يجمع في يده كل الاسلحة الفكرية ليدفع بها طغيان الفلسفة الذي كان يخشى على الدين من تياره . والشيخ عبد الباقي يرى ان التصوف في كتب الغزالي انما كتب للصوفية ، لالجميع الناس ، كما ظن ذلك كثير من الباحثين . ودليل هذا رجوعه في اخريات أيامه الى دراسة كتب السنة حتى ليذكرون انه مات والبخارى على صدره . ولعدم اختصاص الغزالي بمذهب خاص وجهة شريفة : هي تحري الحق والبحث عن عناصر القوة فيما كان لعهد من مختلف المذاهب . وهذه الوجهة فيما يرى الشيخ عبد الباقي ضمان للسلامة من التقاليد المذهبية ، التي تغل حرية الفكر ، وتحرم الباحث من الانتفاع بشعرات العقول

١١

رأى الشيخ احمد أمين

أحسن ما يوصف به الاستاذ الشيخ أحمد أمين أنه رجل نافع ، فان كتبه ورسائله مفعمة بالآراء الجيدة ، التي تغرس الحياة في نفس المستفيد . وعمله في لجنة التأليف والترجمة والنشر عمل الرجل

الذي يعرف أن لا حياة لأمته بغير العلم ، ولهذه اللجنة أثر كبير في الحركة العالمية ، ولأعضائها فضل عظيم على شباب هذا الجيل ويرى الشيخ أحمد أمين أن الغزالي حول الناس عن الاشتغال بالفلسفة ، ورجعهم الى الكتاب والسنة ، وأعلى شأن التصوف والصوفية . وحبب ذلك الى الناس . وأسلوبه في الترغيب والترهيب أنفع الأساليب في هداية الجماهير . ويرى معنا أن الغزالي لم يضع طريقة نافعة لخلوص المرء من شكوكه . وأن آراءه في الأخلاق لا تنفع في هذه الايام ، لأن المدنية الحديثة تتطلب قوة التنازع ، وهو يفضل السلامة على كل شيء !

خاتمة الكتاب

الآن ، وقد قدمنا للقارئ ما وفقنا اليه في درس الأخلاق عند الغزالي ، نوصيه بأن يرجع إن شاء الى كتاب الاحياء ، وكتاب الميزان ، وكتاب المنهاج ، وكتاب المستصفي ، وإلى المصادر الأجنبية التي ذكرناها في غير هذا المكان ، وإلى كل ما يستطيع الوصول اليه مما يتعلق بالغزالي ، ليعرف صحة ما في هذا الكتاب من مختلف الأحكام

ونحن لا ننكر أننا كنا قساةً في نقد الغزالي ، ولكننا نرجو أن يتنبه القارى أيضاً إلى ما كشفنا الغطاء عنه من حسناته .
ونحب أن يذكر الذين أسرفوا في اللوم عند ما علموا بعض ما يحتويه هذا الكتاب ، أننا لم نكتب لإرضائهم أو إغضابهم ، وإنما وضعنا نصب أعيننا غاية واحدة ، هي خدمة العلم والتاريخ ، خدمة خالصة لوجه الله ، لا للناس

وأحب أن أسجل هنا كذلك ، أنى ترددت فيما نصحنى به حضرات الأساتذة من رفع بعض المسائل التى ثار من أجلها الخلاف ، فلم أرفع منها شيئاً ، وإنما أصنفت إليها بعض البيان ، فليس على لجنة الامتحان أية مسئولية ، وإنما أنا وحدى المسئول

* *

أما بعد فإني أسأل الله أن يجزىني بفضله على ما قدمت في سبيل العلم والدين من صادق الجهود ، واليه وحده أرفع الرجاء ، فقد مني الناس بالجهود ، ونكران الجميل

« رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا . رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مِنَ الْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادِ »

الاسلام والاخلاق*

يقول المرجفون إنى قررت أن الدين الاسلامى دين فتح لا دين أخلاق . ولولا ضعف ملكة النقد فى مصر ، لما شاعت هذه الاكذوبة ، ولما وجدت من يتلقاها بالقبول . فليس من الجائز أن رجلا مثلى قضى فى الازهر خمسة عشر عاماً يحكم بين الجماهير فى دار الجامعة المصرية بان الدين الاسلامى ليس دين أخلاق ، وهو يعلم على الأقل أنه يجد معارضين أشداء من طلبة الازهر وعلمائه ، وقد حضر منهم يومئذ عدد غير قليل وهأنذا أشرح للقراء أصل هذه الأ كذوبة التى تناقلها الناس ، ليعلموا الى أى حد يجرؤ المتقولون على تشويه الاحاديث !

قلت فى رسالتى « إن ما كتبه الغزالى عن التوكل صريح فى الدعوة إلى الرهينة ، وقطع العلائق مع الناس ، والتدرج على احتمال الظم والجوع ، والافتناع بان الموت من جملة الارزاق » فلما سألتى حضرات الاساتذة الممتحنين عما يؤيد هذا الحكم من كلام الغزالى ، قدمت لهم قوله « فان قلت فما قولك فى القعود فى البلد بغير كسب : أهو حرام أو مباح أو مندوب ؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام ، لأن صاحب السياحة فى البادية إذا لم يكن مهلكا نفسه ، فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه ، حتى يكون فعله حراماً . بل لا يبعد أن يأتبه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخر عنه ، والصبر ممكن الى أن يتفق . ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد اليه ففعله ذلك حرام ، وإن فتح باب البيت وهو غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له .

ولكن ليس فعله حراماً إلى أن يشرف على الموت ، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب »

وهنا لا أكنتم القارىء انى حملت على الغزالي حملة شديدة ، ورميته بجهل أسرار الدين ، وسخرت من الآداب التي وضعها للمتوكل حين يخرج من بيته : إذ يدعو الى أن لا يترك في البيت متاعاً يحرص عليه السراق ، والى أن لا يجزن اذا سرق متاعه بل يفرح اذا أمكنه ، والى ان لا يدعو على السارق الذي ظلمه بالأخذ ، فان فعل بطل توكله ودل على تأسفه على ما فات ، ويدعوه الى ان يفتن لأجل السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله ، ويشكر الله اذ جعله مظلوماً ولم يجعله ظالماً !

ثم قلت في التعليق على هذه الآداب الميته « وما ادري ما الذي انسى الغزالي ان يحض المتوكل على ان يترك باب البيت مفتوحاً وان يعلق عليه لوحة مكتوباً فيها بخط واضح جميل : من اراد ان يأخذ شيئاً من هذا البيت فهو مغفور الذنوب ، بل مجزي بما مكّن صاحبه من صنع المعروف » !!

عند ذلك تدمر الحاضرون من العلماء ، وقال فضيلة الاستاذ الشيخ اللبان : لا عيب على الغزالي في ذلك لأن الدين الاسلامي دين أخلاق ، فقلت : وهو قبل ذلك دين فتح وامتلاك ، وليس من الاخلاق في شيء ان يجرد المرء بيته حتى لا يبقى فيه متاع يحرص عليه السراق ، فهل جانبت في ذلك الصواب ؟

والظاهر ان حضرات العلماء فهموا من الفتح التخريب ، والاعتداء على الشعوب . كلا ياهؤلاء ! الدين الاسلامي دين فتح ، رضيت ام كرهتم ، وللفتح شروط وآداب سنّها الدين الحنيف ، وانتم حين تنفرون من كلمة « الفتح » انما تجارون الاجانب الذين يتوددون اليكم بوصف

الاسلام بالقناعة والرضى بالقليل . وهذا خطأ صراح ، فان الدين الاسلامي ابعد الاديان عن الزهادة ، وابفضها للخمول ، ولا حرج على الاسلام في ان يرغب اتباعه في امتلاك ناصية العالم ، فان هذا امل نبيل ، ولم يحدثنا التاريخ عن امة قوية ، او ملة قوية ، وضعت حداً لمطامعها في الحياة ، وانما ترغم الأمم الضعيفة ، او الممل الضعيفة ، على ان تحدد آمالها واطماعها بضيق الحدود !

ستقولون : ان رسول الله وأصحابه لم يأمرؤا المجاهدين بحرب القسيسين والرهبان ، بل أمرؤهم بالرفق بهم ، والابقاء عليهم ، كما أمرؤهم بعدم التعرض للأطفال والنساء والكهول . وأقول لكم : ان هذه المعاملة لا تدل على أن الاسلام ليس دين فتح ، ولكنها تدل على أن الاسلام كان أحكم من أن يبدأ فتوحاته بارهاق النفوس وتنفير القلوب . وهذه الملاينة ، وذلك الرفق ، من الأسلحة الماضية في استلال السخائم ، والتبشير بالدين الجديد . وكذلك دعا النبي الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادل خصومه بالتي هي أحسن ، حتى ظفر بالفتح المبين

هذا ما أريد من أن الاسلام دين فتح وامتلاك . ولو بعث رسول الله اليوم ، ورأى ما أنتم عليه من قلة وذلة ، لبلى رداءه بدموعه ، ولكان له مع حضرات العلماء موقف يرد الولدان شيباً . . أفتحسبون أن قوله عليه السلام (بعثت لأتمم مكارم الاخلاق) معناه أنه جاء لينشر علينا ، ويذيع فينا ، تلك المبادئ السقيمة ، التي دافع عنها الغزالي وأمثاله ، حين تكلموا عن التوكل والصبر والخمول ، وتابعهم في ذلك مع الاسف علماء هذا الجيل ، في غير خجل ولا استحياء ؟

انا لا انكر أن التوكل فضيلة ، ولكن انكر ان يكون معناه

الاقتناع بان الموت من جملة الارزاق ، وانما التوكل ان تقتحم المصاعب معتمداً على الله (وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) والصبر فضيلة . ولكن على ان يكون صبراً على الجهاد لاصبراً على الضيم . والحمول فضيلة . ولكن على معنى ان تقبل على عملك غير حاسب للشهرة حساباً . فاما ما نقل الغزالي من ان بعض العلماء كان يترك الدرس اذا زاد الطلبة عن ثلاثة إشاراً للخمول ، فهي خطة سلبية ، وهروب من الواجب ، تعالت الاخلاق عما يصفون !

ومن المعجيب ان نجد العلماء يضربون الامثال بزهد النبي وخلفائه ، وكان عليهم ان يعرفوا ان الزهد من النبي وخلفائه فضيلة قضت بها الضرورة ، وهانحن اولاء نرى بأعيننا كيف تنظر الجماهير الى ما يملك رؤساء الحكومات نظر المحنق المغيظ ، فلا عجب ان يتنبه رسول الله صاحب الخلق العظيم الى ما فطرت عليه الجماهير من حسد من يملكون زمام الامور . ولو قضت الظروف اذ ذاك بان يكون النبي فرداً من جماعة يسوسها غيره ، لرايناه ينمى ثروته ، ويسمى جاداً في استغلال ما يملك من ارض او مال . . . على اني اعلم من سيرة رسول الله ما يدل على انه كان ينظر الى الدنيا بعين ملؤها الحب والاعزاز ، وحسبنا ان نتلو قول اصدق القائلين « ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » فهل ترونه قال : آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنتين أو حسنات ؟ ! أو ليس من جلال الدنيا ان تسوى بالآخرة ؟

من أجل هذا ترونني أنكر أن تكون « الأخلاق » في الاسلام معناها الرضى بالموجود وان قل وهان ، ومن أجل هذا عارضت الغزالي بعد ما عاشرته في مؤلفاته بضع سنين ، فماذا تنقمون مني بعد هذا البيان ؟

الى الدكتور زكى مبارك

قصيدة لحضرة الشاعر المبدع السيد حسن القاياتى

ماذا اعتزمت وما نويته العلم أيسر ما وعيتسه
اليوم رُحْتَ بغبطةِ فاهناً زكى بما جنيتَه
للكون سرٌّ لو سمو تَ إليه فى دَعَةٍ حَويتَه
لم تقضِ مصرٌ دينها للعلمِ إلا مُدَّ قضيتَه
يسمو برأسك أنه للحق أكثر ما حنيتَه
قيل الضلالُ وإنما نور الهداية ما اجتليتَه
دينٌ عصيتَ بهِ النهى والعلمُ كالزئبقِ اتَّقيتَه
إن الجود مسودُّ أطربتني لما نَعيتَه
لا تشكُّ زفرة حاقِدٍ من صدره أنت اشتويتَه
كم يحسدون محسداً فى عامه، فهل اجتديته ؟
تَهْ بالكتابِ فإنه عن قلبِ أوابِ رويتَه
للعلمِ عرشٌ لم تزلْ تسبى النهى حتى رَقيتَه
إيهٍ لخدتكِ إنه أصغى لسحركِ فاستبيتَه

حسن القاياتى

للدكتور زكي مبارك

تحت هذا العنوان نشرت جريدة الأفكار الفراء في يوم الأحد ١٨ مايو سنة ١٩٢٤ الكلمة الآتية :

« كان منتصف الساعة الخامسة بعد ظهر الخميس الماضي موعد امتحان الاستاذ زكي مبارك في الجامعة المصرية لاجراز شهادتها النهائية ، فادنت الساعة الرابعة حتى غص مكان الامتحان بجماعة من كبار العلماء والكتاب وطلبة الجامعة وطلبة المدارس العالية ومحبي العلم وأنصاره . وما أذنت ساعة الامتحان حتى أخذ أعضاء اللجنة أماكنهم ، وهم حضرات الأستاذة الشيخ عبد الوهاب النجار ، والدكتور أحمد ضيف ، والأستاذ عبده خير الدين ، وصاحب العزة محمد بك جاد المولى . وكانت رئاسة اللجنة للدكتور منصور فهمي . وجلس أمامهم الاستاذ الشيخ محمد زكي عبد السلام مبارك ليمتحنوه في رسالته « الاخلاق عند الغزالي » وموضوعيه اللذين اختارهما ، وهما « الرق في الاسلام » و « الصور الشعرية »

بدأ الاستاذ النجار يلقي على الممتحن السؤال إثر السؤال ، وكانت أسئلته غاية في الدقة ، وكذلك كانت الأجوبة ، الا في بعض مواضع نادرة جداً ، كان فيها الشيخ زكي علياً بسبل التخلص منها ، خبيراً بما يقبل فيها من الأعدار . ثم بدأ محمد بك جاد المولى مندوب وزارة المعارف يسأل : فكانت أسئلته أسئلة عالم محقق ، عني بدرس الرسالة وبدرس الغزالي معاً ، فكان إعجاب السامعين بها شديداً جداً ، وكذلك كان إعجابهم بالمجيب في أكثر مسائله عنه . ثم تتابع السائلون حتى تم الامتحان في الرسالة وفي الموضوعين

ولقد كان موقف رئيس اللجنة وهو الدكتور منصور موقف الاستاذ
الرحيم المشفق بتأييده ، الطروب المعجب به معاً . كان رحيماً مشفقاً حين
تشتد الأسئلة وتقسو ، وكان طروباً معجباً حين يرى تأييده قد خلص
منها على فرط شدتها خلاص الخمر من نسج القدام

أما الشيخ زكي مبارك ، أما زكي أفندي مبارك ، أما الدكتور زكي
مبارك ، فقد دل الممتحنين على الإحاطة التامة بما درس ، وقوة الترجيح
فيما رأى ، وصحة المذهب فما ذهب . ورأوا فيه فوق ذلك ثباتاً وجرأة
قلما تتوفر لكل طالب في موقف كهذا الموقف . ولقد كانت أجوبته
دليلاً على أنه حر الفكر ، حر الضمير ، لا يتقيد إلا بما يحس أن العقل
يطالبه بالتقيد به ، ولا يذعن إلا بما يؤمن بأن العلم يكلفه الاذعان له .

فلقد دارت أسئلة حول القديم والجديد ، أو حول الاطلاق والتقييد
وكان انصار القديم كثيرين ، وأنصار الجديد قليلين ، أو كانوا كثيرين
ولكن لا يحبون أن يظهرُوا ، ولكن لم يجد زكي مبارك حرجاً في أن يظهر ،
ولم يجد حرجاً في أن يصد من انصار القديم ، ولم يجد حرجاً في أن يلين لهم
حين بصُر بهم يعضون ، ورأهم يثورون ، ليهدي من ثورتهم ، ويخفف
من غضبهم ، فدل بهذا على أنه حاذق ، لا يفعل المداراة ، حين لا تكون
سبيل غير المداراة

كذلك كان صديقنا زكي مبارك في هذه الجلسة التي عقدت لامتحانه ،
ومنحه شهادة الدكتوراه . وهل كان غير ذلك وهو طالب في الأزهر
الشريف وفي الجامعة المصرية ؟ فنحن نهنيء الاستاذ بهذا النجاح ، ونهنيء
الجامعة بأن كان زكي مبارك ابنها الخامس الذي أحرز شهادتها العليا
بدرجة « جيد جداً » سائلين الله أن يكثر لها من هؤلاء الأبناء البررة
الذين يخدمون العلم ، ويخدمون الأمة ، بخير ما يخدم به الأمم «

فهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٥٢	حياته الروحية	١	فاتحة الكتاب
٥٥	فهمه للحياة		الباب الأول
٦٠	وفاته وراثته	٤	العصر الذي عاش فيه الغزالي
	الباب الثالث	٦	الدولة السلاجوقية
٦٤	المنافع التي استقى منها الغزالي	٩	الباطنية
٦٩	المصادر الفلسفية	١٢	الحروب الصليبية
٧١	اخوان الصفا	١٦	للمدارس النظامية
٧٣	الفارابي	٢١	روح ذلك العصر
٧٤	ابن سينا	٢٦	البلدان التي عرفها الغزالي
٧٥	ابن مسكويه	٢٧	طوس
٧٩	منبع التصوف	٢٩	نيسابور
٨٠	أصل التصوف	٣٢	جرجان
٨٠	أنفاس الصوفية	٣٤	دمشق
٨٢	قوت القلوب	٣٩	بيت المقدس
٨٣	الرسالة القشيرية	٤٢	أعيان ذلك العصر
٨٥	من عرف الغزالي من الصوفية	٤٣	الشهرستاني
٨٥	الامام الشافعي	٤٤	الابوردي
٨٧	المزني وحرمة والمحاسبي	٤٥	الارجاني
٨٨	الجنيد		الباب الثاني
٨٩	منبع الشريعة	٤٦	حياة الغزالي
٩٠	الانجيل	٤٧	أسرته
٩٤	أساتذة الغزالي وأصحابه	٤٩	مولده ونشأته

الصفحة الموضوع	الصفحة الموضوع
١٥١ الاغراض والنتائج	الباب السابع
١٥٤ الوسائل والغايات	٩٦ مؤلفات الغزالي
١٥٦ وضع القصص	٩٩ طريقته في التأليف
الباب السادس	١٠٢ الصوت المردد في مؤلفات
١٥٩ الأُخلاق	الغزالي
١٦٠ تعريف الخلق	١٠٣ كتاب الاحياء
١٦١ تربية الخلق	١٠٥ أغلاط الاحياء
١٦٣ كيف يربي الخلق	١١٦ غفلة الغزالي وعناده
١٦٥ إمكان تغيير الخلق	١١٩ السكذب على الغزالي
١٦٦ أقسام العلبائع	الباب الخامس
١٦٧ كيف يعرف المرء عيوب نفسه	١٢٢ الخير والشر
١٦٩ علامات حسن الخلق	١٢٣ الحسن والقبیح
١٧٠ الطريق الى تهذيب الاخلاق	١٢٤ مشارات الغلط
١٧٣ غاية الاخلاق	١٢٦ نقض حجة المعتزلة
١٧٤ مناقشة قصيرة	١٢٧ تحرير هذا البحث
١٧٦ هل تورث الاخلاق	١٢٩ الضار والنافع
١٧٩ تحرير هذا البحث	١٣٠ العمل والاعتقاد
الباب السابع	١٣٣ مقياس الخير والشر
١٨٠ تحديد الفضيلة	١٣٤ إغفال الغزالي لهذا المقياس
١٨٣ أمهات الفضائل	١٣٧ الارادة
١٨٤ الفضائل السلبية	١٤١ تربية الارادة
١٨٥ الفضائل الفردية	١٤٢ أهمية الارادة
١٨٦ درجات الاخلاق	١٤٣ الجبر والاختيار
١٨٧ فضيلة الصدق	١٤٨ الضعير

الصفحة الموضوع	الصفحة الموضوع
٢٢٦ رذيلة الحسد	١٨٨ مراتب الصدق
٢٢٧ رذيلة العجب	١٩٠ فضيلة الصبر
٢٣١ رذيلة الكبر	١٩١ أسماء الصبر
٢٣٤ آفات اللسان	١٩٢ درجات الصابرين
٢٣٥ الكلام فيما لا يعنى	١٩٢ حكم الصبر
٢٣٧ فضول الكلام	١٩٣ ضرورة الصبر
٢٣٧ الخوض فى الباطل	١٩٤ تحصيل الصبر
٢٣٨ المراء والجدال	١٩٥ فضيلة التحول
٢٣٩ الخصومة	١٩٦ فضيلة التوكل
٢٤٠ التقعر فى الكلام	١٩٨ كراهة السؤال
٢٤١ الفحش	١٩٩ حكم الكسب
٢٤٢ اللعن	٢٠٤ مقامات المتوكلين
٢٤٢ المزاح	٢٠٥ توكل المعيل
٢٤٣ الاستهزاء	٢٠٦ الادخار
٢٤٣ افشاء السر	٢٠٧ آداب المتوكلين
٢٤٤ الوعد الكاذب	٢٠٩ توكل الخائف
٢٤٤ الكذب فى القول واليمين	٢١٠ توكل المريض
٢٤٤ الغيبة	٢١٣ ملاحظات ثلاث
٢٤٦ النعيمة	٢١٥ فضيلة الاخلاص
٢٤٧ كلام ذى اللسانين	الباب الثامن
٢٤٨ المدح	٢١٨ توى الرذائل
٢٤٩ الغفلة	٢١٩ رذيلة الغضب
٢٥٠ السؤال عن صفات الله	٢٢٣ درء الشر بالشر
٢٥١ رذيلة الرياء	٢٢٤ رذيلة الحقد

صفحة الموضوع	الصفحة الموضوع
٢٩٧ حقوق الجوار	الباب السابع
٢٩٩ حقوق الاقارب	٢٥٣ المعلوم
٣٠٠ حقوق الوالدين	٢٥٥ مناقشة قصيرة
٣٠٠ حقوق الابناء	٢٥٦ الشك طريق اليقين
٣٠١ واجب التاجر	٢٥٧ علم الفقه
٣٠٤ آداب المسافر	٢٥٩ علم التوحيد
٣٠٦ حقوق المرأة	٢٦٢ الفنون
٣١١ الرفق بالمرأة	٢٦٤ الشعر
٣١٢ واجبات المرأة	٢٦٥ الموسيقى
٣١٤ آداب السكتاب	٢٦٨ الغناء
٣١٥ واجبات الملوك	٢٦٩ غناء المرأة والأمرد الجميل
٣١٨ حقوق الوزراء	١٧٠ موضوع الغناء
٣١٩ معاملة الملوك الظالمين	٢٧١ ما يباح من الغناء
٣٢١ حقوق الأخوة	٢٧٢ آداب السماع
٣٢٢ حب المرء لذاته ولجماله	٢٧٤ الرقص
٣٢٢ الحب للمنافع الدنيوية	٢٧٥ النقش والتصوير
٣٢٣ الحب للمنافع الاخرية	٢٧٧ خلاصة هذا البحث
٣٢٤ الحب لمنافع الدنيا والاخرة	٢٧٨ تربية الاطفال
٣٢٤ الدنيا خليفة بالحب	٢٨٤ تربية البنات
٣٢٥ الحب لله	٢٨٥ آداب المعلمين
٣٢٥ ميزان الحب	٢٨٩ « المتعلمين
٣٢٦ ماللاخ على أخيه	الباب العاشر
٣٢٦ حقوق الاخ المذنب	٢٩٢ واجب المرء نحو نفسه
٣٢٨ البنفس في الله	٢٩٤ واجبه نحو اخوانه في الدين

الصفحة الموضوع	الصفحة * الموضوع
٣٥٢ تأثير الاحياء	٣٢٨ العصيان بالاعتقاد
٣٥٦ الانتفاع بمؤلفات الغزالي	٣٢٩ العصيان بالفعل
٣٥٨ عناية الاجانب بالغزالي	٣٣٠ نتيجة
٣٦١ الفوز للحياة	٣٣١ آداب الزواج
الباب الثاني عشر	٣٣٣ الخروج من المظالم
٣٦٣ انصار الغزالي وخصومه	٣٣٣ مظلمة العرض
٣٦٣ ابن رشد	٣٣٣ مظلمة المال
٣٦٨ ابن تيممة	٣٣٤ صرف المال الحرام
٣٧١ ابن القيم	٣٣٥ مظلمة النفس
٣٧٢ السبكي	٣٣٦ واجب الاحتساب
٣٧٣ الزبيدي	٣٣٧ شروط المحتسب
الباب الثالث عشر	٣٣٩ المنكر المنهى عنه
٣٧٤ الموازنة بين الغزالي وبين	٣٤٠ صفات المرشد
الفلاسفة المحدثين	٣٤١ أنواع المنكرات
٣٧٤ الغزالي وديكارت	٣٤٢ درجات الاحتساب
٣٧٥ مؤلفات ديكارت	٣٤٣ ارشاد الامراء
٣٧٦ شكوك ديكارت	الباب الحادى عشر
٣٧٨ الفرق بين الغزالي وديكارت	٣٤٤ تأثير الغزالي في عصره
٣٧٩ أسلوب ديكارت	وما تلاه من العصور
٣٨٢ الغزالي و بسكال	٣٤٤ تجديده للقرن الخامس
٣٨٤ الغزالي وهوبس	٣٤٥ المنامات والاحلام
٣٨٨ الغزالي و بوتلير	٣٤٨ تلامذة الغزالي وأصحابه
٣٨٩ الغزالي وكارليل	٣٤٩ مؤلفاته وفتاويه
٣٩١ الكفر والايمان	٣٥١ علاقة الفقه بالاخلاق

الصفحة الموضوع	الصفحة الموضوع
٤١٠ رأى الاستاذ جاد المولى بك	٣٩٢ رأى الغزالي في الاجتهاد
٤١١ رأى الشيخ جاريش	٣٩٤ تحرير هذه المسألة
٤١٢ رأى السكونت دى جالارزا	٣٩٥ الخطأ والعتاد
٤١٣ رأى الدكتور العناني	٣٩٧ ترجيح بلا مرجح
٤١٤ رأى الشيخ عبد الوهاب النجار	٣٩٨ ظلم الابرياء
٤١٥ رأى الشيخ حسين والى	٣٩٩ الغزالي وسبينوزا
٤١٦ رأى الشيخ عبد الباقي سرور	٤٠٢ الغزالي وجسندى
٤١٧ رأى الشيخ احمد أمين	٤٠٤ الغزالي ومالبرانث
٤١٨ خاتمة الكتاب	الباب الرابع عشر
٤٢٠ الاسلام والاخلاق	٤٠٦ آراء علماء العصر في الغزالي
٤٢٤ قصيدة السيد حسن القاياتى	٤٠٧ رأى الدكتور منصور فهمى
٤٢٥ كلمة الافكار	٤٠٨ رأى الشيخ على عبدالرازق
	٤٠٩ رأى الشيخ يوسف الدجوى

« الغلطات المطبعية »

صحح هذا الكتاب بغاية العناية ، فلم تظهر فيه إلا غلطات معدودة ، لا يتغير بها المعنى ، ويكفى أن ننبه على أنه جاء في ص ١٣٦ (من يلتفت الى غيره) وصوابها (من لا يلتفت الى غده) وفي ص ١٤٥ (الأعداد) وصوابها (الأعداد) وفي ص ١٢٨ (ما يثبتون به حسن) وصوابها (ما يثبتون به أنه حسن) وفي الباب الأول وضعت كلمة الفصل الثالث موضع الفصل الثاني . وما عدا ذلك لا يفوت القارئ والفضل في ندره الغلطات المطبعية في هذا الكتاب يرجع الى حسن النظام في المطبعة الرحمانية التي كان لعالمها نصيب وافر في إدراك ما يغفل عن المصحح في بعض الأحيان

المراجع

تنقسم مصادر هذا الكتاب إلى عربية وفرنسية . أما المصادر العربية فأهمها مؤلفات الغزالي ، وهي : إحياء علوم الدين ، ومنهاج العابدين ، والاربعين في أصول الدين ، وميزان العمل ، وجواهر القرآن ، والادب في الدين ، ومشكاة الانوار ، ونصيحة الملوك ، والمنقذ من الضلال ، وإلجام العوام ، وخلاصة التصانيف ، ورسالة الطير ، وكيمياء السعادة ، ومكاشفة القلوب ، وقواعد الطريق العشرة ، والاملاء على ما أشكل من الاحياء ، والكشف والتبيين ، والقسطاس المستقيم ، ومقاصد الفلاسفة ، والتفرقة بين الاسلام والزندقة ، والدرة الفاخرة ، والمستصفي في الاصول

ومما يتعلق بالغزالي من المصادر العربية : طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ، وشرح الاحياء للزبيدي ، وقوت القلوب لابن طالب المسكي ، والرسالة التشريحية ، ومجلة الهلال ، والسعادة لابن مسكويه ، وتهذيب الاخلاق له ، وفلسفة ابن رشد لفرح انطون ، والذخيرة في المحاكمة بين تهافت الفلاسفة لعلاء الدين الطوسي ، وحياتة الغزالي للدكتور زويمر ، وفتاوى ابن تيمية ، وأعلام الموقعين لابن القيم ، وفصل المقال لابن رشد ، ومحاضرات الكونت دي جالارزا في الجامعة المصرية سنة ١٩ و ٢٠ . ومبادئ الفلاسفة تعريب احمد امين ، والملل والنحل للشهرستاني ، ومعجم البلدان لياقوت

وأهم المصادر الفرنسية:

gazali. par Carra de Vaux

études sur la philosophie d'Averroës concernant son rapport avec celle d'Avicenne et gazali. par Moher

traité d'éschatologie musulmane. par lucien gautier

encyclopédie de l'islam (20^e livre)

histoire de la philosophie. par paul Janet

cours de philosophie. par e. boirac

averroës. par e. renan

مؤلفات

زكريا مبارك

البدائع

الطبعة الأولى

حبيب بن عبد الله وشيخه

الطبعة الثانية

الصور الشعرية

تحت الطبع

مدائح العشاق

تحت الطبع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

وبعد

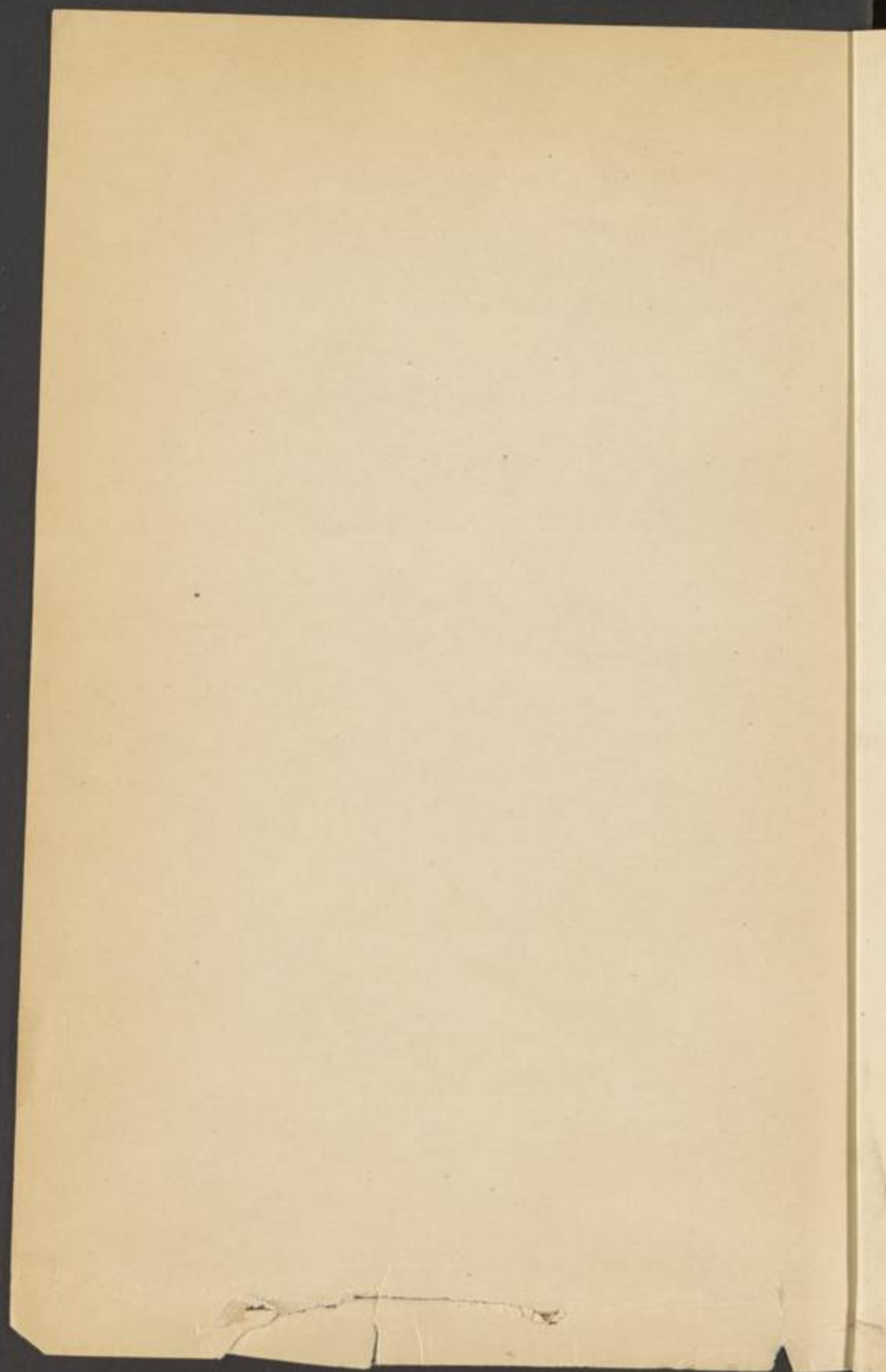
فإن من أسمى المناسبات

فإن من أسمى المناسبات

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

وبعد

فإن من أسمى المناسبات





**Elmer Holmes
Bobst Library**

**New York
University**

NYU - BOBST



31142 01676 3891

B753.G33 Z3

al-Akhlaq inda al-Ghazzali